إبراهيم أبو عواد

أشباح الميناء المهجور

(رواية)

العصافير مَرْميةٌ على مسرح الذاكرة صوتاً للقمح . الكلاب والقطط والجرذان تحاول بسط النفوذ على الشارع العام رغم ما يحدث بينها من مناوشات . وعمالُ النظافة يجمعون جثث الضحايا في أكياس بلاستيكية ، ويُلقون بها في مقابر جماعية . الأنقاض يتعالى نحيبها كأطفال العشب حين يتركهم ويذهب إلى الصيد . بائع الصحف يتكئ على عمود كهرباء آيل للسقوط . الركام في كل مكان . وصوت الرصاص راح يخفت شيئاً فشيئاً ، حيث طغت عليه أصوات سيارات الهلال والصليب الأحمرين . والأصوات المتشابكة ما زالت تُسمع في النواحي القريبة . البيوتُ تمت تسويتها بالأرض . لقد ورث المكانَ حشراتٌ لا شريعة لها إلا الكوليرا.

قال بائع الصحف مخاطباً عمال النظافة :

_ أنتم تضيعون وقتكم . اتركوا الأموات ، واذهبوا لإنقاذ الأحياء المحاصَرين تحت ركام المنازل والمحال التجارية .

رد عليه واحدٌ منهم بسذاجة ممزوجة بالمأساة :

_ إخراج الناس من تحت الأنقاض بحاجة إلى عمال متخصصين وأدوات لا تتوفر لدينا ، كما أننا نأخذ رواتبنا على تنظيف المكان لا إنقاذ البشر ! . فلتنتظر عمال الإنقاذ ليقوموا بتلك المهمة ، أو فلتذهب لإنقاذهم أنت .

أحس العجوز أن كلامه ذهب أدراج الرياح ، وأن صوته عاد إليه صفر اليدين كرجع صدى موحش لا يلقى أُذناً تحتويه . بدا المشهد كدور مسرحي يؤديه ممثل مبتدئ يتكلم مع الحيطان المكسرة مثل خصلات شعر ذهبية لرضيع ذبيح ، لكن أحداً لا يعيره انتباهاً لائقاً .

كظم العجوز غيظه ومضى في طريقه، وقد امتلأ قلبه حقداً على هؤلاء العمال، لكنه عاد إلى مراجعة نفسه واضعاً المسؤولية على الحكومة التي لم ترسل عمال الإنقاذ حتى الآن .

كان العجوز خضر الزاوي بائع الصحف يوزع نظراته بالتساوي بين صور الضحايا على ورق الجرائد وصورهم في الواقع . كانت مقارنة مؤلمة غاية في الألم . ولكن _ على ما يبدو _ أن دخوله في السبعين قد سلبه كثيراً من مخزون المشاعر ، فلم يعد يتأثر بمنظر الجثث ، ولم يعد يخاف من صوت الرصاص والمدافع . فمثلاً ، أنت تراه يشير إلى تلك الجثة وهو يضحك . وربما تسمعه يقول النكات عن القتلى والجرحى. وبالتأكيد هو لا يقصد الإهانة أو الاستهزاء، لكنه تعود على أخذ الأمور من هذا المنظار . فهو أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب . لم يكد يدخل في المدرسة حتى أُخرج منها من أجل إعالة أسرته بعد وفاة أبيه. تعارك مع الحياة بضراوة ، وما زال موغلاً في عراكه الدائم . وهذا جعل منه إنساناً بسيطاً، لا يعطي الأمور قَدْرَها الذي تستحقه من الأهمية. هكذا قضى حياته وهو سعيد بها . وكل المؤشرات تشير إلى أن مشواره سيستمر على هذا النحو .

وفي الحقيقة لستُ أدري لمن يبيع الصحف في هذا الخراب المطبق . إلا أن مهنته تأبى أن تفارقه بغض النظر عن الحال المعاشة .كانت أعضاؤه راسخة لا ترتجف . فهو لا يعرف الباركنسون (الرعاش) إلا من خلال ملاحظة أقرانه الذين امتد إليهم هذا المرض. مشيته ثابتة بين كل هذا اليباب . يُجيل بصره في العناصر المحيطة، ويستمر في المشي. كان يستمع إلى صرخات الاستغاثة تأتيه من كل حدب وصوب، تطلع له من بين قضبان الحديد المختلط بالأسمنت ، وكل العناصر معجونة بالأحلام المنسية ، تلك الأحلام التي نسي أصحابها أن يحلموا بها . لقد أكلتها الأرض بيدها ، بلا شوكة أو سكين . وكان كلما سمع صرخةً استغفر رَبَّه ، وطلب منه أن يسامحه لأنه غير قادر على إنقاذهم ، ولم يكن يملك غير الدعاء ، لا شيء سوى الدعاء .

كان هناك فتاة في العشرين من العمر تبحث عن شيء ما . تتفقد الأشياء التي تحاصرها من كل الجهات . وما إن وقعت عيناها على هذا العجوز حتى هرعت إليه

قائلة :

_ أبي ! لقد كنتُ أبحث عنك .

يجيب بكل برودة أعصاب :

_ ما الذي جاء بك يا فاطمة ؟ .

_ جئتُ لأقودك إلى المنزل .

_ وهل بقي لنا منزل في هذا الخراب ؟ .

_ الحمد لله ... لقد سلم منزلنا من القصف .

_ عودي وحدك . سوف أتجول قليلاً ، ومن ثم سآتي .

تجيب فاطمةُ بحدة :

_ لن أتركك يا أبي ، فإما أن نبقى معاً أو نذهب معاً .

لم يجد العجوز وسيلةً للتملص من إصرار ابنته، فوافقها على مضض. وفي عينيه شرارة جرح ضاحك رغم النزيف المستمر ، نزيفِ الأخيلة والمشاهدات القاتمة داخل قلبه وخارجه .

بدت طريقهما أشبه بوهمٍ مغلف بالأشباح التي تتكاثر في غير موسم التكاثر . احتضار مدينةٍ تسعى إلى الالتصاق بالحياة بأي ثمن . زرعا خطواتهما في صدى المكان لا صوته ، فهما لم يمتزجا بالصوت الذاهب في تقاطيع الأسمنت المتهاوي . عاشا على هامش الصدى في هذا المكان الذي تتكدس فيه كل عناصر الموت . نعم، إنه الموت يطلع من رعشات البشر وذكريات الحطام الذي يعلو ساكنيه السابقين . يعلوهم رغم محبته لهم ، ولكن ما الفائدة من محبة لا تترجم إلى واقع ملموس ؟! .

غابت الأزهار الواثقة والفراشات الملونة عن هذا المكان الذي لم يعد يجذب سوى كاميرات وسائل الإعلام التي تلهث وراء سبق يُستخرج من ضوضاء عظام المسحوقين . كان أحد المصورين برفقة مراسلة وكالة الأنباء يعملان على التقاط

صورة عينين محاصَرتين تحت الأنقاض . إن الكاميرا تفترس تلك العينين بلا رحمة ، ومراسلة وكالة الأنباء تصلح مكياجها تارةً ، وتُعلِّق على الموضوع تارة أخرى بعبارات تتكلف المأساة والحزن تكلفاً فاضحاً . وفي ذهن هذين الشخصين فرصة سانحة للحصول على سبق قد يرفع أسهمهما لدى صاحب المحطة ، وبالتالي قد يحصلان على مناصب أعلى . لقد كان المحاصَر إنساناً لا يظهر منه غير عينيه الموغلتين في السواد اللامع كبقايا مرآة مهشمة بسبب مشادة كلامية بين زوجين وضعا الفرح على الرف ، وركضا نحو الضياع .

لم يفكر المصور والمراسلة أن يساعدا ذلك الشخص بأية وسيلة كانت . إنهما حريصان على اصطياد لحظة المأساة بكل أبعادها المحسوسة وغير المحسوسة . وعندما فرغا من التصوير، نفضت المذيعة الغبار والأتربة عن بنطالها الضيق ، والملتصق التصاقاً جنونياً برجليها النحيلتين كرجلي جرادة متمسكة بهوية المستنقع. وبينما هي مُركزة في نفض الأتربة والغبار رأت العجوزَ وابنته يمشيان في هذا الفراغ الصاخب، ركضت نحوهما كطفلة تريد أن تطلب من أمها شيئاً . والمصور يتبعها هائماً على وجهه ، بعد أن أعطته إشارة فهم منها ضرورة اللحاق بها . إنهما ذاهبان إلى صيد جديد .

توقفت المراسلة في طريق الرجل وابنته ، وللأسف فهي لم تجد شيئاً تقف عليه في كل هذا المدى المرعب إلا جريدة فقدت كثيراً من صفحاتها يتلاعب بها الهواء ، استقرت تحت قدميها ، أو قل إن تلك القدمين المغبرتين استقرتا على الجريدة . وما إن رأت فاطمة هذا المشهد حتى اقتربت من حذاء المراسلة، وطلبت منها أن ترفع قدمها حتى تأخذ الجريدة . ظنت المراسلة للوهلة الأولى أن في الجريدة خبر خاص أو شيء من هذا القبيل ، لذا قالت ببساطة مختلطة بغبش الرؤية :

_ إنها مجرد جريدة تافهة لا قيمة لها ، ولا تصلح للقراءة .

ردت فاطمة مبتسمة وكأنها تسخر من جهل مُحَدِّثتها :

ـ إن الجرائد تحتوي أسماءً مقدسة ، ولا يجوز امتهانها أو رميها في القاذورات .

تدخَّل العجوز عندما سمع هذا الكلام قائلاً :

ـ كل الشعب يأكل على الجرائد ، ويرميها في القمامةِ ، وهو يعلم بما فيها .. هذا الشعب المذبوح يذبحنا .

وأردف قائلاً بعد أن أطلق تنهيدةً مريرة :

ـ الله يستر علينا .. نحن غاطسون في الحرام غطساً .

نظرت المراسلةُ باستخفاف مشوب بعدم الارتياح ، وقالت :

ـ يا جماعة ، لا تعطوا المسألة أكثر مما تستحق ، دعونا في الكوارث التي نحن فيها .

قالت فاطمة بحدة بعد أن أغضبها هذا الكلام :

ـ الكوارث التي نحن فيها بسبب الاستهانة بمسائل هامة مثل الجرائد، وها نحن ننتقل من كارثة إلى كارثة .

كان المصور قد أتعبه حمل الكاميرا ، وهو يراقب هذا الحوار الساخن نوعاً ما. لم يكن يعرف من الحياة سوى التصوير ، هذا هو انطباعي الأول عنه ، وقد أكون مخطئاً . بل إنني أتمنى أن أكون مخطئاً . وعلى الرغم من عدم مشاركته في النقاش إلا أنه كان يحس بأن الحق يقتضي عدم رمي الجرائد. ولكن أين سيذهبون بها ؟ . سؤال جديد هاجمه دون سابق إنذار، لكنه خشي من طرحه خوفاً من الدخول في نقاش جديد ، لا سيما وأنه كان في أقصى درجات الجوع والعطش ، فقد خرج من الصباح الباكر دون إفطار بعكس المراسلةِ التي أفطرت جيداً قبل الخروج .

قال المصور مخاطباً العجوز :

ـ هل يوجد ماء للشرب في هذا المكان ؟ .

في واقع الأمر كان المصور يتمنى أن تتم دعوتهما إلى الطعام ، لكنه خجل أن

يذكر كلمة " الطعام " ، واكتفى بذكر " ماء الشرب " .

رد العجوز وقد أصابه رذاذ الكرم العربي :

ـ بالطبع هناك مكانٌ ، واعتبرا نفسيكما مدعوين إلى الطعام في بيتي.

قال المصور وهو يكاد أن يطير من الفرح ، رغم كتمانه لمشاعره الحقيقية :

ـ لا نريد أن نزعجكم أو أن نكون عبئاً عليكم .

ـ لا عليك .. الجود من الموجود ، وعلى أية حال لا أحدٌ يشتري مني الجرائد في هذا المكان المندثر لو بقيتُ مئة سنة أدور . يعني لا يوجد أمامي إلا العودة إلى البيت .

وتابع يقول وهو يضحك بحرقة :

ـ من يراني وأنا أبيع الجرائد في هذا الحطام المخيف يعتقد أنني مخبول.. ولكن يا جماعة لم أعد أتصور يديَّ بدون أن تلمسا صفحات الجرائد .. رائحة الحِبر كأنها عضو من أعضائي .

ابتسم الجميع بسبب هذا الإحساس المرهف ، وتدخلت فاطمة قائلة :

ـ يا أبي ، دعنا نذهبْ إلى البيت كي نجهز الطعام في أسرع وقتٍ .

وذهب الجميع في موكب غير رسمي بلا سجاد أحمر ، بلا مصفقين وربطات عنق . إن المشهد شبيه كمقطورة تجر جلود دببة الباندا الصحراوية في مكان لا شيء يتكلم فيه سوى الموت أو الخراب الذي أبدعته الآلة العسكرية الحمقاء .

تناست المراسلة والمصور قضية السبق أو اللقاء التلفزيوني الذي كانا يخططان له في غمرة هذه الخطوات المتشظية إلى حِراب تحفر جبين الطريق المحطَّم. مشوا جميعاً محاصرين بالبنايات المحروقة ، والعمائر التي تم تسويتها بالأرض . وحده الحطام كان يُغَنِّي في تلك البقعة . وبعد أن استمروا في المشي لمدة عشر دقائق تقريباً وجدوا مجموعة من الأطفال يلعبون ببقايا مخلفات الحرب.

قال العجوز مخاطباً طفلة وحيدة تلعب مع مجموعة أولاد :

_ قلتُ لك يا خولة لا تلعبي مع الأولاد ، هؤلاء أولاد وأنتِ بنت . عيب عليك أن تكوني معهم .

ردت خولة وفي عينيها دهشةُ قطيع غزلان باغتها منحدر سحيق :

_ مع من سألعب ؟! . كل البنات مختبئات في البيوت ، خائفات من الخروج .

وهنا تدخلت فاطمة قائلة :

_ دعها يا أبي تلعبْ معهم ، هذه بنتٌ عنيدة ، وهي على كل حال ما زالت صغيرة .

ركن الأب إلى كلام ابنته فاطمة ، لكنه ظل مشغول البال ، حيث إن تفكيره متعلق بحفيدته خولة. هذه الطفلة التي دخلت للتو إلى المدرسة، لكنها الآن في إجازة مفتوحة هي وباقي الطلاب بسبب الأوضاع السياسية في البلد . فالحرب وضعت أوزارها للتو . وقد تم تعطيل المدارس والجامعات حتى إشعار آخر ، وهذه أوامر حكومية لا أحدٌ يملك معارضتها .

كانت خولة طفلة ذكية نحيلة ، ذات شعر أشقر، ملامحها تشي ببراءة تفوق براءة الأطفال المعتادة ، ورغم هذا كانت عنيدة بعض الشيء ، فليس من السهل أن تسيطر عليها ، أو أن توجهها إلى وجهة ترفضها . ربما ورثت العنادَ من أمها ذات الأصول التركية . لا أستطيع أن أؤكد هذا أو أن أنفيَه . المهم أنها كانت عنيدة على الرغم من الحساسية العالية تجاه الأشياء ، فأقل كلمة تدفعها إلى البكاء .

قال العجوز للضيفين :

_ تفضلا بالدخول إلى بيتنا المتواضع .

كان بيته عبارة عن شقة في الطابق الأول ضمن عمارة من خمسة طوابق . والحمد لله أن بيته لم يتضرر ، فقد كان القصف مركزاً على الطوابق العليا في العمائر العالية ، والتي تحيط بهذه العمارة التي يسكن فيها هذا العجوز . وهي التي

تضررت بشكل لافت . لا بد أن أصحابها سيعانون كثيراً في ترميمها ، هذا إن كانت أصلاً صالحة للترميم . فالأضرار بالغة إلى حد كارثي. وصاحب هذه العمارة رجلٌ يعمل في أمريكا ، وقد وكَّل أحد أقاربه لاستيفاء أجرة الشقق ، وإنني أرجح أنه لا يعلم شيئاً حول وضع عمارته في هذه الفترة ، فقد انقطعت الاتصالات بينه وبين سكانها أثناء الحرب . وما زالت خطوط الهاتف مقطوعة حتى اللحظة الحالية . إذ إن الحكومة لم تعمل بشكل فعال في تحسين الأوضاع، رغم المساعدات المالية والعينية التي تلقتها من الدول الشقيقة والصديقة. كان الفساد مستشرياً بصورة جنونية في الأوساط الحكومية ، فالمال الذي يأتي من الخارج لا يذهب إلى مشاريع إعادة الإعمار أو مساعدة المتضررين . بل يذهب إلى جيوب المسؤولين ، وهذه الحقيقة معروفة لدى الجميع ، لكن أحداً لا يجرؤ على البوح بها .

قرع العجوز جرس الباب ففتحت له زوجة ابنه ، فقال لها :

_ معنا ضيوف ، خذوا لنا طريقاً .

كانت هذه العبارة كافية كي تترك فايزة الباب، وتذهب إلى إحدى الغرف ، لتضع على رأسها الحجاب . فقد كانت في بيتها متكشفة ، وما إن سمعت كلام عمها حتى أسرعت لتستتر .

دخل الجميع إلى المنزل ، وطلب العجوز من المصور أن يتفضل إلى غرفة الضيوف . وبالفعل استجاب له . وعندما سمعت المراسلة هذا الكلام ظنته دعوة ضمنية لها للتفضل ، فحاولت أن تذهب مع الرجلين . لكن العجوز قال لها :

_ الرجال لوحدهم ، والنساء لوحدهم .

ثم وجَّه نظراته إلى ابنته قائلاً :

_ خذي ضيفتنا إلى غرفتك يا فاطمة .

كان هذا الكلام جديداً على المراسلة التي تعيش حياتها بالطول والعرض دون حواجز . تخرج مع من تشاء ، وتسهر مع من تشاء ، وتنام خارج البيت بحجة

متطلبات العمل . لا أحدٌ يسأل عنها ، أو قل لا أحدٌ يريد إزعاج نفسه بالسؤال عنها . وللأسف فراتبها الذي تأخذه تنفقه على المكياج والملابس الضيقة التي تُفصِّل جسمها كما لو كانت جرادة خارجة من الاستحمام باليورانيوم للتو . ومما زاد الطين بلة أنها مؤخراً أجرت عملية تجميل لتكبير صدرها ، بعد أن قال لها مدير المحطة بكل وقاحة إن حجم صدرها لا يجذب الجمهور ، وهو مضطر إلى الاستغناء عنها إذا لم تفعل شيئاً حيال ذلك ، فما كان منها إلا أن لبت طلبه ، وأجرت عملية التجميل .

دخل الرجلان إلى غرفة متواضعة ، أثاثها بسيط بشكل أكثر من اعتيادي . ودهان الحيطان ذابل ومتساقط على جسد الأسمنت . وعلى الحائط برواز لآية الكرسي، وتحته صور خمسة شباب، تظهر على وجوههم مسحة الرجولة والعنفوان. وفي إحدى الزوايا خربشات صبيانية واضحة مثل : أحبك يا بابا... لماذا تتركنا يا بابا ؟ . لاحظ العجوز دهشة الرجل وتعجبه من منظر هذه الخربشات ، فحاول إزالة دهشته قائلاً :

_ هذه خربشات حفيدتي خولة ابنة بلال .. كلما أزلناها رجعت تكتب من جديد .

قال المصور وفي عينيه بريق التفهم واستيعاب الأمور يمتزجان بحنين من نوع خاص :

_ لا بد أنها تحب أباها كثيراً وتشتاق إليه .

_ كلامك صحيح ، فأبوها دائماً غائب فهو جندي في الجيش . وأمر جيد إذا رأيناه في الشهر مرة أو مرتين .

_ ولكني أعرف أنهم يعاملون المتزوجين معاملة خاصة ، ويسمحون لهم بأخذ إجازات أكثر من الآخرين .

_ هذا الكلام لا ينفع مع جيشنا الخارج من حرب والداخل في حرب،ويا ليت

أننا نقاتل أعداءنا. الأخ يقاتل أخاه ، والبلد في حرب لا تنتهي مع جيراننا وإخواننا. صار الأب عدو لابنه ، والصديق يقتل صديقه . كل الأمور معقدة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

وأردف قائلاً :

_ بصراحة حكومتنا متخلفة ، ورئيسنا علمه في السياسة مثل علمي في اللغة الصينية. لي ثلاثة أولاد قُتلوا في حروبنا مع جيراننا ، وبصراحة أن خجلان أن أقول استشهدوا لأني لا أعرف هل ماتوا شهداء أم لا .. كيف قُتلوا ومن أجل أي شيء قُتلوا، لا أحدٌ يعرف، إن دولتنا تسير وفق مزاج الحاكم ، هو يُضيعنا ونحن ساكتون ومختبئون مع نسائنا في غرف النوم .

ولما سمع المصور هذا الكلام رق قلبه ولمع الملح في دمعتين متجمدتين ومختفيتين في عينيه الغائرتين ، وقال :

_ أنا آسف يا عمي أني فتحت باب المواجع ، صدقني لم أكن أقصد أن أذكرك بأحداث حزينة .

استجمع العجوز قواه الذهنية ، وتصلبت نظراته محاولاً إخفاء بكاء عارم على وشك الهطول ، وقال متصنعاً الصلابة :

_ لا عليك ، كلنا سوف نموت . نحن أموات وأولاد أموات وآباء أموات ، ولكن كنتُ أرجو أن يموتوا في حرب أعدائنا ، على الأقل الواحد منا يلاقي في ميزانه يوم القيامة ابناً شهيداً يشفع له .

_ معك حق يا عمي ، لكن الأمور لا تسير مثلما نريد . هذه حال الدنيا ، يوم لك ويوم عليك .

كان المصور يعقد علاقات مجنونة وروابط من الهذيان المر بين تجاعيد وجه العجوز ، وبين دهان الغرفة المتهاوي . لا أدري ما الذي جعله يقارن بين الصورتين المدهشتين من وجهة نظره . إنه الحلم المكسور الذي لا يملك إلا أن ينهض كلما

وقع ، لأن التاريخ لا يحفل إلا بالمنتصرين . وقد يحكم التاريخ على هذه التجاعيد العميقة ودهان الغرفة وكاميرا المصور ، ولكن ماذا لو فرضوا على التاريخ وجهتهم فرضاً، بحيث يضطر التاريخ أن يذكرهم كفاتحين في براري أحزانهم ومراعي أفراحهم. إن هذه الصور الذهنية كانت موجودة في رأسي الرجلين ، ولكن بتفاوت مختلف. كانا يشعران بها ، يمتصان دهشتها ، لكن كل واحد يراها من زاوية مغايرة. إنه الحلم المتشظي الذي يؤول إلى ثنائية الأبيض والأسود ، خارج مذكرات ألوان الحائط ، أو براويز الأحبة الذين نسوا أن يمسحوا الغبار عن صورهم عندما ذهبوا إلى اللاعودة . لم يحدقوا في رموشهم أو أجفانهم المزروعة في صمت البراويز المخيف. كل شيء يركض إلى صمت الحمائم في خلايا سور المقبرة . البشر والحيطان والبراويز والدهان وخربشات الأطفال على دفاتر الانتظار ، انتظار المقتولين في حروب لا تنتهي ولا معنى لها ، حروب ضد ذاتك المقابِلة . أنتَ تكسر المرآة لأن الصورة فيها لم تعجبك ، وما دريتَ أنها صورتك ! .

قال العجوز لضيفه :

_ ائذن لي قليلاً لأني سأنادي على حفيدتي خولة .

_ افعل ما تريد يا عمي .

مشى العجوز بخطى يشوبها تعبٌ مستتر إلى النافذة الواقعة في أقصى الغرفة ، وهي تطل على الشارع . نافذة بلا ستائر ، هكذا عارية من ثيابها وغارقة في عُريها. لم تكن النافذة سوى شكل آخر للاندماج مع صخب الحجارة في الشارع الترابي الذي لم يتم تعبيده بالزفت حتى الآن . وكل مناشدات أهالي المنطقة للمسؤولين الحكوميين ذهبت أدراج الرياح. في المرة الماضية _ أي قبل الحرب _ قَدَّم الأهالي عريضة يطلبون فيها تعبيد هذا الشارع ، لكن المسؤول الحكومي رمى العريضة في سلة المهملات على مرآى من الحضور ، واستمر في شرب القهوة ، وقال لهم بكل وقاحة :

ـ إذا لم يكن لديكم واسطة قوية مستحيل أن يستمع إليكم أحد .. اذهبوا وابحثوا عن واسطة، ومن ثم عودوا إليَّ. والذي لا يعجبه هذا الكلام فليذهب ويُبَلِّط البحرَ .

رد عليه أحد الحضور ساخراً :

ـ وهل بقي لدينا بحر ، فبوارج أعدائنا تسيطر عليه تحت غطاء حكومتنا ، وتجوبه ليل نهار ولا أحد يفكر أن يعترض .

انتفض الموظف الحكومي عندما سمع هذا الكلام كأن قطيعاً من النيران مسَّت قلبَه المكشوف للريح ، وقال غاضباً :

ـ لا أحد يتكلم في السياسة في مكتبي ، من يظن نفسه سياسياً ذكياً أو محامياً عن الشعب فليتكلم في السياسة في غرفة نومه مع زوجته .. والآن من غير مطرود.

كانت هذه العبارة الأخيرة كفيلة بخروج ممثلي الأهالي من مكتبه الذي يتصرف فيه كما لو كان مزرعة شخصية ورثها عن أبيه. لأول مرة يُطردون من دائرة حكومية . لأول مرة يشعرون أن دوائر الدولة صارت بمثابة إسطبلات لخيول عِلْية القوم ، لأول مرة يحسون بضخامة المأزق الحرج الذي يسقطون فيه ، ويزدادون غرقاً كلما حاولوا أن يخرجوا منه بسبب تكالب الآلام والخيانات عليهم من كل النواحي .

لا أدري لماذا هجمت هذه الذكريات على رأس العجوز واخْتُصِرَت في لحظة زمنية متكورة على ذاتها أثناء مشيه إلى النافذة مع أن المسافة قصيرة جداً ، كأن الذكريات الحادة استغلت قصر المسافة لتكثيف لحظة الذكرى الأليمة التي غزت تلك الرأس المثقلة بالهواجس والكوارث والآمال .

وصل العجوز إلى النافذة . أحس أن المسافة التي قطعها شاسعة إلى حد غير معقول. ربما كان ذلك بسبب ثقل الهاجس الذي تفجر في رأسه. نظر من خلالها فرأى حفيدته ما زالت تلعب مع الصِّبية بكل انشراح ، فنادى عليها قائلاً :

_ خولة.. يا خولة، اذهبي إلى عمك زياد، وقولي له تعال سَلِّم على الضيف.

ردت خولة بلهجةِ غير المبالية :

_ حاضر يا جَدِّي ، ولكن بعد انتهاء اللعبة .

أجاب غاضباً :

_ يا بنت ، اذهبي الآن .. عيب علينا .. الضيف ينتظر .

قطعت خولة اللعبة معتذرة للأولاد بكل كلماتها الطفولية ، ومبدية عدم ارتياحها للموضوع برمته ، لدرجة أن استياءها بدا واضحاً من خلال تأففها المقصود والمسموع ، لكنها في النهاية ذهبت رغماً عنها .

قال جَدُّها في نفسه :

_ بنات آخر زمن ، هذا ما كان ينقصنا ، بنتٌ تَحْكمني .

ذهبت الطفلة لكي تطلب من عمها الحضور . كان عمها يقيم في غرفة على السطح ، وهذا يعني أن عليها أن تصعد درجات كثيرة جداً ، فالعمارة خالية من المصعد. أحست الطفلة بحجم الورطة التي وقعت فيها، لكنها لم تكن تملك أي خيار آخر . بدأت تركض وتقفز قفزات خفيفة على الدرج . ازداد لهاثها اللوزي ، وازداد تسارع دقات قلبي ، شعرت للوهلة الأولى أن وقع النبض المتكاثر كالمسامير غير المستعملة . توغلت في لهاثها . فكرت أن تعد الدرجات لكنها كانت تخطئ كل مرة في العد وتبدأ من جديد ، قبل أن تترك هذه العملية الحسابية غير المجدية بشكل نهائي ، فعقلها لا يتحمل اللهاث والحساب في نفس الوقت .

وصلت إلى السطح بعد جهد جهيد . كان إحساسها يشبه إحساس المنتصرين الذين وصلوا إلى قمة إيفرست بعد العناء الذي تكبدوه. لستُ أعرف لماذا يُخَيَّل إليَّ أن إحساسها كان شبيهاً بذلك الإحساس الذي يملأ حياة المتسلقين المغامرين الذين قد يدفعون حياتهم ثمناً لهذه المغامرة الطائشة ، وهدفهم أن تكتب عنهم الصحافة ، أو أن يحققوا رقماً قياسياً. هكذا تصير حياة الإنسان بالكامل مخصصة

لتحقيق رقم ، مجرد رقم. ويصير الإنسان رقماً بائساً مجرداً من المعنى . إنها لعبة الأرقام التي تَختصر حياةَ الكثيرين .

وأنا أكتب هذه السطور أشعر أن تلك الصغيرة صارت رقماً لعدد الدرجات التي صعدتها . لقد كانت تحس بهذا المعنى من زاوية ما ، لكنها بالتأكيد لا تستطيع أن تُعبر عنه بكلماتها الطفولية وقاموسها اللغوي المتواضع كغرفة عمها المتمركزة في إحدى زوايا السطح .

كان باب الغرفة مغلقاً.اقتربت منه وفي جبينها ابتسامة سنديانة غامضة لا تاريخ لها غير الدهشة . زرعتْ أصابعها الصغيرة على الباب الحديدي الذي وقع فريسة اجتياح الصدأ . طرقتْه طرقاً خفيفاً يعكس ضآلة قبضتها وانكماش قوتها ، لكن أحداً لم يجب فأدركت أن عليها أن تقرع الباب بشدة . استجمعت قواها ووضعت كامل تركيزها في قبضتها الصغيرة المغروسة في أرجاء الباب. وبعد برهة فتح شاب يرتدي البيجاما، وقال :

ــ ماذا تريدين يا خولة ؟ .

ــ جَدِّي يقول لك تعال سَلِّم على الضيف .

ــ ومن هو الضيف ؟

ــ لا أدري .

ــ سوف أجيء بعد قليل .

كان زياد شاباً أعزب في التاسعة عشرة من العمر ، وهو طالب في الجامعة يدرس الفلسفة ، لكنه الآن في إجازة قسرية مفتوحة بسبب الحرب التي وضعت أوزارها في الفترة الأخيرة . إنه شاب مربوع أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة ، وبشرته فاتحة فأمه شركسية ، وعيناه عسليتان ، وشَعره بالغ النعومة والغزارة، رغم أنواع الشامبو التي يستعملها من أجل أن يظهر خشناً بعض الشيء ، ولكن دون جدوى . ويؤكد في نفسه على الدوام أن هذه الأنواع لا بد أنها مغشوشة ، فهي

ليست ذات فاعلية ، لكنه لا يملك خياراً آخر . وفي الفترة الأخيرة أحجم عن استعمال الشامبو نهائياً ، واتجه إلى وصفات العطارين ، لعله يجد فيها ما يخلصه من منظر شَعره الناعم جداً الذي يشبه شَعر النساء ، ومنظر شَعره يشوش تفكيره ، ويسبب له الإحراج بين زملائه ومعارفه في بعض الأحيان رغم ثقته الكبيرة بنفسه، وفي الفترة الأخيرة توجَّه إلى حلق شَعره بشكل شبه كامل ، مما زاده جاذبية بشكل معقول . وعرض عليه المخرجُ المسؤول عن مسرح الجامعة التمثيل بسبب إمكانياته الهائلة ، لكنه رفض بشدة ، لأن التمثيل يعتمد على العري ، وارتماء الممثلات في أحضان الممثلين ، وهذا ما يرفضه زياد جملة وتفصيلاً . فعندما قال له المخرجُ إنك تتمتع بروح جميلة ، رد عليه زياد إنني لا أحب أن أرميَ روحي في أحضان مَن يعرضون لحومهم في دوامات الجنس على الشاشات المسرطَنة . وقد فكَّر ذات مرة أن يذهب لدراسة السينما في إيران ، لكنه خافَ أن يُتَّهم بالتشيع ، فتركَ تلك الفكرة.

كان زياد متديناً فهو عضو في حركة الإخوان المسلمين ، وعضو اتحاد الطلبة في الجامعة ، وتدينه دفعه إلى الإقامة في غرفة على السطح بموافقة صاحب العمارة والسكن فيها ، فهو يقول إنه لا يستطيع أن يظل مع زوجة أخيه في نفس المكان ، فهذه فتنة شرسة تداهمه ، والواجب أن يسد الذرائع الموصلة إلى الحرام ، هكذا كان يقول لوالده . وقد احتدم النقاش ذات مرة بينه وبين أبيه حول هذا الموضوع، فقد قال له الأب :

ـــ زوجة أخيك مثل أختك ، لن تأكلك ولن تأكلها ، فلا تُعقد الأمور .

فرد عليه زياد قائلاً :

ـــ على عيني ورأسي ، ولكن الشيطان شاطر ، وأنا أريد أن أريح نفسي من الوساوس والحرام .

كان الأب ذا ثقافة دينية محدودة للغاية ، وفي أحيان كثيرة تذوب ثنائية الحلال

والحرام بالنسبة إليه في العادات المتوارثة والتقاليد البالية . وهذا الأمر الخطير من وجهة نظر زياد لطالما أرقه في الليالي ، ونغص عليه حياته ، حتى إنه فكَّر أن يستأجر منزلاً آخر ، فهو يَعمل ويَدرس ، لكن والده قال له بعد أن رأى إصرار ابنه إنه سيبني له غرفة على السطح بعد موافقة صاحب المنزل ، وسيطلب منه أن يُعفيَه من أجرة الغرفة ، وبالفعل حصل ذلك ، وتم حل الإشكال .

بدأ زياد يُغير ملابسه. ارتدى قميصاً وبنطالاً كان قد اشتراهما في العيد الفائت، فهو ليس مغرماً بملاحقة الموضة والشراء الجنوني للأشياء ، إذ إنه يعتبر ثقافة الاستهلاك نتاج العولمة الإمبريالية ، والتي يسميها الأمركة الشيطانية . وبالتالي فهو مناوئ لها جملة وتفصيلاً . وهذه المصطلحات الشخصية لطالما استخدمها في أبحاثه التي يطلبها أساتذته ، وقد سببت له بعض المشكلات ، فأحد الأساتذة وهو الدكتور وائل عَمَّاش ، وهو ليبرالي علماني حتى النخاع ، زوجته أمريكية ويحمل الجنسية الأمريكية، وهو خريج هارفارد ، ما إن قرأ هذه المصطلحات حتى طار عقلُه بشكل كارثي ، ووصم البحث المقدَّم بالصِّفر ، مما قاد زياد إلى الرسوب في المادة بغير وجه حق . وعبثاً ذهبت محاولاته للاعتراض لدى إدارة الجامعة الفاسدة .

نظر إلى المرآة ليكون هندامه على أحسن هيئة. وضع قليلاً من العطر المحلي الصنع ، ثم خرج وأغلق الباب وراءه . نزل الدرج على أقل من مهله ليقابل هذا الضيف المجهول بالنسبة إليه . وأثناء نزوله استغرق في خواطر شتى تتعلق بهوية الضيف وهدف مجيئه . واستغرق في الخواطر لدرجة أنه فكر في احتمال أن يكون الضيف هو أستاذ الجامعة العلماني ، وأنه جاء من أجل الاعتذار . كانت خاطرة عابرة سرعان ما أخرجها من رأسه مؤكداً لنفسه أن عنجهية الدكتور تمنعه من المجيء أو الاعتذار . وبعد أن رأى وساوسه تأخذ منحى غير معقول طردها كلياً ، وركَّز في نزول الدرج دون أن تداهمه فكرة عد الدرجات مثلما حدث مع خولة .

طرق بابَ منزل أهله ، ثم انتبه إلى أن الباب مفتوح ، فدخل إلى البيت ، وتوجه فوراً إلى غرفة الضيوف . قرع الباب ثم دخل مُسَلِّماً على والده والضيف ، فردا عليه السلام .

كان وجه الضيف غير مألوف بالنسبة لزياد ، لكن الكاميرا استرعت انتباهه ، فأيقن في نفسه أن هذا الرجل له علاقة بالتلفاز . وهذه الخاطرة السريعة برقت في ذهنه ، وتركت انطباعاً من نوع ما ثم اضمحلت ، فلم يلمح الأب أو الضيف أي شرود ذهن أو استغراق غير منطقي يعصفان بزياد .

تقدم زياد وصافح الضيف مرحباً :

_ أهلاً وسهلاً بك في بيتنا .

_ شكراً جزيلاً لأنك جئتَ، وأنا آسف إن أزعجتك أو أشغلتك عن أي شيء.

_ لا عليك ، لا يوجد أدنى مشكلة .

وجلس الجميع وتركوا الصمت يتوسطهم لهنيهة قبل أن يفجره الأب قائلاً للضيف :

_ هذا ابني زياد ، طالب فلسفة في الجامعة ، وهو آخر العنقود .

ثم أشار إلى الضيف ووجَّه الكلام لابنه :

_ هذا الأخ مصور التقيته هو وزميلته يصوران المنازل المدمرة ، وقد دعوتهما إلى المنزل لتناول الطعام .

ثم تذكر الأب أنه لم يسأل المصور عن اسمه ، فقال مخاطباً المصور :

_ الله يخزي الشيطان ، لقد نسيتُ أن أسألك عن اسمك ، فلا تؤاخذني .

_ لا يوجد مشكلة يا عمي ، أنا رشيد الوردي ، اعتبرني مثل ابنك .

يجيب الأب وقد تهللت أساريره :

_ الآن صار لي ابنان في الغرفة .

وضحك الجميع من أعماقهم، كأنهم لم يضحكوا منذ قرون . كانت

الضحكات تخرج رغم كل الخراب في الخارج ، والمنازل المدمرة ، والأنقاض التي تخنق رئةَ الجَمال في تلك الدور المسوية بالأرض ، ومذاقَ الحلم المسلوب .

كان المصور رشيد قد نسي موضوع شرب الماء في زحمة الأحاديث والمواقف ، والعجوز أيضاً نسي ذلك فلم يحضر لضيفه ماء للشرب . وتذكر المصور عطشه الذي نسيه في تفاصيل أحداث تمر كالدبابيس ، وخجل من طلب الماء من الأب ، فتوجه بالكلام إلى زياد بلهجة الظمآن في صحراء الانهيار الأكيد :

ـ لو سمحت ، ممكن كأس ماء .

وهنا تدخل الأب كالملسوع ، وقال لابنه :

ـ بسرعة يا زياد ، أحضر الماء والطعام لضيفنا بسرعة ، فقد نسينا الموضوع .

والتفتَ الأب إلى المصور قائلاً :

ـ لا تؤاخذني يا بني فذاكرتي هذه الأيام لا تساعدني ، وقد بدأت تخونني مثل أشياء كثيرة في الحياة .

وانطلق زياد بسرعة إلى المطبخ فوجد ثلاث نساء يُحضرن الطعام . وهناك امرأة مجهولة بالنسبة إليه وهي المراسلة الصحفية ، وقد كانت ملابسها ضيقة للغاية لدرجة جعلت زياد يلمس في نفسه وسواساً جنسياً عابراً كومضة البرق لكنه اختفى نهائياً بعدما غض بصره ، وأطرق إلى الأرض . تسلل عنصر المفاجأة إلى صوته فارتبك ، ثم استعاد تماسكه وثقته ، وقال مخاطباً أخته :

ـ هل الطعام جاهز ؟ .

ـ نعم جاهز .

وانتظر برهة من الزمن قبل أن تناوله أخته الطعام الموضوع على صينية قديمة مع إناء الماء . حمل الصينية بيديه الاثنتين ، ثم سار إلى خارج المطبخ ، وخطواته تكاد تأكل الأرض هرباً من هذا الموقف الذي سبب له إحراجاً وقتياً غير متوقع بينه وبين نفسه .

لقد كان شاباً ذا أحاسيس يسهل خدشها ، لكنه يتظاهر على الدوام بالتماسك والصلابة ، وهذه نقطة قوة جعلت منه شخصية لا يمكن استفزازها ، فهو يكظم غيظه ، يلجمه إلجاماً . قد يكون الطفل الذي في داخله يبكي خوفاً من شيء ما ، لكنه لا يسمح لعينيه أن تنهمرا بالدموع أمام الناس ، وقد يكون في بعض الأحيان مكسوراً من الداخل ، لكن خارجه متماسك وصلب أمام الناس لئلا يستغلوا لحظة ضعفه فيجتاحوه . هكذا كانت خطة عمله السرية في كل مراحل حياته مع ازدياد وعيه بها كلما تقدم في العمر .

حضر الطعامُ محمولاً على صينية كأنها مثبتة في يدين زجاجيتين ، ووُضع على الطاولة . كانت عينا المصور تنهشان المشهد وتخمشانه بأظافر غير مرئية ، أظافر تبرق في الذهن الظمآن ، وتتوارى عن الأنظار خجلاً من أشياء الجوع والعطش التي تحدق بالكائن من جميع الجهات . وما إن رأى المصور إناء الماء حتى هجم عليه كأن بينهما ثأراً قديماً ، وراح يشرب منه مباشرة دون كأس ماء ، وبعد أن ارتوى خجل من فِعلته التي تنم عن سوء أدب بالغ ، فاعتذر قائلاً :

_ يا جماعة سامحوني ، الجوع كافرٌ والعطش كذلك ، أول ما رأيتُ الماء نسيتُ كل شيء ، فأرجوكم لا تؤاخذوني .

رد العجوز بصورة فيها رِفق ولين وقبول للاعتذار :

_ لا عليك ، لو كنتُ مكانك لفعلتُ نفس الشيء ، والآن قل باسم الله ولتأكل كما تشاء .

_ لن آكل حتى تأكلا معي .

رد العجوز وقد ارتسمت على محياه ابتسامة عابرة :

_ وهو كذلك .

ثم التفتَ إلى ابنه قائلاً :

_ مد يدك .

وغاص الجميع في الأكل كأنهم لم يأكلوا منذ قرون.ففي فترة الحرب عانى الناس الأَمَرَّين ، وجاعوا وعطشوا وتشرد كثير منهم ، بسبب انقطاع الإمدادات الغذائية نتيجة حصار شرس ضُرب على المدينة، وقصف جوي وبحري مكثفين أحرق اليابس قبل الأخضر . حتى إن هذه العمارة التي تقطن فيها عائلة خضر الزاوي هجرها سكانها إلا سكان الطابق الثاني ، وهم عائلة يعقوب بنيامين ، وهي عائلة يهودية عربية ترجع أصولها إلى قبائل يمنية اعتنقت اليهودية قبل قرون بعيدة .

وهذه المدينة الساحلية عانت أكثر من غيرها بسبب موقعها الإستراتيجي، فهي بمثابة ميناء كامل التجهيزات ، كان كذلك قبل الحرب ، أما الآن فصار الميناء فاقداً لمعناه ، هذا إن بقي ميناء أصلاً. لقد قُصف من البوارج الحربية بصورة وحشية ألغت وجوده ، وتركته رملاً يلامس الشاطئ باستحياء شديد .

لقد كانوا منهمكين في الأكل ، غارقين في رائحة الطعام ومنظره اللذين يَعبران آفاق أحلامهم السليبة . هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون هل هذا فطور أم غداء ، وإن كنتُ أرجح أنه فطور يتقمص أحلام غداء طالما تبخرت في أجواء حرب طاحنة، حَوَّلت الناس من أحلام خلاقة إلى عيون ذابلة تجوع وتعرى في كل الأزقة الذي لا تجد فيه إلا المسلحين وأكياس الرمل والبنادق الآلية .

كانوا يأكلون ويأكلون . أرجو أن تعذرهم لأن حلمهم صار معدةً خاوية قرب هذا الدمار الرهيب، الذي يصدر ضجيجاً يهز أركان النفس القلقة كصحراء تجلس في مقهى لا يرتاده إلا المخبرون المخلصون ! . أيديهم غاصت في هذه الحفلة التي قد لا تتكرر ، من يدري ؟!. قد تشبع اليوم وتجوع غداً ، ويصير تحصيل كسرة الخبز مهمة وطنية جليلة تلهث وراءها بكل الأساليب الديمقراطية وفق منظور تجار الرقيق الأبيض والأسود، هذا هو الانفتاح في عصر الإبادة الشرعية . مثلما يقول زياد طالب الفلسفة في أحد أبحاثه الذي نال عنه علامة صفر لأن أستاذه ليبرالي حتى النخاع لم يعجبه هذا الأسلوب الذي يتهمه بالرجعية وعض اليد التي تمتد لك

بالقمح المسرطَن . إن هناك جياعاً حتى النخاع ، ومصابين بالتخمة حتى النخاع . لستُ أدري كيف سَيُعبِّر زياد عن هذه المفارقة في أبحاثه ، لكنني أرجو أن لا ينال عليها صفراً كما حدث في المرة الماضية مع أستاذه العلماني .

كانت النساء يقمن بدورهن في الأكل بكل شهية . في عيونهن ذكريات سلسلة متصلة من الحروب المتكررة التي لا تنتهي في هذا المكان الذي كلما تم ترميمه أُعيد تحطيمه ، وللأسف فنسبة كبيرة من السكان هجروه إلى غير رجعة . إنها الحرب ، يا لها من كلمة قاسية ! . لقد كُنَّ يشعرن بهذه الكلمة، كل واحدة منهن تشعر بها من زاوية مختلفة. ففاطمة مثلاً تعرف الحرب من خلال غياب ساعي البريد ، بمعنى آخر غياب رسائل خطيبها أنس الصَّواني الذي يعمل في الخليج كمهندس بترول ، والذي انقطعت رسائلُه منذ بدء الحرب ، أو بالأحرى أنه لم يعد يبعث رسائل لعلمه أنها لن تصل . شيء مؤسف وصادم أن يعرف الإنسان أن رسائله لن تصل ، كأن الأمر يشبه مشاعر رائد الفضاء الذي يعلم أن رحلته القادمة ستكون رحلته الأخيرة لأنه سوف يموت ، أو كأحاسيس لاعب السيرك الذي يوقن في قرارة نفسه أنه سيسقط يوماً ما ، ولن يجد شبكة تنتظره في الأسفل لكي تحميَه . لا أدري لماذا بدت المشاعر مختلطة، ربما لأن الحياة مزيج من السم والترياق ، من الحزن والفرح . هكذا يخرج الحزن من الفرح ، ويخرج الفرح من الحزن ، تماماً كما يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي . ولكن المشكلة أن هناك موتى سائرين في الشوارع لا يعلمون أنهم موتى ، والسؤال المؤلم هل نصعقهم ليعودوا إلى الحياة ، أم نتركهم سعداء في موتهم الذي يظنونه ذروة الحياة ؟!. هكذا تختلط المشاعر في نفسية فاطمة، وبالتأكيد هي نفسها لا تعرف التفسير الفلسفي لمشاعرها ، لأنها تعيشها لحظة بلحظة ، فمن يعش مشاعرَه لا يملك الوقت لكي يُفلسفها . نحن الروائيين الوحيدين الذين نُفلسف حياة الشخوص لأننا لا نعيشها ، فمن كان مندمجاً في الحياة فهو يحياها ، ومن كان خارجاً عن نسقها الرتيب فهو

يكتبها ، هكذا بدت لي الأمور ، وقد أكون مخطئاً ، من يدري ؟! .

أما فايزة فكانت تأكل بشراهة ممزوجة بالأدب، أما عقلها فهو مع زوجها الذي يُقاتِل على الجبهة ، ولم يعد منذ ثمانية أشهر . نعم ، ثمانية أشهر لم ير زوجته وابنته الوحيدة ، ولا يملك الوقت الكافي لكتابة رسالة، وحتى لو كتبها فمن سيوصلها ؟ . محال أن تجد ساعي بريد يتنقل على دراجة في هذا الخراب المجنون ، لكي يوصل رسائل المتحابين ، أو رسائل الجنود إلى زوجاتهم . إنهم جنود قد يعودون ولا يعودون . إن الجبهات المفتوحة على القتال تكون فيها الأمور مفتوحة على كل الاحتمالات . وحمداً لله أن الحرب قد انتهت ، فهذا يعني أنها قد تشاهد زوجَها من جديد ، قد تعانقه أو تشمه ، أو ربما ترتمي في أحضانه باكية ، ولكن لماذا البكاء ؟ وماذا ستشم فيه ؟. رائحة البارود ؟ ، أم عرق المحارِب الذي لا يتقاعد ؟. لستُ أدري ماذا ستشم فيه . المهم أنها ستشمه لأنه زوجها ، كلاهما مشى في دم الآخر دون أن يذبحه ، هكذا يُفترض . إنني أتخيل منظر ابنته خولة وهي ترى أباها ، لا بد أنها ستقفز عليه كغزالة هاربة من عيود صياد لا يملك إلا أن يَقتل من أجل أسرته الجائعة التي تنتظره خلف ستائر الانتظار في كوخ غامض عند أطراف غابة خرافية . لا بد أن الصغيرة قد كبرت في هذه الثمانية أشهر ، بالتأكيد ربما ازداد طولها سنتيمتر أو أكثر ، أو ربما ازداد وزنها . لكنني بصراحة أشك أنها نمت ، وكيف تنمو وعائلتها كادت أن تموت جوعاً خلال الحرب ؟! . فلنحذف مفردة النمو من قاموس هذه الصغيرة ، على الأقل في هذه المرحلة . إن المشاعر المتطايرة في الأرجاء تشبه مشاعر لاعب تنس أرضي هُزم في مبارة نهائية ، لكنه لا يملك إلا أن يُقاتِل .

كانت فايزة شابة جميلة مكتنزة اللحم في السابعة والعشرين من العمر، وهي من أصول تركية، وغالبية أقاربها يقطنون في أنقرة . وهي تتقن اللغتين العربية والتركية. وفي المرة الأخيرة التي زارت فيها تركيا برفقة زوجها وابنتها ، أي قبل

الحرب ، أحست بضيق شديد بعد أن تعرضت لمضايقات شديدة نتيجة ارتدائها للحجاب . لقد كانت قوات الأمن تنظر إليها بعين الاحتقار بعد أن رأوا الحجاب على رأسها ، ولم يستطع زوجها أن يفعل شيئاً إلا أن يُبعد زوجته عن الأماكن التي يُحظَر فيها ارتداء الحجاب. أحست فايزة بغربة ما بعدها غربة ، فقد بدا وطنها مقبرة لا نهائية، وثقوباً كونية سوداء تمتص أية بقعة ضوء قد تبزغ هنا أو هناك. إن الدموع تحجرت في عينيها ، وتأسفت في قلبها على هذا الوضع المميت في مسقط رأسها ، ذلك المكان الذي قدمها للعالَم يقرر في لحظة جنون أن يئدها لأنها اختارت طريقها وفق قناعاتها الداخلية . إنها ندمت أشد الندم على تلك الزيارة ، وأقسمتْ بالله أن لا ترجع إلى وطنها مرة أخرى . لستُ أعرف لماذا هجمت عليها هذه الأفكار في تلك اللحظة التي تحلَّقت فيها النسوة حول المائدة الخشبية المنخفضة . وضع غريب للغاية يحفر في صيغ الغياب حضوراً للأسى . ربما يكون منظر الطعام دافعاً لاجترار ذكريات من نوع خاص . في واقع الأمر لا أستطيع أن أجزم بذلك أو أنفيَه .

أما المراسلة ديالا ، وبالمناسبة هذا ليس اسمها الحقيقي فاسمها الأصلي فاطمة الزهراء ، لكنها غيرت اسمها اعتقاداً منها أن اسمها الأصلي ليس فنياً ، ولا يناسب الخروج على الشاشة بالملابس الفاضحة لجذب أكبر قدر من الجمهور المكبوت جنسياً . وللإنصاف فإن فكرة تغيير الاسم هي من اختراع صاحب المحطة الذي يبدو أنه يتحكم بكل شيء أمامه ، بدءاً من البشر الذين يعتبرهم مُلْكاً شخصياً لسعادته ، وانتهاء بالمعدات التي اشتراها من ماله غير الحلال. والأمر عنده سيان ، سواء حصل على المال من طريق مشروعة أو غير ذلك ، فكثرة المال الذي يفيض في يديه أعمى عينيه فلم يعد يعرف الحلال من الحرام ، أو بالأحرى قل إنه يراوغ ويمثل دور الجاهل المستسلم للأمر الواقع بحرفية عالية ، وما درى أن جهله المقصود يحاصره كالهاوية الأنيقة. لكنه يعتقد أن ربطات العنق

التي يسرق ثمنها من الشعب الطريد سوف تحميه هو وأتباعه من الملاحقة والمسؤولية ، خاصةً أنه مدعوم من قبل رجال متنفذين في الدولة . إنها كتل الحزن في موسم الاتجار بمشاعر البشر وشهواتهم السجينة .

عَرَّفتْ ديالا نفسها للمرأتين باسمها الفني ، بعد أن خلعت اسمها الحقيقي للأبد ، هكذا كانت تتصور . تذكرتْ وهي في غمرة الطعام التحرشاتِ الجنسية التي تعرضت لها من صاحب المحطة .

_ تباً له ! إنه شيطان .

هكذا أكدت في نفسها .

شعرتْ أنها لا تختلف كثيراً عن الطعام الموضوع أمامها ، فهي تُؤكل تدريجياً وتُستنزَف شيئاً شيئاً . أكدت لنفسها أنها طعامٌ من نوعٍ خاص، وأن ما تظهره من لحمها لِتُثْبِت وجودَها في المحطة لا يختلف عن أفخاذ الدجاج المطبوخ جيداً على مائدة ذئاب بشرية . لقد نقلها منظر الطعام إلى جسدها المكشوف أمام الأعين . إنها تحتقر نفسها لكنها تُكابِر وتخدع نفسها بدعوى الحرية والتمدن . تعرف أنها صارت دمية مزركشة يُلعب بها ثم تُلقى في أيدي أناس يمزقونها لأنهم سئموا من اللعب بها ، ويريدون الانتقال إلى لعبة جديدة وبراقة أكثر . لكنها عملت عملية التجميل لتكبير صدرها ، وتستعمل أغلى أنواع المكياج ، ماذا يريد الجمهور أكثر من هذا ؟ . هل سيكون مصيرها كالدجاجة المقلية على نار هادئة ؟ . ألقتْ هذا السؤال في قاع نفسها، بيد أنها تهربت من الإجابة كالعادة. لماذا لم أتزوج إلى الآن ؟ . سألتْ نفسها لتغير الموضوع . ما الذي ينقصني ؟ . راحت الأسئلة تتكالب عليها وتفترسها ، فأحست بصداع لاسع وسريع، فوضعت يدها على رأسها . لاحظت المرأتان فعلها، فسألتها فاطمةُ :

_ هل أنتِ بخير ؟ .

_ نعم بخير ، ولكن صداعاً خفيفاً قد أصابني ... على أية حال شكراً لكم

على الطعام ، فقد شبعتُ .

لم تأكل بشكل جيد . ربما لأنها خرجت من بيتها بعد أن أفطرت ، أو ربما لأنها متعكرة المزاج بدرجة كبيرة ، ولكنْ هل من يتعكر مزاجه لا يفقد الشهية في الأكل؟ . لستُ أعرف ، ولكنْ ما أعرفه أنها غرقت في قاع حطامها غير المنظور ، ولم تحاول الصعود إلى السطح . هكذا هو شعورها الذي تراوغه وتطمح إلى طمسه لئلا تعترف بالحقيقة العارية أمام وجهها العاري من الأقنعة .

قالت فاطمة محاولةً أن تحثها على الأكل :

_ ولكنك لم تأكلي شيئاً ، وما زال الطعام كما هو ... إذا كان الطعام لا يعجبك قولي لنا وسنُحضر بدلاً منه .

_ يا جماعة ، الأكل كان رائعاً، وشكراً لكما ، وحقيقةً أنا شبعتُ لأنني أفطرتُ جيداً اليوم ، هذا كل ما في الأمر .

لم تُرد فاطمةُ أن تضغط عليها أكثر من ذلك ، فتركَتْها وشأنها . أما بالنسبة للطعام فلم يكن في البيت سواه . نعم ، صَدِّقوني لم يكن في البيت سواه ، فالحرب انتهت للتو ، ولم يتسن لكثير من الأُسر أن تُحضر مؤونة كاملة من الأسواق ، وكيف ستحضر مؤونة وهي بالكاد تملك المال الذي يوصلها إلى حالة الكفاف ؟! . فالأسواق قُصفت، والمحلات مغلقة من أجل الصيانة وإعادة البناء ، والمحلات التي سَلِمت من القصف معدودة ، وهذه هي التي تزود الناس بحاجياتهم الأساسية ، فقط الأساسية . فالناس خارجون من حرب ، ولم يستعدوا ما فيه الكفاية للتأقلم مع الوضعية الجديدة ، وضعية السِّلم الذي لم يتعودوا عليه ، بسبب كثرة الحروب في هذه البقعة التي حَوَّلها الساسةُ إلى خراب فظيع .

انتهى الجميع من الأكل رغم أن فاطمة وفايزة لم تشبعا ، لكنهما معتادتان أن لا تأكلا أمام ضيف انتهى من الأكل . هذه هي العادات والتقاليد التي تربى الناسُ عليها في هذه الأحياء الشعبية . وقد لاحظتْ ديالا هذا الأمر ، فقالت :

ـ يا جماعة ، استمرا في الأكل ، ولا تلتفتا إليَّ .

أجابتا بصوت واحد كأنهما حفظتا دورهما في مسرحية من نوع خاص :

ـ لقد شبعنا .

ثم تداركت فايزة وكأنها تغرد خارج السِّرب :

ـ على أية حال سوف نأكل فيما بعد .

ردت ديالا متصنعة الأسى وعدم الارتياح :

ـ أنا آسفة بسبب هذا الموقف السخيف الذي تسببت به .

ردت فاطمة وكأنها أخذت الكلام من فم فايزة :

ـ لا عليك ، الطعام لن يطير .. وما دامت الحرب انتهت ، فسوف يعود الطعام يملأ بيوتنا مثل أيام زمان .

وضحك الجميع ضحكة خارجة من أعماق قلوبهم المتعلقة بأشياء مختلفة ، وكلٌّ يُغَنِّي على ليلاه. وفي واقع الأمر لم أكن أعرف لماذا داهمهم جيش الذكريات عندما التفوا حول مائدة الطعام . إن الذكريات حين ضربتهن بقسوة غاب التفكير في نوعية الطعام ، فلم يعد شكل الطعام إلا ظلاً لطعام من نوع خاص اسمه الإنسان ، وما أكثر الأشياء التي تُفضِّل التهامَ صنف الإنسان، بدءاً من الهموم والذكريات وانتهاء بآكلي اللحوم البشرية الذين يلبسون لكل حفلة قناعها الخاص بها .

لاحظت فايزة بروز عدة شعرات خارج حجابها، فعَدَّلت وضعية حجابها ليشمل كامل شَعْرها . أثار هذا المشهد غير المألوف بالنسبة لديالا أسئلة متفتحة على كل الاحتمالات ، وبرق في ذهنها سؤال من نوع خاص ، فقالت وعلامات التعجب تَرُجُّها :

ـ ألا يسبب لك الحجاب ضيقاً في هذه الحرارة العالية ؟ .

ردت فايزة والابتسامة تعلو سحنتها :

ـ لا يوجد أية مشكلة يسببها الحِجاب .. صَدِّقيني لو ارْتَدَيْتِه لأحببته من كل

قلبك .

وعندئذ تدخلت فاطمة قائلةً بحزم :

_ إذا كانت الحرارة عالية ، فنار جهنم أشد حراً .

هبطت هذه العبارة على رأس ديالا كالمطرقة . لم تتعود أن تسمع كلاماً ذا علاقة بجهنم . جهنم ! إنه اسم مرعب ، لكنها لا تسمع هذه اللفظة إلا في الأفلام الأجنبية أثناء تناولها للمشروبات الغازية أو الكحول مع المكسرات . فقد كانت ديالا لا تجد غضاضة في شرب الخمر ، وهي معتادة على معاقرتها . إنها نشأت في بيتٍ مفكَّك ، وما زالت إلى اليوم تتذكر بداية تعرفها على هذا الوباء المسعور المدعو خمراً ، فوالدها كان يعود إلى المنزل في آخر الليل مترنحاً يمسك بزجاجة خمر من النوع الرخيص ، ومن شدة سُكْره لا يدرك أن هناك بقية في الزجاجة . وكان يضع الزجاجة على الطاولة الخشبية الوضيعة ويرتمي على الأرض ويغطس في نوم سحيق . وهذه البنت الجاهلة حينئذ لما تستيقظ تجد أباها ممدداً على الأرض بشكل مثير للشفقة والاحتقار في آن . لمحتِ الزجاجةَ. منظرها يختلف عن زجاجات العصير التي تشتريها من الدكان المجاور لبيتها الذي صار فيما بعد سوبر ماركت لا تستطيع أن تدخله بسبب غلاء أسعاره . منظر السائل الملون في الزجاجة يغريها ، تقترب منه شيئاً فشيئاً . إنها تقترب رغم تردد خطواتها . لقد شربت ما تبقى من خمر بالكامل . أحست تلك الطفلة أن ما شَرِبَتْه شيء مقرف ، وفكرت للحظة كيف أن والدها يشرب هذا الشيء المقرِف . لم تكن تعرف ساعتئذ أن هذا المادة تدعى خمراً، لكنها بالتأكيد عرفت فيما بعد ، وصارت تلتمس أعذاراً مجنونة لوالدها السكير ، كأن تاريخ الجثث الراكضة في الضياع قرب المحاكم العسكرية التي تحاكم القططَ الشريدة يُعيد نفسه ، ولكنْ بأشكال مختلفة . إنها كَبُرت بما فيه الكفاية ، وصارت تشتري خمراً بنفسها من خمارة هاكوب الأرمني المقابِلة لمكان سكنها . إنها سلسلة الضياع تتكاثر كالطحالب في رئة العَفن . وما زاد الطين بِلَّة أن

والدَيْها مُطلقان ، وقد كانت تقضي يوماً عند أمها ويوماً عند أبيها بموافقة أمها . وفي حين علمت الأم أن الأب يعود إلى بيته سكران، منعته من رؤية ابنته بشكل نهائي . كم مضى على تلك الأحداث ؟!. سنة ؟سنتان ؟ عشر سنين؟ مئة سنة ؟. ما أهمية الزمان إذا كنتَ غائباً عن المكان الذي يحضنك ويقتلك وأنت مبتسم في وجه الدمار الشامل ؟ .

لم تكن لفظة "جهنم" في قاموسها اليومي الخالي من المواعظ والإرشادات الدينية. إنها تسمع هذه الكلمة بين الفينة والأخرى من خلال التلفاز ، فهي امتنعت عن الذهاب إلى السينما ، فالمرة الوحيدة التي ذهبت إليها لم تسلم من التحرشات الجنسية التي تتلقاها من الشباب وكلماتهم النابية وهم يصفون المشاهد الجنسية في الفيلم بأصوات عالية بعد انتهاء العرض بكل وقاحة. وبالطبع ما درت أن لفظة مثل هذه ستفتح عليها باب الذكريات الأليمة على مصراعيه، تلك الذكريات التي كلما طَرَدَتْها عادت أشد قوةً وألماً .

قالت فاطمةُ وعلامات التعجب المختلط بالاستياء بادية على ملامحها وكأنها تعرف الجواب غير المقنع مسبقاً :

_ اسمحي لي أن أسألك سؤالاً مُحرجاً بعض الشيء ، هل تقضين كامل اليوم مع المصور لوحدكما تدوران في الشوارع ؟ .

تفاجأت ديالا بصيغة السؤال ، حيث إنها لم تتوقعه البتة . ظهرت أمارات الضّيق على وجهها الذاهب في الانكماش التدريجي . لم تعرف كيف تَبدأ إجابتها . فكرتْ أن يكون جوابها اللاجواب ، لكنها عادت إلى مكابرتها قائلة :

_ نحن في عصر الحضارة والتقدم والرقي ، وأنا أخرج مع مَن أشاء ، والمصور أولاً وأخيراً زميلي في العمل ، وواحد من أصدقائي .

تعجبت فاطمة من هذا الاعتراف القادم من امرأة حول صداقات رجالية ، وشاركتها في التعجب فايزة، فهاتان المرأتان نشأتا في محيط ديني مُحافِظ يُحَرِّم

الصداقاتِ بين الرَّجل والمرأة . وبعد أن قامت فاطمة برمي صمتها في دهشتها قالت مستنكرة :

ـ لا يجوز للمرأة أن تصادق الرِّجال ، يجب أن تعيش بشرف ، لأن الإنسان عموماً والمرأة خصوصاً ليس لهما إلا السمعة الحسنة .

لم يعجب هذا الكلامُ ديالا ، فقررت أن تُغَيِّر الموضوعَ لتخرج من الحرج الذي وقعت فيه ، فقالت :

ـ لقد تأخرنا كثيراً ، وعلينا أنا والمصور أن نقوم بأعمال كثيرة .. اعذراني يا جماعة، ولكن الوقت ضيق ، وشكراً لكم على حسن الضيافة.

وقامت ديالا بعد أن نفضت عن ملابسها الغبار ، ولكن من أين جاء الغبار ؟!. لستُ أعرف ، وما أعرفه أنها كانت متعودة على نفض ملابسها أولاً بأول سواء وُجد غبار أم لم يوجد، ولم أعرف في تلك اللحظة ماذا كان يدور في خلدها. وقامت المرأتان لترافقها إلى خارج المنزل .

وقبل الخروج اقتربت فاطمة من باب غرفة الضيوف ، وقَرَعَتْه قرعاً خفيفاً ، وبعد برهة خرج أخوها زياد قائلاً :

ـ ماذا تريدين ؟ .

ـ الأخت ديالا تريد المغادرة فأخبرْ المصور برغبتها .

ودخل زياد إلى الغرفة ، وأخبر المصور برغبة المراسلة ، فاستأذن من صاحب المنزل بالانصراف ، وسَلَّم على الرَّجلين مُوَدِّعاً ، وحمل الكاميرا الخاصة به ، والتقى بالمراسلة المتجهمة عند باب المنزل الخارجي بعد أن دخلت فاطمة وفايزة إلى الداخل، وانصرفا بعد أن ألقيا تحية الوداع .

إن المهمة التي قادت المراسلةَ إلى هذا المكان تبخرت واندثرت . فقد كانت تهدف إلى عمل لقاء تلفزيوني مع أحد السكان المحليين الشاهدين على الدمار المذهل، لكنها بصراحة قررت أن تبحث عن أناس آخرين بعد أن حصل هذا

النقاش الذي لم يعجبها . فمزاجها تعكر بصورة عنيفة، أضف إلى هذا مزاجيتها المتقلبة. كانت متجهمة. وجهها كأنه قُدَّ من بارود طازج . حاجباها الرفيعان كأنهما نورسان قتيلان . وجسمها أشبه بمنجم فحم هجره العمال إلى الأبد .

قالت في نفسها :

ـ حَسَنٌ أنهما لم ينتبها إلى أنني أقوم بنمص حواجبي ، فلو انتبهتا لقامتا بإعطاء محاضرة دينية حول هذا الموضوع .

كانت ديالا امرأة ذات ملامح طفولية ومتوحشة في آن معاً ، وهي وقحة وخجولة في نفس الوقت . إنها كتلة متحركة من المتناقضات ، ما تُثبته في لحظة تُلغيه في اللحظة التي بعدها . لا تطلب مني تفسيراً منطقياً لطبيعة شخصيتها ، لأنها هي نفسها لا تعرف نفسها ، ولا تعرف ما تريد. فشخصيتها تتبدل مثلما تتبدل ثيابها الفاضحة حسب بوصلة الضياع. إنها تائهة في شِعاب قلبها الخشبي . ولكنْ هل لها قلب ؟. أظنها تملك قلباً ، لكنه تحصيل حاصل ، لا يشعر بحقيقة الأشياء الجميلة في الحياة . فقط يظن الجَمال في أطنان المكياج المسكوب على وجهها الذاهب في الاضمحلال الحتمي . إنها رجعُ الصدى ولم تكن في يوم من الأيام صوتاً . هي نداءٌ لغريق قديم لم يتمكن خفر السواحل من إنقاذه لأنه أَحب غرقَه ، وأَحب انتحاره بكل ما في الجسد المغبر من جنون ووقاحة .

لاحظ المصورُ انزعاجها الشديد الواضح على ملامحها ، فخاف أن يسألها . فقد كانت شخصيتها تطغى على شخصية المصور الذي يمثل دور التابع الصامت بكل اقتدار . ها هو خوفه من السؤال يصير سؤالاً وجودياً جديداً، ومحفوراً في صدره المنكمش في هذا المكان المفعم بالدمار، فحيثما وَلَّيْتَ وجهك فَثَمَّ جثة أو أنقاض منزل مهدوم أو استغاثة شخص لا تقدر على إنقاذه . مضيا إلى حيث أُريد لهما والخراب يلبس ذكرياتهما بصعوبة . إنهما ميتان لكنهما على الأقل يمشيان في هذا المدى اللامدى .

أما فاطمة وفايزة فذهبتا إلى الطعام مسرعتين لتكملا الأكل ، فالجوع ضرب أوتاده في وجهيهما ، فبدت على الملامح آثار جوع ظامئ مثلما تبرز أخاديد الذكريات الأليمة على خدود عمال الإنقاذ الذين يتأخرون دائماً في هذه البقعة الساحلية المنبوذة ، والتي يبنيها الجرحُ قصراً رملياً ثم يهدمه بصورة هستيرية ، ومع هذا فالبحر المجاور للذكريات يأبى أن يرحل كما رحل الشباب الباحثون عن العمل إلى أمريكا وأوروبا ، بعد أن صارت بلادهم أخشاباً لموقدة قديمة ينام قربها كلابُ السلطان الوفية ، والمستحمة للتو بدماء الشعوب التي صارت شامبو ذات نوعية فاخرة ونادرة .

التهمت المرأتان كامل الطعام فلم تُبقيا شيئاً ، فأيام الحرب علَّمت الناسَ قيمة الطعام الذي يُلقى في النفايات أيام الرخاء . لقد بحث الناس في أيام الحرب عن الخبز في حاويات القمامة ، ومع هذا لم يجدوه . إنهم نافسوا القطط الشريدة النحيلة والكلاب الضالة في البحث عن الطعام في كل مكان ، وللأسف فقد كانوا يشبعون يوماً ويجوعون أياماً . إنها الحرب المجاعة الألم البحارة الذين لم يعودوا .

كانت الصغيرة خولة قد أكلت قبل قدوم المصور والمراسلة ، لذا فإن أمها لم تُخبرها عن الطعام لكي تَحضر ، فهي منهمكة في اللعب ، وتركز في تفاصيله بكل دقة لأن معدتها ممتلئة ، ومسألة الجوع بالنسبة إليها صارت جزءاً من الماضي السحيق ، جزءاً من تاريخ جريح محمول على ظهر جَمل عجوز تقاعد عن العمل كسفينة صحراء ، وذهب إلى البحر ولم يعد . صدقوني إنها كانت تحس بما قلتُه بَيْدَ أنها تعجز عن التعبير، وهكذا تصير الأحاسيس هي الأخرى جزءاً من تاريخ ماضوي سحيق لا يعود مثل كثير من الأشياء .

لا أدري لماذا يخيل إليَّ أن أشياء هذا المكان لا تعود . شيء غريب فعلاً أن ترى كل شيء يذهب بدون استئذان ولا يعود . والمشكلة أن كثيرين ينتظرون قدوم الشيء الذي لا يأتي، ربما لأنهم لا يملكون إلا الأمل والانتظار. إنه الانتظار،

تأملات وجوه جريحة خارجة للتو من حرب عبثية لا أحدٌ يعرف هدفها ، ولا حتى أولئك الذين يُقاتِلون فيها . شيء مؤسف أن تُقاتِل ولا تعرف لماذا تُقاتِل .

٢

وفي اليوم التالي وقبل انبجاس ضوء الفجر . ها هو الليلُ يسيرُ بثقةٍ نحو نهايته الحتميةِ . وعندما يصطدم بصوت الموج دون موعدٍ مسبق ، تبدو لحظة الاصطدام كما لو كانت أنين طفلٍ هاربٍ من ضوء نجمةٍ بعيدةٍ يشعر أنها تقتربُ منه شيئاً فشيئاً، فيصرخ بعنفٍ لا يماثله سوى صراخ بشرٍ على وشك أن يَذبحوا ويُذبحوا. إنها بلدةٌ ساحليةٌ يغسلُ البحرُ رجليها دون أن يتقاضى أجراً . واسم البحر هو خلاصة تاريخية حافلة . فكل طرف يختاره بما يتناسب مع وجهته وتاريخه ، فالاسم يغدو مخططاً يعكسُ استيلاء حضارةٍ ما على هذا المسطح المائي الجبار . إنها بلدةٌ غرسَ فيها الصمتُ معوله بقسوةٍ ، فالبارحةُ مثل اليوم ، واليوم مثل نفسه. والوقائع الملموسةُ يُستنبطُ منها أن غداً كاليوم ، وهكذا تدور البلدةُ جثةً خرساء في مدار دائري بدايته تقود إلى نهايته التي تقود إلى بدايته .

ولكن منذ وقت بسيط صارت هذه البقعة الساكنة المنسية في كتب الجغرافيا والتاريخ مسرحاً يموج بالأحداث الجسيمة والتوجهات المتباينة . أي طارئ هجم عليها فأحال سكوتها القبوري ثورةً من الكلمات والأحلام والأفعال ؟. وما زال الماء يتحرشُ برمال الشطآن التي أَفاقت من عدم اكتراثها ، وبدأت تقتحمُ أسئلتها بصرامةٍ ، وتتساءلُ حول ما يجري حولها . لا بد أن يخرج الرملُ يوماً ما من عباءةِ الخضوع للماءِ، ويثور على طغيان المد المعتاد على اكتساح العناصرِ . وحتى يحين وقت اكتحال الساحلِ بالرطوبة المنتشيةِ ستظل الشواطئ تلبس أجمل ملابسها وتهاجر في مراكب الصيد الملونة .

وفي مثل هذا الوقت ـ كل يوم ـ أي موعد قدوم الفجر معلناً نهاية ليل رطب، يستيقظ الرجل السمين ذو الخامسة والأربعين يعقوب بنيامين. رجل يهودي عربي

يفهم عروبته ويهوديته على أنها استبداد وقمع واضطهاد للآخرين . يزيح غطاءه الصوفي المتجعد كوجه زوجته مريانا . يحدق في الغطاء المتجعد ثم ينظر إلى امرأته النائمة إلى جانبه . ثم يبدأ في إيجاد قواسم مشتركة بينهما ، وبالطبع تعكر المقارنة مزاجه ، فيتجهم أيما تجهم ، ويقتنع أكثر من أي وقتٍ مضى بأنه كان غير موفق في اختيار امرأته ، ويستغرب من تلبسه بالفشل الفظيع . ويتعجب أكثر كيف قضى هذا العمر مع زوجته . ولكنه يقنع نفسه أنه كان صغيراً جداً يوم تزوج ، ولم يكن يمتلك الوعي الكافي والنظرة الصائبة . ويقول الرجل في نفسه _كاظماً حنقه رغماً عنه _ :

_ الحق عليك يا أبي . أمرتني أن أتزوج ابنة عمي لأحافظ على تماسك العائلة . حتى إنك لم تكلف نفسك أن تأخذ رأيي . كان أمرك نافذاً لا يُعارَض . وكنتُ أصغر وأضعف من أن أعارض رغبتك . لقد دَمَّرْتَني يا أبي ورحلتَ ! . شكراً لك يا أبي لأنك قضيتَ عليَّ ! .

هذه الأفكار تختمر في ذهنه كل يوم في هذا الوقت ثم تتبخر عندما تفيق امرأته مُنهية حقبة بائسة من الشخير الذي يعمل ضجيجاً قبيحاً في جو الحجرة ، ويكون مُنبهاً لمن يحاولون النوم كبعض المواد المهيجة في النباتات الطالعة هنا وهناك .

تقول مريانا بعد طقوس تثاؤبها الأحمق :

_ عِمْتَ صباحاً يا حبيبي .

فيرد يعقوب وقد أشاح بوجهه عنها تأففاً :

_ عمت صباحاً .

_ لماذا تشيح بوجهك عني ؟ .

يجيب زوجها مستهزئاً :

_ لا أستطيع أن أحدق في لمعان وجهك الوضاء، وخصلات شَعْرك اللازوردية،

وعينيك الواسعتين كعيني غزالة على وشك أن تقع فريسة صياد .

_ إذاً ، إنك تتمنى قتلي ! .

يجيب مازجاً كلماته بتنهيدة عميقة :

_ للأسف ، ليست كل أمنية تتحقق ! .

ترد وقد استشاطت غضباً ومَلَكَها الحنق :

_ يا لك من زوج حاقد ! ، تتمنى هلاك من أعطتك كيانها وكل ما فيه ، ووهبتك عمرها عن طيب نَفْس . اشكر الرب أن رضيت بك ، وقد تقدمتَ إليَّ فتى أرعن لا تملك سوى ثيابك التي اشتراها لك والدي لتبدوَ أمام الناس صهراً محترماً . لا تنس أنك كنتَ أجيراً عند أبي في مخبزه ، وقد التقطك من الشطآن وأنت تطارد السائحات العاريات وهن يسبحن ويتشمسن . حاول أن تُنَشِّطَ ذاكرتك التي سممها الحقد ونكران الجميل .

_ لا أحد يعطي عمره لأحد . خذي عمرك ومجد عائلتك ، ولتفرحي بهما ! .

هذا النقاش العقيم يتكرر يومياً بصور متباينة وألفاظ جديدة ومعان مختلفة ، حتى إنه غدا افتتاحية لليوم ، وصار أشبه بحركة تلقائية ، أو جزء عفوي يومي . اعتادا عليه وصار من الصعب تجاهله أو القفز فوقه .

وكالعادة تستيقظ ابنتهما راحيل على صراع الديك والدجاجة. صراع يضرب جذوره بعنف في فضاء الدار ، وأسمنت الحيطان ، ووجوه البشر الساكنين في هذه المقبرة البعيدة عن عيون سائقي سيارات نقل الموتى . هؤلاء البشر يمشون على آخر ما تبقى من ضوء في عظامهم المترسبة في وديان الانتحار المتسارع والانطفاء الرسمي.

أنجبَ يعقوبُ ولدين وثلاث بنات . وقد هاجر الولدان والبنتان إلى فلسطين سراً واستقرا هناك حيث وفَّرت لهما الحكومةُ سكناً في إحدى المستوطنات ، كما وفَّرت للولدين عملاً في أحد مصانع الأسلحة ، أما البنتان فتعملان في إحدى دور

النشر المعنية بترجمة الأدب العربي إلى العبرية . وقد أخفى الوالدان قضية الهجرة إلى فلسطين عن الجيران لما في ذلك من حساسية خاصة في المجتمع العربي .

أما راحيل فبقيت مع والدَيْها لأنها عمياء وصغيرة ولا يمكن لها أن تتدبر أمرها . وطالما عَيَّر زوجته بأنها أنجبتْ بنتاً عمياء . وقد صارت مثاراً لسخرية والدها على الدوام لكونها لا ترى. والحق يُقال إنها لا تعي معنى الهجرة إلى فلسطين ، وأن يُسرَق وطن في وضح النهار، وأن تحل محل الفلسطينيين السكان الأصليين . ففي ذهنها أن المسألة عبارة عن سَفر إلى مكان والإقامة فيه مثل كل المسافرين في هذا العالَم ، ولأنها لم تذهب في حياتها إلى أية مدرسة فإن ثقافتها تكاد تصل الصفر .

كانت راحيل في الثامنة عشرة من العمر . فتاة جميلة شعرها طويل ومسدل على كتفيها ، ووجهها أبيض مستدير ، وهي ممتلئة بشكل يفيض أنوثة ونعومة ، بلا عمليات تجميل أو مكياج . وهي أصلاً لا تملك ثمن هذه المساحيق فكيف ستستخدمها ؟ . وهي بالأساس في غنى عن كل المساحيق لأن الله وهبها جَمالاً طبيعياً لم يتلوث بالمواد التجميلية الكيماوية . أما عيناها اللامعتان فمفتوحتان على احتمالات الصدى الأخرس . وللأسف فقد كانت عمياء لا ترى مُطْلقاً . هكذا وُلِدت ، وقد سبَّب لها هذا العمى اكتئاباً مزمناً وضيقاً ما بعده ضيق . وما زاد الطين بلة هو استهزاء والدها بها على الدوام ، فهو يناديها في غالب الأحيان يا عمياء . تعالي يا عمياء ، واذهبي يا عمياء . ومن النادر أن يناديَها باسمها . منذ ولادتها وهي تعيش في جو موغل في الرعب وعدم الاستقرار الأسري . فمن النادر أن تختلط بالجيران أو الأقارب بسبب خوفها من الناس ونظراتهم إليها ، وعدم قدرتها على بناء علاقات اجتماعية سليمة . إنها مسكونة بالرعب والرعشة .

كانت هذه الأسرة تستيقظ باكراً جداً كل يوم بسبب عمل الأب في المخبز ، فهو يذهب إلى مخبزه مبكراً ليجهز العجين وباقي المواد المستخدمة في صناعة الخبز. أما راحيل فكانت تستيقظ رغماً عنها بسبب النقاش الحاد بين وَالِدَيْها . إن

غرفتها سجنها الدائم ، فهي لم تذهب إلى مدرسة في حياتها قط . إنها لا تقرأ ولا تكتب . فقد رفض الأب ذهابها إلى المدرسة بذريعة العمى رغم إلحاح الأم على ذهابها ، إلا أن إصرار الأب كان طاغياً . من سيرسلها إلى المدرسة ؟ ومن سَيُحْضرها ؟ وكيف سترى محتويات الكتب ؟ وكيف ستقرأ وتكتب ؟ . هذه الأسئلة مغروسة في فمه على الدوام ، فلم تملك الأم إلا الرضوخ لعنف هذه الأسئلة ، وغياب الأجوبة الحاسمة . ولم يقم الوالدان بالبحث عن طريقة مناسبة لتعليم ابنتهما الوحيدة ، ولو أرادا فعل ذلك لاتصلا بجهات حكومية أو أهلية ذات علاقة بالموضوع ، ولكنهما لم يريدا أن يتكلفا عناء البحث .

ذهبت الأم لتحضير طعام الفطور ، أما راحيل فبقيت متجمدة تحت اللحاف ، ولم تذهب لمساعدة أمها لأنها ستكون عبئاً على أمها ، وستفسد الأشياء أكثر من إصلاحها ، هكذا كانت قناعتها المنحوتة على قلبها الضعيف .

أحضرت الأم الطعام إلى زوجها المتجهم، فتناوله بشهية شرسة، وزوجته واقفة أمامه خائفة أن تشاركه الطعام ، فقد تعودت أن لا تأكل مع زوجها منذ زواجهما ، وعليها أن تنتظره حتى يفرغ من الأكل ويخرج من المنزل ، وبعدها توقظ ابنتها المستيقظة أصلاً لتأكل المرأتان ما تبقى من الطعام .

فرغ الأب من تناول الطعام ، ثم ذهب ليرتديَ ملابسه . وهو لا يرتديها إلا بمساعدة زوجته كإجراء روتيني ، وفعلٍ لا بد منه ليثبت رجولته كما كان يعتقد . أمسكت زوجته حذاءه الممزق ، ومسحته بطرف كمها ، ثم اقتربت من قَدَمَي زوجها ، وأدخلت الحذاء فيهما بصعوبة ، ثم قالت لزوجها :

_ لو اشتريتَ حذاءً جديداً لكان أفضل من هذا الحذاء الذي يثير سخرية الناس .

فرد بأسلوب ساخر :

_ وكيف سأُطعمكما أنتِ وابنتك العمياء ؟! .

أحست الأم بعد سماعها لهذا الكلام بإبرٍ تنخر وجهها الراكض في العتمة المنكمشة . أرادت أن تبكيَ لكن الدموع تجمعت في سدود ألمها المتكاثر كوقاحة زوجها . لذا التحفت بالصمت الفظيع ، وبقيت صامتة، ولم تجب على السؤال الاستفزازي لزوجها .

غادر الرجل المنزل ، ونزل على الدرجات المهشَّمة التي تصرخ بصوت غير مسموع جراء حملها لتلك الكتلة اللحمية المتراكمة . ينطبع وشم حذائه الممزق على البلاط المنزوي تحت رحمة عوامل البيئة . كأنني أحس البلاط المتآكل يصرخ ويصرخ ، ولكن دون مجيب . هكذا يُخيَّل إِلَيَّ . ولستُ أدري لماذا لا يريد أن يفارقني ذلك الإحساس الغامض .

خطواته تنخر خيوط رئة المكان المسحوق تحت بصمات الحذاء التالف . استمر في النزول أو السقوط كأنه خَرَّ من الغيوم المكدسة ، وهوى إلى قاع حلمِ قاتلٍ قديم لم تتمكن الشرطة من التعرف عليه . ذاب في خطواته واضمحل بصورة شبه نهائية لكنَّ شبحه وصل إلى باب العمارة ، ومضى إلى مخبزه القريب. نعم ! إن جسده كان يمشي أو شبحه المتكرر . بصراحة لا أستطيع التمييز بينهما . كل ما أعرفه أن كتلةً لحمية مشت ومشت إلى حلم جديد أو مقبرة جديدة .

أما الأم فذهبت إلى إيقاظ ابنتها ظناً منها أنها نائمة ، وما درت أنها تستيقظ على هذا الصراع اليومي الممل . مشت الأم بخطى وئيدة إلى الحجرة فرأت ابنتها متكومة تحت لحافها فتأكدت أنها نائمة ، وما درت أن ابنتها مستيقظة ولكنها تمثل دور النائم بحرفية عالية. اقتربت الأم من السرير ، ومدت يدها إلى ابنتها قائلاً بحنو:

ــ راحيل .. راحيل .

لم تجب البنت لأنها تريد أن تظل مختبئة تحت اللحاف إلى الأبد ، ولا تخرج إلى النور أبداً . وكيف ستخرج إلى النور وهي مزروعة في قلب الظُّلمة اللانهائية ؟!

أعادت الأم محاولتها بعد أن عززت كلماتها بهز جسد ابنتها المدجج بالخوف والمشاعر المتضاربة :

_ راحيل .. راحيل .. استيقظي يا راحيل .

مَثَّلت راحيل أنها تستيقظ للتو ، فتصنعت التثاؤب ، وقالت :

_ ماذا تريدين يا أمي ؟ .

_ قومي لكي نفطر سويةً .

_ لا أريد أن أفطر ، افطري أنت لوحدك .

_ ما هذا الكلام ؟! ، يجب أن تقومي لتفطري ، وإن لم تفعلي فلن أفطر .

نفضت راحيل اللحاف عن بدنها كما تنفض الفراشة المذبوحة ذكرياتِ النار عن أجفانها . وقامت وهي تدعك عينيها . وعندما رأت الأم أنها قد قامت تهللت أساريرها ، لأنها كانت حريصة أن تفطر ابنتها إفطاراً يليق بالإنسان ، ويُنسيه المجاعة أيام الحرب . والعجيب أن راحيل ظَلَّت محتفظة بصحتها حتى في أيام الحرب . فجسمها الممتلئ ليس ناتجاً عن كثرة الأكل ، ولكنه ناتج عن طبيعة القالب الموضوع فيه لحمها المتراص .

نهضت البنت لوحدها ، فأمها لم تتدخل لمساعدتها في النهوض لأنها كانت تريد أن ترى قوة ابنتها لكي تطمئن على نفسيتها وصحتها. رَتَّبت البنت سريرها . كل عنصر مُرَتَّب بشكل ينبئ عن ذوق رفيع وإحساس بالجَمال والترتيب والهدوء . إن هذه العناصر كلها احتشدت في سريرها المرتَّب . صحيحٌ أنها لا ترى الأشياء ببصرها ، لكنها كانت تحس بما حولها . تشعر بتنفس سريرها ، بدفء أجزائه ، بتموجات اللحاف ، بقيعانِ وسادتها المتأرجحة بين الصلابة والليونة . إنها تحس بالعناصر المحيطة ببصيرتها التي تعبر هذا المدى اللزج . إحساسها هو عينُها التي لا تُغمِض .

ذهبت المرأتان إلى طعام الفطور مسرعتين كحمامتين هاربتين من صياد محترف . في جبينهما أشجارٌ غامضة خائفة من شيء ما . لم تتكلما وإنما اندمجتا كلياً في الطعام. نظرت كل واحدة إلى الأخرى كأنهما تريدان قول شيء عالق في أحلامهما المقموعة . لمعت عينا راحيل المفتوحتان على العمى بشكل غريب. حدَّقت الأم في عيني ابنتها تحديقاً متواصلاً. أرادت أن تبكيَ إشفاقاً على ابنتها لكنها لم تستطع ، وغرقت في الأكل الذي قد يُعوِّضها عن البكاء .

وبينما كانتا تأكلان أحستا بوقع أقدام على الدرج . ابتسمت راحيل وقالت بخجل واضح :

_ إنه جارنا زياد ذاهب إلى صلاة الفجر .

وعندما انتشرت هذه الكلمات في الأفق الأرجواني المرتعش ، برقت عينا البنت مرة أخرى. ولاحظت أمها هذا البريق العميق . بدا بريقاً بريئاً ممزوجاً ببقايا طفولة شريدة . لقد قالت هذا الكلام ببراءة بنت محلقة في طفولة لا تُسافر في قطارات العمر .

قالت الأم مُعلِّقة على كلام ابنتها :

_ إن زياداً شاب متدين ومحترم، وسيكون بألف خير لو يتركه رجالُ المخابرات الذين يسألون عنه دائماً ، ليتهم يتركونه وشأنه ليعيش مثل باقي الخلق .

ارتبكت راحيل لما سمعت هذا الكلام ، وقالت بلهجة الأم الخائفة على ابنها الوحيد :

_ وهل سيؤذونه ؟! .

شعرت الأم بلهفة غير عادية تتخبط في كينونة هذا السؤال ، فقالت محاولةً إزالة الخوف عن ابنتها :

_ لن يستطيعوا أن يؤذوه لأنهم أضعف شخصيةً منه .

أُعجبت البنت بجواب أمها ومنطقها ، واطمأنت إلى كلامها المريح ، وعادت

إلى الأكل بشراهة أكثر من ذي قبل .

كانت وقع الأقدام الموغلة في جسد الزنبق تعود إلى زياد كما قالت راحيل بالضبط . فهو حريصٌ على حضور صلاة الفجر في المسجد كل يوم . توضأ بالماء النازل من رحم أشجار حُلْمه . هكذا كنتُ أتخيل المشهد رغم أنني أرى الماء نازلاً من الصنبور . أحس ببرودته لكن شعلة الإيمان في قلبه أضاءت تفاحاتِ قلبه الخاشع لله . انبسطت أعضاؤه أمام اجتياحات الماء الناعمة ، واستسلمت دموعه الخفية لسيل ذكريات جدران غرفته الممتلئة ببراويز الآيات القرآنية . كان سعيداً لدرجة لا توصف . وكلما مَرَّ الماء على لحمه شعر أن قلبه يُهاجر إلى خالقه ، تاركاً حقيبة السفر لتراب الغرباء الذين ما زالوا يدبون على هذه الأرض . مضى إلى طريقه حاملاً ظل الغيوم البعيدة على ظهره الضعيف وسار مبتسماً . نزل الدَّرج بخطوات غير قافزة . إنه يتأنى في النزول . فكَّرَ للحظة أن يصرخ في الناس ليوقظهم للصلاة ، أن ينادِيَ على الطيور والأشجار والبحر. ولكنَّ صورة جيرانه اليهود داهمته بعنف، وأدرك أن هذا ليس أسلوباً جيداً لإشعار الناس بالصلاة ، فأعرض عن هذا الخاطر السريع ، ومضى والابتسامة لا تفارقه .

كان الشَّارع يفتقد إلى ملامح الشوارع العادية . الخراب يحيط بهذا الكائن السائر في ظلمة الليل نحو لقاء خالقه . بدا منظر المنازل المهدَّمة في الظلام مُروعاً وبائساً كأشباح تتطفل على رائحة المجاري المجنونة . فقد قُصفت أنابيب الصرف الصحي ، وهذا سبَّب كارثة بيئية فظيعة . بدت هذه الأشياء تحت جنح الظلام أشد إيلاماً . هاجمته الروائحُ الكريهة من كل الأزقة ، إنها تخرج من الحيطان المشققة ، من خلايا الأسمنت المسلح المتهاوي ، من عيون الصَّدى المتوحش . إنها تخرج من كل العناصر المحيطة بالأنقاض الممتدة على مساحات حزن الأرصفة الذي ما زال يُقاتِل رغم كل الكوارث التي تجثم على صدر المكان اللامكان . ورغم كل هذا شعر زياد بنسمة مدوية قادمة من جهة البحر. نعم ، لقد

كان يشعر بها بعنف. إنها فرصةٌ حقيقية ليتبختر في هذا الخراب كأنه يتحداه، ويجبره على التحول إلى نوع جديد من الأحلام . إنه التحدي الصارخ ، هكذا كان يُفكِّر . أحس بقوة غريبة تهزه بشدة . استسلمَ لها بمحض إرادته ، وراح يمشي كأنه يريد ان يطبع بصمات ظله على هذه الأرض التي تحب أن ترى ساكنيها أحياء رغم ما فيهم من موت يعشعش في زوايا ظلالهم المقاتِلة . رأى ضوء المئذنة من بعيد، يلمع كنجمة راحلة إلى سجودها لخالقها . قال في نفسه :

ـ يا الله ! المئذنة سلمت من القصف في وسط كل هذا الخراب .

أحس بقلبه يتفطر عندما ذكر لفظ الجلالة، وبوجهه يتصدع من عظمة الكلمة، ثم ما لبث أن سكنت أعضاؤه كزيتونة تقف في وجه الكلاب المسعورة دون أن ترتعش .

وصل إلى المسجد ودخله بعد أن وضع حذاءه على إحدى الرفوف الخشبية المخصصة لذلك . خُيِّل إليه أن عظامه تركع على السجاد النظيف. بدا المسجد ممتلئاً بالمصلين على غير العادة في صلاة الفجر. كان هناك فجوة كبيرة في الحائط الغربي للمسجد . لا بد أنها نتيجة قذيفة مدفع . هكذا حلَّل زياد المشهد في ذهنه رغم أنه لا يفهم كثيراً في الأمور العسكرية . إن الهواء النقي يدخل من الفجوة غير حامل للغبار رغم كل الأنقاض المحدقة بالمكان. ولم يكد يُصَلِّي تحية المسجد حتى أُقيمت الصلاة . اندفع باتجاهه خاطرٌ عجيبٌ فقد تَخَيَّل أن الوقت بين الإقامة وتكبيرة الإحرام عاصمةٌ لاستنشاق رائحة المجرات. لم يجد تفسيراً منطقياً لهذا الخاطر الماحي. دخل في الصلاة وفي عينيه أشجارٌ تُصَلِّي . كان صوتُ الشيخ سليمان ثويني إمام المسجد وهو يقرأ القرآن يتسرب إلى خلايا زياد الحية والميتة . إنه صوتٌ يحمل كل ألوان الفراشات المهاجرة في موسم المحبة . استسلم لبكاء خفيف ضربه بلا موعد مسبق . ذرف دمعة إثر دمعة ، ونزيف الدمع لا يريد أن يتوقف ، كأن الدموع تحفر أخاديد البرتقال في وجهه الراكض باتجاه

الخشوع . تملكته رِعْدةٌ لا يُعرَف مصدرها .

_ إنني قريبٌ من حضرة الله .

قال في نفسه .

وبدا وكأنه غير قادر على الوقوف على رجليه . لكنه تمالك نفسه بصعوبة وأكمل الصلاة . وبعد أن فرغ من الصلاة لمح آثار دمعه على السجاد. انعكس قلبه على مرايا دمعه ، وأغمض عينيه ، ودخل في الاستغفار والأذكار .

ذاب في أذكاره واضمحل قلبُه بين ضلوعه ، وَوَجد قلبه مُعَلَّقاً على الهلال الموضوع في أعلى المنبر . هكذا كان يرى ببصيرته . بدأ المصلون يغادرون المسجد ، لكنه بقي جالساً في مكانه . فكَّر أن يذهب إلى الإمام لِيُسَلِّم عليه، حيث إن الحرب الماضية قطعت العلاقات بينهما ولم يريا بعضهما البعض منذ ذلك الحين . اقترب من الإمام ، وألقى السلامَ عليه، ثم صافحه بحرارة قائلاً :

_ كيف حالك يا سَيِّدي الشيخ ؟ .

_ الحمد لله ، إنني في أفضل حال .

_ أحببتُ أن أُسَلِّم عليك ، وأطمئن على صحتك .

_ بارك الله فيك يا زياد ، وشكراً لك على سؤالك .

ومضى زياد مغادراً المسجد تاركاً الشيخ جالساً في مكانه .

إن الشيخ سليمان ثويني رجل صالح ، وفقيه شافعي ، وهو شيخ إحدى الطرق الصوفية . عندما تراه تشعر بملامحه تفيض أنهاراً من حرارة الإيمان . كل شيء في وجهه أبيض ، وثيابه كذلك . وكل تفاصيله بيضاء ما عدا عِمامته السوداء التي يقول إنها لون عِمامة النَّبي ﷺ .

وهو ممنوعٌ من السفر بسبب خطبه يوم الجمعة التي ينتقد فيها النظام الحاكم وفساد الحكومة ، كما أنه ممنوع من الخطابة . ولكن في المرحلة الأخيرة ضعفت سلطة الدولة وأجهزتها الأمنية ووسائل الاتصالات بسبب الحرب ، وانشغال الجيش

بالقتال في المناطق الحدودية ، وهذا دفع الشيخَ إلى العودة للخطابة دون إذن حكومي . وعلى الرغم من كل ما حدث إلا أن أجهزة الدولة رجعت للعمل تدريجياً بعد انتهاء الحرب . وكلما مُنع أكثر ازداد التفاف الناس حوله . وفي المرة الأخيرة أرسلت الحكومة خطيباً من علماء السَّلاطين، فكانت خطبته كأنها منشور بيعة للحاكم ، فقضاها في التطبيل والتزمير له . مما جعل الناس يُصابون بالاستياء ، ويُنزلونه عن المنبر . ولولا تَدَخُّل بعض المصلين لإخراجه سالماً، لخرج محمولاً على نقالة ! .

في هذه البلاد تتدخل الحكومةُ في كل شيء ، وتتحكم في كل شيء. فوسائل الإعلام تابعة للدولة، ومؤسسات المجتمع المدني تابعة للدولة، ودور النشر تابعة للدولة ، والمساجد والكنائس تابعة للدولة . وفي الفترة الأخيرة سمحت الدولة بإنشاء أماكن عبادة لليهود في مناطق تجمعاتهم ، وحتى هذه الأماكن تابعة للدولة ، لدرجة أن زياداً نشر مقالاً في صحيفة عربية تصدر في الخارج ساخراً من هذه الهيمنة على كل شيء . وقال في مقاله مستهزئاً إنهم نسوا أن يحددوا ألوان الملابس الداخلية للشعب ، وقال في نفس المقال إنه يخشى أن يتذكروا ذلك قريباً ! .

خرج زياد من المسجد وفي جبينه تتزاوج الأشجار الباسقات ، وتتمرد الأنهار غير الدموية . مشى إلى مكان منحوت في ذهنه. إنه يعرف أين يذهب . قصدَ الشاطئ ، وزرع أقدامه في الرمال الصفراء التي يظهر لونها بشكل عاصف تحت أشعة القمر الآيل للرحيل. خلع ملابسَه ووضعها على الشاطئ ، وبقي مرتدياً لباس سباحة يُغطي المنطقة بين سُرَّته وركبتيه . وسلَّمَ نفسه للموج الهادئ ، وانصهر في جسد البحر ، وراح يسبح بعشق مثلما تسبح النجوم في مجرة الكلمات الشاعرية .

لقد تعود كلَّ يومٍ أن يُصَلِّيَ الفجرَ في المسجد ثم يذهب للسباحة في البحر . كان الماءُ بارداً بعض الشيء، لكن برودته ناعمة وليست قاسية. إنه يُحسن السباحة

بصورة لافتة ، فمنذ طفولته هو يسبح في البحر . لقد علَّمه السباحةَ أستاذُ الرياضيات . كان يأخذه إلى منطقة ليس فيها نساء بملابس السباحة ، ويعلمه كيف يسبح في تلك البقعة ، وكان يخبره على الدوام بأن البحر هو التفاضل والتكامل .

وهؤلاء النِّساء على شطآن هذا البحر اللواتي يرتدين لباس سباحة من قطعتين لم يَكُنَّ من أهل المنطقة ، لأن أهل المنطقة محافظون إلى حد بعيد ، ولا يسمحون لبناتهم أو نسائهم بفعل ذلك . وإنما كانت النساء غالبيتهن من السائحات الغربيات اللواتي يأتين إلى هذا المكان من أجل الشمس والاستجمام .

لذا كان زياد طوال حياته يختار وقت ما بعد صلاة الفجر للسباحة ، حيثُ يكون الشاطئ خالياً تماماً، بلا سائحات عاريات، أو صخب هستيري . إنه يحس أن البحر ينادي عليه . صوتٌ ما يأتي من حنجرة الموج ينادي بأعلى صوته . وزياد لا يملك إلا أن يُلَبِّيَ مختاراً سعيداً باختياره . إن هذا السابح الوحيد في لجة أجنحة الفراشات النائمة مهاجِر باتجاه صوت غامض يأتي من شبابيك البحر المشرعة أمام قدوم ضيوف الإعصار .

كان سَبَّاحاً ماهراً وعاشقاً لما يقوم به . عشقه يسبح في ماء أحلامه الشمسية ، ولكن الشمس ما زالت مختبئة لم تظهر بعد . منح للبحر كامل أعضائه ، واخترق العمودَ الفقري للموج الثائر أبداً ، والمنفيِّ أبداً. لقد امتزجت ملوحة دموعه غير المرئية بملوحة البحر. خطر على باله أثناء السباحة أن كل شيء حوله مالِحٌ . صور الرمال المبتعدة عن ناظريه بينما هو يتوغل في الماء . شَعْرُ جارته اليهودية الشابة وهي تحفر موتها على قشر البطيخ الذي لا تستطيع أن ترى لونَه . حقيبة ابنة مدير المخابرات التي تدرس معه في الجامعة ، والمرشحة للفوز بانتخابات مجلس الطلبة بكل وسائل التزوير المعروفة وغير المعروفة . تزوير الانتخابات في كل تفاصيل البلد من رأس الهرم حتى القاعدة .رائحة الخبز المنبعثة من فرن اليهوديِّ وهو يعد الأموال التي جناها من القِمار والرِّبا . رائحة عَرَق أخيه الجندي الذي قد يعود وقد

لا يعود.

ـ كل شيء حولي مالح .

قال في نفسه وهو يسبح مغمض العينين .

لكنه تدارك إحساسه المؤلم ، وآمنَ أنه سيصعد من بين كل تلال الملح المحدِقة بجسده الوحيد في وسط جبال الموج التي لا ترحم ، سيصعد دماً للرياح لا ينقل على ظهره براميلَ النفط للغزاة . هكذا أكَّد لنفسه بكل حزم. كان يَسْبح لِيُفَرِّغ الكبتَ الجنسي والقهر السياسي الفظيعين اللذين يشعر بهما . يضرب الماء بيديه ورجليه ليعلن انتصاره على اليود البحري والشِّعابِ المرجانية ويومياتِ الحيتان التي لا تأتي إلى رياح القلب وأسماكِ القرش المشغولة بالتقاط فرائسها في مكان ما .

انتهى من السِّباحة ، وخرج من الماء . ارتدى ملابسه التي تركها على الشاطئ المهجور في مثل هذه الساعة . إنها ساعة يهجر فيها الناسُ رمالَ الحلم ويغطسون في منام الصخور . وحدها النوارس التي تقضم جسد السواحل التي لا يصلها خفرُ السواحل .

عاد إلى العمارة التي يسكن فيها . وبينما هو صاعد على الدرج لمح راحيل نازلةً وهي تمسك كيس القمامة من أجل رميه في الحاوية القريبة التي نجت من القصف بأعجوبة . أخشى أن تكون حاويات القمامة هي التي سَتَرِثُ هذه الأنقاضَ اللانهائية . كانت خطوات راحيل كالنَّمش الخفيف في وجه قطة مبلولة على سور مقبرةٍ تُقاتِل . إنها تزرع خطواتها برفق على هذا الدرج الموحش بالنسبة لها . لقد استوى عندها الليلُ والنهار ، فلا فرق يُذكَر . ولقد اختارت هذا الوقت بالذات لترميَ كيسَ القمامة ، لأن الناس نائمون في هذا الوقت ، وبالتالي لن يسخر منها أحدٌ بسبب العمى، لأنه لا أحد يراها في مثل هذا الوقت. هكذا كانت تعتقد. وقد قامت الأم بتوصيفها المكان الذي توجد فيه حاوية القمامة ، فقالت لها إنه يوجد

على بعد عشرين متراً جهة اليسار بعد خروجك من باب العمارة . وهكذا صارت راحيلُ تقوم بهذا الفعل كل يوم .

وعندما رآها زياد أشفق عليها ، وشعر بكهرباء عجيبة قادمة من لمعان عينيها المفتوحتين والمغلقتين في الوقت ذاته ، فأسرع إليها وفي جبهته بنادق من نوع خاص تتقاتل . تَوَجَّه إليها قائلاً :

_ آنسة راحيل ، هاتي الكيس لأضعه في الحاوية .

ردت وقد ارتسمت على شفتيها أشجارُ ابتسامة غامضة ، وأسى يرتدي أقنعةَ الألم :

_ لا عليك يا أستاذ زياد، سوف أضعه بنفسي ، فأنا أعرف الطريق.

رد زياد وقد ارتدى صوتُه إصرارَ الرجولة :

_ لن أدعك تفعلين ذلك .

ومد يده وانتزع الكيس منها . وقد كان حريصاً على أن لا تلمس يدُه يدَها ، فهما في غنى عن الإحراج والمشاعر الشهوانية . هكذا كانا يُفكِّران في عقلهما الباطن .

أخذ زياد الكيس ومضى لكي يُلقيَه في حاوية القُمامة . أما راحيل فمضت إلى منزلها ، وعندما وصلت تَعَجَّبت الأم من هذه السرعة غير المعقولة ، وشَكَّت أن تكون ابنتها قد ألقت الكيس وعادت ، فقالت لها متعجبة :

_ لقد عُدتِ بسرعة جنونية .

ردت البنتُ وقد ارتسم على وجهها حياءٌ من نوع خاص :

_ لقد أخذ الكيسَ الأستاذُ زياد بعد أن أصر على ذلك ، وهو الذي ذهب ليرميَه .

غضبت الأم بصورة واضحة، واستولت على قسمات وجهها سمات حادة جداً، وقالت والغضب واضح في صوتها الذي اعتنق الإزعاج :

ـ ألم أقل لك إنَّ عليك أن ترميَه بنفسك .. ماذا سيقول الناسُ عنا عندما يُشاهدونك مع رجل غريب أعزب ؟ .

وأردفت الأم :

ـ راحيل ! هل بينكِ وبينه شيء ؟! .

ارتبكت راحيل ، وأجابت بسرعة لتدفع عنها أية شبهة :

ـ ليس بيني وبينه شيء نهائياً . إنه شاب محترم لا يسيء لأحد ، وقد ساعدني بعد أن أصر على ذلك . صَدِّقيني يا أمي لا شيء بيننا .

وانهمرت دموع راحيل كأن صخوراً تتساقط من نجوم السماء ، وانصرفت إلى غرفتها وهي تجر أذيال الألم ، وتحمل أشواك الحلم على ظهرها الضعيف .

شعرت الأم بأنها ظلمت ابنتها ، وقست عليها بعد أن صَبَّت فوق رأسها سؤالاً طاعناً غير متوقع . وبدلاً من أن تذهب إلى غرفة ابنتها لتخفف عنها مضت إلى المطبخ للقيام ببعض الأعمال . فقد رأت أنه من الأفضل ترك البنت لوحدها في هذا الوقت لعلها تخفف عن نفسها بالبكاء . هكذا كانت تعتقد الأم . وافترقت المرأتان إلى طريقين مختلفتين. كل واحدة ذهبت إلى حلمها المقموع ، حلم يجيء من دموع متكورة على شكل بنادق تفتح النارَ على القلوبِ الكسيرة . وغرقت المرأتان في ذكريات أسماء أحزانهما ، وغابتا في أشلاء لا تزال تتحرك .

رجع زياد إلى غرفته بعد أن ألقى كيس القُمامة في الحاوية . استلقى على سريره وعلى جبينه عَرَقُ نجومٍ راحلة . أطلق نظره باتجاه السقف كأنما يريد أن يزرع فيه قمح ذكرياته القادمة . أغمض عينيه ليغرق في تأمل من نوع مختلف. انطفأ العالَم بالنسبة إليه ، وصار هو العالَمَ الجديد. صار حُلْماً لكائنات تعيش في كبده المسافر أبداً على سطوح القطارات البخارية . تَذَكَّر أن عليه كتابة فصول جديدة في كتابه الفلسفي الجديد " الرد على أرسطو" . أظنه قد وصل إلى الصفحة الستين بعد المئتين. كان طوال الفترة السابقة يكتب بنهم شديد . لكنه قال في نفسه إن عليه

أن يقرأ وِرْده القرآني قبل أن ينهمك في الكتابة . نهض من تأملاته واستراحته القصيرة جداً. وبالفعل ذهب لإحضار القرآن ، وراح يقرأ من حيث إنتهى في الأمس . إنه يقرأ بأحكام التجويد كاملةً ، فالشيخ سليمان ثويني مجاز من الأزهر ، ودرَّسه أحكام التجويد في المسجد بعد صلاة المغرب . لقد مضى زمنٌ طويل على تلك الدروس . لقد كَبُرَ زياد وصار طالباً في الجامعة ، وانضم لجماعة الإخوان المسلمين مثل العلماء الذين كان يقرأ لهم في صغره . استغرقت تلاوته للقرآن ساعة إلا ربعاً. وبعدها ذهب إلى مكتبه . رتَّب الكتب المنثورة على المكتب. ومضى يكتب ويكتب . والعجيب أنه كان يكتب دون العودة إلى مراجع . لقد قرأ كل مؤلفات أرسطو في مكتبة الجامعة والمكتبات العامة أكثر من مرة . وبعدها صار يرد عليه من إملاء عقله دون الاستعانة بالمراجع . وهذا ما يُحيِّرني في شخصيته .

وبينما هو منهمك في كتاباته أحس بحركة على السطح ، فتوقف عن الكتابة ونظر من النافذة ليرى ماذا هناك . فرأى راحيل تنشر الغسيل . أشفق عليها وقرَّر أن يساعدها، لكنه تراجع بسرعة ، إذ إن فِعْلَه سيكون مريباً وشُبهة قبيحة بالنسبة لهما . فقرر أن يعود إلى كتاباته وقبل أن يفعل ذلك وقعت عيناه بدون قصدٍ على صَدْرِ راحيل وهي منحنية لتلتقط الغسيل من الطشت ، فرآى جزءاً من نَهْدَيْها . رمى بصره إلى أرضية غرفته بسرعة، وخر ساجداً لله وهو يسبحه،واحمرت خدوده، وازداد تسارع نبضاته ، واستغفر ربه وعيناه على أهبة الدمع . لقد رأى ما لا يحب أن يراه . جلس على الكرسي وأغرق نفسه في الكتابة لينسى ذلك المشهد المحرَّم عليه . فكَّر أن أفضل وسيلة لنسيان ما حدث هو الانهماك في أكسجين الورق والحِبر. وبالفعل تم ذلك بسرعة كبيرة جداً من أجل النسيان ولا شيء سوى النسيان في هذه اللحظات المرعبة التي يتدفق فيها الحرامُ في ذرات الأسمنت لو استمر في التقاط تفاصيل ذلك المشهد الصعب .

ألقى بنفسه في ممالك الحِبر . مسح العرق عن جبينه بظاهر يده اليمنى. أيقن أنه في هذه اللحظة بحاجة إلى القرآن. أمسكه وبدأ يقرأ منه، وتسبح روحه في ملكوت الله كفراشة لم يعرف الصيادُ طريقاً إلى اصطيادها . بدأت شهوته تخبو تدريجياً ، وهو يقرأ الآيات . إنه يتنفس كلامَ الإله ، ويمضي في رحلته إلى خالقه ، ولا يريد العودة إلى تلك البقعة التي رأى فيها ما رأى .

٣

هناك ، في ناحية مُعتمة كانت تجلس ديالا. إنها متسمرة على الكرسي خلف طاولةٍ منبوذة . على الطاولة زجاجة شمبانيا طعمها كوخز المسامير الصدئة في نعوش جنود مجهولي الهوية . عيناها تدوران مثل كوبين من عصير الطماطم الذي تكرهه لأنه لا يُسكِر . أمسكت زجاجةَ الشمبانيا ، وصَبَّتْها في فمها الذي يُشبه مستنقعاً للطحالب أو جسداً غامضاً نخرته الخلايا السرطانيةُ .

_ للأسف ! لم يبق شيء في الزجاجة .

قالت في نفسها والحسرة تقضم أشلاءها المبعثَرة .

طلبت زجاجةً أخرى ، لكنها هذه المرة غَيَّرت نوع مشروبها من الشمبانيا إلى الويسكي . نادت على الخمار هاكوب الأرمني :

_ يا هاكوب ، أحضر لي زجاجةَ ويسكي من النوع الثقيل .

هز هاكوبُ رأسَه مُوافقاً . وهل يملك أن يرفض ما دامت تدفع ؟! . المهم أنها تدفع . هكذا كان هاكوب يُفَكِّر في عقله الباطن .

إنه رَجُلٌ قصير القامة ذو كرش واضح من كثرة الشُّرب ، وعيناه عميقتان كصخرتين مستقرتين في قلب واد سحيق . وفي عُنقه صليبٌ مع أنه ملحد عملياً . وربما كان يضع أربعة خواتم في أصابعه . بصراحة لم أنتبه إلى عدد الخواتم، ولكن منظر يديه من بعيد مثل النار اللامعة على رأس جبل على وشك الانهيار . نعم ، إن الخواتم في يديه تعطي لمعاناً صادماً ، وأكبر صدمة في جسده كانت رائحة فمه

المقرِفة التي تزيد السكارى في الحانة قرفاً مُضاعَفاً واكتئاباً متزايداً ، لدرجة أن أحد زبائن الحانة قال له في مرة من المرات ساخراً :

_ عندما أكونُ بحاجة إلى السعادة فإنني آتي إلى الحانة لأشرب ، وعندما أكون بحاجة إلى القرف آتي إلى الحانة لأشم رائحة فمك ، يعني في كل الحالات أنا زبون دائم ! .

وحينما سمع هاكوبُ هذا الكلام ابتسم بخبث رغم أن داخله يغلي من شدة الغيظ ، لكنه لا يريد ان يخسر زبوناً من أجل إهانة يوجهها . الإهانات لا قيمة لها . المهم أن هناك مالاً يُدفَع . هذه هي عقيدة ذلك الأرمني العجوز التي كانت خليطاً عجيباً فهو نصف ملحد ونصف أرثوذكسي ، هكذا كان ينظر لنفسه .

أحضر الأرمني زجاجة الويسكي إلى ديالا ، ووضعها على الطاولة ، ثم فتحها بخفة تُنبئ عن خبرة طويلة في هذا المجال ، وقال لديالا التي صارت صنماً خشبياً على كرسي خشبي :

_ ليس من عادتك أن تجلسي في هذه الحانة ، لقد كنتِ تشترين المشروب وتدفعين وتذهبين .

ردت ديالا وهي في حالة سكر خفيفة :

_ إنني أنتظر ابنك المحترم هاني كي يأتيَ .

رد الأرمني العجوز :

_ وماذا تريدين من ابني ؟! .

_ أريد منه بعض المعلومات عن الحزب من أجل برنامج وثائقي في التلفاز .

_ أخشى أن يطول انتظارك ، فهاني مشغولٌ هذه الأيام .

_ لا يهم ، سوف أتغلب على الملل بشرب الويسكي ريثما يأتي .

غرقت في الشرب بصورة فظيعة . كانت المرأة الوحيدة في الخمارةِ ، وحولها رِجال سكارى يحيطون بها من كل الجهات . جحظت عيناها بصورة رهيبة بفعل

كمية الكحول التي احتستها . إن دمها وردة تذوي بصورة دراماتيكية ، ووجهها صار كحقل قمح مُسرطَن أو غارق في إشعاعات يورانيوم قادمة من قنابل نسي الغزاةُ تفجيرها . جسدها مُخَدَّر كأنه مزارع خشخاش خارج نفوذ الحكومة التي تحارِب المخدرات ظاهرياً ، وتتستر على المتنفذين الذين يتاجرون بها . ألقت برأسها على الطاولة ، وغرقت في سبات شرس .

بعد مدة طويلة نسبياً جاء هاني إلى خمارة والده . ألقى التحية على أبيه ، ولم ينتبه إلى وجود ديالا ، فقال له أبوه :

_ إن ديالا في انتظارك .

رد هاني متعجباً :

_ وأين هي ؟! .

أشار أبوه إلى الناحية التي توجد فيها ديالا متكومة على نفسها ، ومُلقيةً رأسها على الطاولة . توجَّه هاني إلى تلك الطاولة ، وعندما وصلها دق عليها بأصابع يده اليمنى ، فلم يلق جواباً ، فقال بصوتٍ عال وهو يهز رأسَ ديالا بشدة :

_ ديالا .. ديالا .. استيقظي يا امرأة .. ديالا .

وبفعل الهز الشديد استيقظت بصعوبة كأنها تنفض عن جسدها أطناناً من جثث التماسيح الثقيلة . عيناها نصف مُغمضتين صارتا منتجعاً لتجاعيد غامضة لا يُعرَف مصدرها . وقالت بصوت متثاقل :

_ ماذا تريد ؟! .

رد هاني مازجاً تعجبه من سؤالها بالقرف من منظرها وهي في هذه الحالة :

_ ما الذي تريدينه مني ؟ .

جالت ديالا في أرجاء ذاكرتها ، فلم تعرف سبب مجيئها لهذا المكان . حاولتْ مرة أخرى ، ولكنْ عبثاً ذهبتْ محاولاتها . إنها في حالة سُكْرٍ شديدة . وصل الخدر الصاعق إلى أقاصي زوايا لحمها المتكوم على حطامها اللانهائي .

فقالت وهي تفرك عينيها :

ـ لا أعرف لماذا جئتُ إلى هنا .

أُصيب هاني بالامتعاض من جوابها ، وأحس أنه يُضَيِّع وقته في محادثة هذه السكيرة التي لا تعي أقوالها . لكنه ذهب وأحضر زجاجة ماء باردة جداً ، ثم سكبها على رأسها . انتفضتْ مثل عنكبوت محشورة تحت مزراب مُكَسَّر في ليلة شاتية . بدأت علامات الصحوة تظهر عليها . شعرتْ بقوة غريبة تسري في جسدها . ثم قرَّب إلى أنفها مادة كانت في جيبه فانتفضت مستيقظةً ، وهي تشعر بأحاسيس يقظة من نوع غريب مُدَمِّر . كانت تلك المادة أفيوناً ، قرَّبها إلى أنفها ثم أخفاها في جيبه دون أن تلاحظها ديالا .

بدأت ديالا تعي ما يجري حولها ، حدَّقت في الأشياء التي تحيط بها . أيقنت أنها المرأة الوحيدة في هذا المكان الكئيب . نظرتْ إلى وجه هاني وقالت :

ـ حسناً فعلتَ أنك جئتَ إلى هنا .

ـ ماذا تريدين مني ؟ .

ـ أريد عمل برنامج وثائقي عن الحزب الشيوعي الذي تنتمي إليه، وأحتاج إلى بعض المعلومات التي تفيدنا في عمل هذا البرنامج .

ـ بكل سرور .

ـ دعنا نخرجْ من هذا المكان المقرِف ، ونذهب إلى الشاطئ لأستعيد حيويتي .

وخرجا معاً إلى بقعةٍ على الشاطئ كانا يقصدانها في الأيام الماضية . ولم تكن المسافة بين الخمارة والشاطئ طويلة . إنها تستغرق ربع ساعة مشياً على الأقدام . مشيا وفي عيونهما انعكاسات الأنقاض ، وصراخ العمال الذين حَوَّلوا المكان الهادئ إلى ورشة كبيرة صاخبة من أجل إعادة الإعمار .

كانت الجرَّافات الضخمة تُفَجِّر أبجديةَ الصخب في ذلك المكان. والآلات

بدت أنها جديدة . ربما استوردتها الحكومةُ من الخارج لإعادة البناء . أُعجبت ديالا بهذا المشهد الذي يعكس نشاطاً حكومياً ملحوظاً ، وقالت :

_ لقد ظَلَمْنا الحكومةَ ، فها هي تعمل بكل نشاط لإعادة الإعمار .

رد هاني باستخفاف :

_ هذه حكومة ساقطة ، تدفع دولاراً للإعمار وتسرق مليوناً . لا تُصَدِّقي هذه المسرحية البائسة . إنهم يقومون بذلك أمام وسائل الإعلام لتتحسن صورة الحكومة أمام الرأي العام الداخلي والخارجي . كلهم لصوص ويُنَظِّرون في الشَّرف والمبادئ. إنهم لا يعرفون من الحياة سوى مضاجعة نسائهم التافهات أو عشيقاتهم الساقطات وسرقة الشَّعب . إن الحكومة مثل الأم الخائنة التي تُعَلِّم بناتِها الخيانة لئلا يصبحن عوانس .

بدت كلماته كالحجارة التي تسقط على رأس ديالا . كل كلمة تتدحرج على حيطان ذاكرتها مثل كرة الثلج أو النار . إنها محاصَرة بقطيع من الجُمل المتلاحقة التي تبتلع وجهها تدريجياً . ولم يكن هاني يخجل من ترديد أية كلمة ذات دلالة جنسية أمام ديالا ، لعلمه أنها فتاة متحررة من كل الضوابط .

قالت ديالا متعجبة من هذا الجواب الذي لم تكن تنتظره :

_ إنك تخلط الحابل بالنابل .

_ دعكِ من هذا الكلام ، ولنبحث عن مكان نجلس فيه لنقوم بهذا الحوار البائس حول حزبنا الساقط .

_ ما دام أنه ساقط كما تقول ، فلماذا انضممتَ إليه ؟ .

_ هذه قصة طويلة سأخبرك بها فيما بعد .

ساد المكانَ دهشةٌ من نوع خاص ، لكن وقع نعالهما الخشن يدب على الأرض بصورة شبه وحشية . وصلا إلى الشَّاطئ ، واختارا صخرة قريبة ، وذهبا إليها ليجلسا عليها . صورةُ الموج أمامهما كقنديل بنفسجي عالق على أطراف ثُرَيَّة في

سقف القلب المهجور . إنه الميناء المهجور ، ذكرياته الراحلة إلى النهايات الحاسمة . وجه الشمس المغموس في الماء الثائر . يا له من ميناء ، لقد رحلت السُّفن إلى فضاءات الرعشة ، أما البشر فتركوه لأسماك لم تعد تجيء إلا لتبكيَ على حواف الصدى الوحشي . إنهما في قلب الصَّدى المسافر أبداً في هذا الميناء الباكي .

قالت ديالا بعد أن جلست على الصخرة برفقة هاني :

_ لن نبدأ الحوار حتى تجيبني عن سؤالي ، وهو لماذا انضممتَ إلى الحزب وأنت تقول إنه ساقط .

تنهد هاني ، وأغمض عينيه لبُرهة ، ورمى بصره في الموج المغادِر ، ثم قال :

_ سأقول لكِ كلاماً لكنه ليس للنشر .

ثم توقَّف عن الكلام ، حيث بدا أنه متردد بعض الشيء ، لكنه أجمع أمره ، وقال :

_ كلنا في الحزب الشيوعي نعلم أن الله موجود . فالأمين العام للحزب اسمه عبد السَّلام ، فإذا كان مُلحداً حقاً فلماذا هو راض باسم عبد السلام. إننا انضممنا لتحقيق مصالح ذاتية وزيادة دخلنا وشهرتنا . فمثلاً محمود درويش وعبد الوهاب البياتي ما كانا سيصبحان شاعرَيْن مشهورَيْن لولا انضمامها للحزب الشيوعي . صحيحٌ أنهما شاعران من الدرجة العاشرة ، ولا يفقهان في الشِّعر الحقيقي شيئاً ، لكنهما استطاعا تحقيق شهرة كبيرة بسبب انتمائهما الحزبي . وكلامهما سيُرسلهما إلى الخلود في النار . وأنا أعرف أن نهايتي إلى جهنم إذا بقيت هكذا ، ولكنني أريد أن أُصبح مشهوراً ، وتكفيني الدنيا ولا شيء سواها . إن الله يُعطي الدنيا لمن يُحب ومن يَكره ، أما الآخرة فلا يُعطيها إلا لمن يُحب .

تعجبت ديالا من هذا الكلام الذي تسمعه لأول مرة من هاني ، وقالت والدهشة تتلاعب بها وتحاصرها من كل الجهات :

_ ماذا تستفيد إذا ربحتَ الدنيا وخسرتَ الآخرة ؟ .

ضحك هاني وطوفان الهواء يتوغل بين فَكَّيه ، وقال :

_ اسألي نفسكِ هذا السؤال ، فأنتِ تقضين حياتك في السُّكر والضياع ، وتمشين على حل شَعْرك. هل تستطيعين أن تمنعي مدير المحطة من التحرش بك ؟ . إنك تبيعين جسدك من أجل المال والشهرة ، وأنا أبيعه من أجل المال والشهرة . أنا وأنتِ حُثالة . لا ينبغي أن نُمَثِّل أدوار الشَّرف والأخلاق . هذه البلاد صارت مقبرتنا، لأننا بعناها لنشتريَ ملابس السباحة لنسائنا على الشطآن العارية ، في هذا الوطن الكل سيحترمكَ ما دمتَ تملك مالاً ، لذلك أنا بعتُ نفسي من أجل المال لكي يَحترمني الناس . أنا أعرف أنني غبي وتافه، وأنني آخر من يُنَظِّر في الأخلاق ، لكنني قرفتُ من نفسي كما قرفت ديانا من تشارلز .

صُدمت بهذا الكلام الذي ضربَ أجزاءها كالإعصار . دارت بها الأرض . ضربتها أمواجُ الذاكرة الخادشة التي لا تَرحم . تناثرت خدودها على الرمال ، حيث يطبع السائحون وقع أحذيتهم الثقيلة . لقد أحسَّت أن مفاصلها قد تشققت أو اندثرت . تفجرت في حلقها مرارةٌ عمياء . أرادت أن ترميَ نفسها في البحر وتبكيَ في القاع ، فلا يرى دموعها إلا السمك أو الرمال . ساد البُقعةَ صمتٌ رهيب . وأطلق الاثنان نظرهما باتجاه الشمس التي بدت وكأنها تسقط في نهايات البحر الشاسعة .

تجمَّعت في زوايا عينيها دموعٌ حَجرية تشبه حجارةَ مذبحٍ تُغتصَب في دهاليزه الراهباتُ البريئاتُ بلا شفقة . لكنها ليست راهبة بأي حال من الأحوال. إنها تمضي في شكوكها حول غاية وجودها . لو كانت بريئة لما أعطت لجسدها لونَ الرمال وعاشت بين شواهد القبور المتحركة التي لا تدل على ديانةِ صاحبها . هذه المرأة خليط من العَبثية والعَدمية ، ولكنْ ما الفرق بينهما ؟ . هي نفسها لا تعرف ، لكنها تمضي في طريق وعر موحش. هي خليطٌ من أفكار شتى . تَذَكَّرت في

طفولتها كيف أن والدها ضربها لأنها ارتدت الحجاب مثل باقي تلميذات صَفِّها . تخيَّلت صورة والدها السِّكير على صفحة الموج وهو يصف ابنته بأنها مُعَقَّدة لأنها ارتدت الحجاب. ما زالت هذه الكلمة ترن في أُذنها ، وهذا جعل منها لا تستسيغ الحجاب. إنها قاتلةٌ وضحية في نفس الوقت .

أما هاني فأخرج من جيبه الأفيون وراح يَشمه تارةً ، ويتذوقه تارةً . نظرت إليه ديالا متسائلة عن طبيعة هذه المادة :

_ ما هذا الذي تشمه وتتذوقه ؟ .

رد هاني بكل ثقة وبدون أدنى خجل :

_ إنه أفيون .

لم تُصَدِّق ديالا هذا الكلام ، وقالت :

_ لا بد أنك تمزح .

_ إنه أفيون ، فأنا لا أمزح في هذه المواضيع .

استجمعت هذه المرأة الوحيدة أمام كل هذه الأمواج قوتها الوهمية ، وقالت بكل وقاحة :

_ أريد أن أُجَرِّب ! .

استغرب هاني من هذا الكلام ، لكنه قال بلهجة الشَّيطان الذي يتقمص دور الممرضة الطيبة :

_ سأجعلك تُجَرِّبين لأنني أحبك ، فأنا وأنت قاتلان ومقتولان في الوقت نفسه، وكلانا ذاهبٌ إلى الدمار الحتمي .

وابتسم ساخراً من نفسه كأنه يستعيد ذكرياتِ كل الأشباح التي مَرَّت على هذا الميناء المهجور. وناول رفيقته الأفيون . لأول مرةٍ تُمسك ديالا بالمخدرات . كان إحساساً مجنوناً عابثاً . تَذَوَّقَتْه فوجدتْ طعمه مُقرِفاً ، فألقته في البحر الذي يرتمي أمامها كالجدائل المنسية على أكتاف غجرية راحلة .

ثار هاني بشراسة منقطعة النظير ، واستولت عليه نوبةُ جنونٍ عارمة ، وبدأ يصب الشتائم الجنسية على رأس ديالا ، وقال بعد أن فَرَّغ ما في جعبته من شتائم :

ـ ما الذي فعلتِه يا ساقطة ؟ .

ردت بكل هدوء أعصاب وبسخرية لاذعة :

ـ لم أفعل شيئاً ، وإذا أردتَ المخدرات فارم نفسك وراءها في البحر إن كنتَ تعرف السباحة .

إنها تعرف أنه يحسن السباحة، ولكنْ أرادت استفزازه بكل ما أُوتيت من حيل. أرادت أن تلعب به مثلما لعب بها في مرات كثيرة ماضية . اشتهت تعذيبَه ليشعر بجزء من الألم الذي تحس به، والذي تسبب به هذا الصديق الخائن من وجهة نظرها. تمقته وتحبه في آن معاً . لقد قلتُ لكم إنها كتلة متناقضات متحركة .

جحظت عيناه بصورة هستيرية ، وأمسك بشَعْرها بشدة بالغة مما سبَّب لها ألماً فظيعاً . وارتمى عليها يضربها على وجهها . تارةً يضربها على خدها الأيمن ، وتارة على الأيسر . ثم بدأ يَنزع عنها ملابسَها . أحست بأنه يريد شيئاً آخر ، فقاومت بضراوة ولكنْ دون فائدة إذ كانت قوتها لا تسعفها على دفعه . أحست ديالا بحاجتها المجنونة والوقحة إلى الجنس . كل تلك الأحاسيس تكالبت عليها في ساعة نحس مستمرة ، فاستسلمت له ولانت أعضاؤها مثل نعجةٍ تُساق إلى المذبح اللذيذ وهي تضحك من كل قلبها لأنها استمرأت الذبح المتواصل . وعضَّها في أماكن حساسة من جسدها الذابح المذبوح ،كأنه يريد التنفيس عن سادية مكتشَفة للتو . أخذ منها كل ما يمكن للرَّجل أن يأخذه من المرأة ، ثم ارتمى إلى جانبها بعد أن خارت قواه . بقيا عَارِيَيْن تماماً على صخرة الجنون اللانهائية . بقيا كذلك لعدة دقائق قبل أن يقوما بارتداء ملابسهما .

ارتدت ديالا ملابسها وعاودت الاستلقاء على تلك الصخرة الشاهدة على العار

والخيانة ، وأغمضت عينيها كأنها تغرق في عُلبةِ سُباتٍ لا قعر لها ، وتكاثرت بعض الدموع الخفية في زوايا عينيها . بدأ ظهرها يؤلمها لأنها كانت مستلقية على صخرة ذات سطح بالغ الخشونة . انطبعت على ظهرها آثار شديدة بعض الشيء كأنها بصمات الشَّاهد على ذلك العمل . وآثار أسنانه الحادة على أجزاء مختلفة من لحمها المقلي باللعاب الكريه. ثم استجمعتْ قواها واقتحمت رملَ هذا الشاطئ حتى وصلتْ إلى البحر ، ورمت نفسها فيه بكامل ثيابها . تسللتْ إلى تفاصيل أعضائها الملوحة واللذة المتكوِّمة . إنها تغتسل لوحدها في هذا الزخم المائي العملاق . كم بحراً أحتاج حتى يغسلني من الخطايا ؟. سألتْ نفسها، لكنها أعرضت عن الإجابة حين أحست بمداعبة الموج لجسدها الممزَّق .

أما هاني فقد انصرف من ذلك المكان مرتدياً كامل ملابسه وهو يشعر بحجم الكارثة التي أقدم عليها . بصراحة كانا يمارسان الجنس لأول مرة في تاريخهما. كان يمشي وهو يبكي بشكل متواصل ويمسح دموعه. اندفع إلى تلك الممارسة بكل شهوة المكبوتين جنسياً . كان يقول في نفسه إنه مجرم ، وكل من حوله مجرمون ، فالحكومة مجرمة، والشعب مجرم لأنه راض بتلك الحكومة التعيسة . هكذا كان يقول. وقد كان يُسَمِّي ما فعله جريمةً، لكنه أراد إيجاد برواز لتبرير فِعْلته .

إنه بِفِعْلته تلك أراد أن ينتقم منها ويذلها . اعتقدَ أنه يُثبت عُلُوَّه عليها وأنها مجرد دمية في يديه يفعل بها ما يشاء ، وهي لا تملك أن تعترض . طوال حياته وهو ينظر إلى المرأة نظرة دونية ، ينظر إليها على أنها حيوان جنسي يجب امتطاؤه وترويضه وقهره ، لدرجة أنه قال لأمه ذات يوم بكل وقاحة إنها ممسحة لحذاء أبيه ، مجرد ممسحة ، وإن المرأة كالحِذاء يستبدله الرَّجلُ إذا ضاق على قدميه . فإذا كان هذا هو تعامله مع أمه ، فكيف سيكون تعامله مع باقي النساء ؟! .

شعرت ديالا أن جسدها مفكَّك ، وأنها صارت تحمل في أحشائها كرةَ نارٍ

تكبر تدريجياً. كل عضوٍ في جسمها صارة كرة نار . عيناها قنبلتان على وشك الانفجار.

حدَّقتْ في السماء بينما هي على الصخرة مستلقية على ظهرها المشقَّق . في ذهنها تتكاثر الخناجرُ التي تمزق وجهها الراكض في التلاشي . تحسستْ وجهَها ففرحتْ أنه لا زال موجوداً . قامت ونفضت الغبار والأتربة عن ثيابها . وسارت على الشَّاطئ وحيدةً كرمال البحر البنفسجية . اختارتْ بقعةً ما وجلستْ وبدأتْ تكتب على رمل الشاطئ هذه العبارة : ((لقد أنقذتُ الكثيرين من الاكتئاب لكني لم أجد أحداً ينقذني منه)) . وما إن فرغت من كتابتها حتى هجم الموجُ على تلك الكتابة وأزالها كأنه يرفضها بكل حزم . إنها كتبتْ تلك العبارة لتجد مخرجاً لها من الأشياء التي ارْتَكَبَتْها . إنها تبحث عن مبرِّر تماماً كما فعل هاني . هكذا قاما بذلك الفِعل ، وراحا يبحثان عن شَمَّاعة يُعَلِّقان عليها ما قاما به. إنهما يرميان على الناس أخطاءهما من أجل أن يستمرا في المشي مثل كل الأشباح التي مرت على الميناء المهجور ثم رحلتْ عنه إلى الأبد .

عاد هاني إلى الحانة التي يملكها والدُه . بدا وجهه غارقاً في شحوب صارخ . لاحظ أبوه منظر وجهه المنزوي ، فقال له :

_ ما بك يا هاني ؟ أأنتَ مريض ؟ .

_ لستُ مريضاً ، لكنني مُتعَب ، وسأدخل لأرتاح .

ومضى الشاب إلى غرفة داخلية يُدخَل إليها من باب منزوي في إحدى زوايا الحانة. دخل إلى الغرفة فرآها خرساء كما تعود أن يراها. شَغَّل المروحة لأن الحرارة كانت عالية كقطعان غزلان طلَّقت المرتفعات المتجمدة وعاشت في الصحاري الملتهبة . ارتمى على السرير ، وزرع رأسه في المخدة كالنَّعامة ، وغرق في بكاء حارق .

بدت الغرفة أضيق مما هي عليه في العادة ، كأن الحيطان تركض نحو حتفها

لتُضَيِّق الخِناق على هذا الشخص الوحيد . مليون حائط يحيط به ولا يوجد أية نافذة يطل من خلالها على موته المتكرر كالشطآن الموبوءة . إنها الحيطان المحتوية على صور كارل ماركس ولينين وغيفارا وهو يُدَخِّن السِّيجار .

وبعد أن أجال بصره في الصور المعلَّقة على الحيطان ، قال في نفسه :

ـ إن ثمن السِّيجار الذي تأخذونه مجاناً من عَرَق العمال كفيلٌ بإطعام عدة أُسر. إنكم تسرقون الفقراء باسم الدفاع عن الفقراء لتعيشوا كالأباطرة في صالات الرقص ، ولتعيش بناتكم كالأميرات في مسابح الخيانة الزوجية . إنكم تركبون سيارات فارهة ، وتسكنون في القصور المسيَّجة بمئات الحراس ، وتوزعون طاقتكم الجنسية بين زوجاتكم وعشيقاتكم ، وتُدَخِّنون ، وتشربون الويسكي مرتفع الثمن . وبعد كل هذا تسمون أنفسكم مدافعين عن الفقراء والعمال .

والتفتَ يمنةً فرأى زجاجة كُنياك موضوعة إلى جانب السرير ، فأمسكَ بها ورماها على برواز صورة ماركس ، فانكسر الزجاج وتساقط على الأرض مُحدِثاً ضجة سمعها أبوه ، مما جعله يأتي مسرعاً ليرى ماذا يحدث .

جاء الأب والخوف يأسر ملامحه بكل عنف ، فقد كان صوت تكسر الزجاج عالياً ومزعجاً . وعندما رأى الأب الزجاج المتناثر على الأرض سأل ابنه :

ـ ماذا حدث يا هاني ؟ .

ـ لا شيء يا أبي ، لكن زجاج البرواز انكسر .

ـ وكيف انكسر ؟! .

قال هاني بلهجة الشخص الذي يريد أن يُنهيَ الحوار سريعاً :

ـ أرجوك يا أبي ، إنني مُتعَب لدرجة جنونية ، ولا طاقة لي بالحوار .

وأردف قائلاً :

ـ وبالنسبة للزجاج فالآن سوف ألمه ، وأرميه في القمامة .

وانتهى الحوار سريعاً مثل كل الأشياء التي تذهب إلى النهايات الصاعقة . وما

إن فرغ هاني من كلامه حتى سمع أبوه أحدَ الزبائن يطلب مشروباً ، فذهب لكي يُقدِّم له حاجته . أما هاني فدخل الحمَّام لكي يغتسل . فتح الدوش فنزل الماء البارد الذي يقضم جِلْده بالمناشير . حتى الماء في هذا المكان يخنقه ويُحاصِره . هكذا كان شعوره النازل مع كل قطرة ماء تلمس جِلْده وتحرقه بالذكريات المحمَّلة في أكياس تنقلها القطارات الذاهبة إلى الاصطدام .

٤

كان يعقوب بنيامين اليهودي يُكَنِّس الرصيفَ الذي أمام مخبزه، فقد تراكم عليه كثيرٌ من الأغبرة والركام بفعل الحرب الماضية . وعندما انتهى من عملية التكنيس دخل إلى المخبز الذي كان مُرَتَّباً ونظيفاً . وقد كان هذا المحل في أحد الأزقة الضيقة مما جعله يَسلم من القصف . وعلى الرغم من شح المواد الغذائية في هذا الوقت بسبب خروج البلاد من الحرب ، إلا أن يعقوب كان على علاقة بأحد المسؤولين الحكوميين الذين كان يُهَرِّب له بعض أكياس الطحين مقابل سعر مضاعَف .

دخلت امرأةٌ في العقد الثالث من العمر ترتدي زياً غريباً . إنه زي الراهبات ، وهذه المرأة هي الآنسة جودي ، وهي راهبةٌ تقطن في الدَّير المجاور . مَن يراها يظنها قادمةً من أوروبا بسبب زرقة عينيها وقسمات وجهها الذي يُشبه وجوه السَّائحات الأوروبيات اللواتي يزرن هذا المكان . وبعض الناس يقولون إنها من أصول يونانية ، لكنني لستُ أعلم من أين حصلوا على هذه المعلومة . كانت تُغَطِّي شَعْرها بشكل كامل ، وترتدي ثياباً نظيفة للغاية وساترة لجسمها . أما الجوارب فكانت بيضاء . وحذاؤها مُلَمَّعٌ بشكل جيد ، ولم يتأثر بالركام المتناثر في الأرجاء ، وهذا يدل على أنها كانت تمشي بحذر . كان على صدرها صليبٌ ذهبي ثقيل وكبير الحجم ، وكان حزنها اكتئابَ قطار بخاري .

تقدمت الآنسةُ جودي بخطى متثاقلة ، وقالت مخاطبةً الخبَّاز يعقوب :

ـ لو سمحتَ أريد خبزاً بهذه النقود .

ومدت يدها لتناوِل النقودَ للخبَّاز ، مما جعل الخبَّاز يمد يده ليأخذ تلك النقود ، وقد قصد أن يشد على يدها بصورة تحمل كل معاني الشهوة والوقاحة في آن معاً . ناولَتْه النقودَ ، وسحبتْ يدها مباشرةً كأن ناراً قد مستها على حين غرة .

جحظت عينا يعقوب كأنهما قفزتا من محجرَيْهما ، وقال موغلاً في وقاحته :

ـ ما أجمل صدركِ لولا الصليب!، ولكنْ يا خسارة إنه بعيد عن أيدي الرِّجال.

ارتبكت الراهبةُ ، وبدأ جبينها يتفصد عَرَ قاً ، والتهمها خجلٌ مُحرِق ، لكنها استجمعت أمرها ، وقالت بلهجة فيها حدة :

ـ أعطني الخبزَ لئلا ألم عليك الناسَ يا عديم الشَّرف .

أجاب الخبَّاز ساخراً :

ـ الناس ! ، أين الناس ؟ . لقد ماتوا في الحرب ولم يبق إلا أنا وأنتِ .

وحينما سمعت الراهبةُ هذا الكلامَ استشاطت غضباً، وهمَّت بالخروج من المخبز لكن الخبَّاز استوقفها قائلاً :

ـ لا تغضبي مني ، لقد كنتُ أمزح معكِ ، وها هو الخبز على أية حال .

وما إن خرجتْ حتى انهمك الخبَّاز في ضحك من نوع خاص ، ضحك يُراد منه السخرية من الآخرين، وإثبات التفوق على الناس، وقال في نفسه المتكورة على غرورها وبعد أن بلع ريقه :

ـ سوف نصلبكم كما صَلَبْنا إلهكم على الخشبة ! .

أخذت الخبزَ وانطلقت مُسرعةً . كانت على أُهبة البكاء ، ولولا وجودها في الشَّارع لأجهشت بالبكاء ، لكنها تمالكت نفسها حتى وصلت الدَّير ، وركضت إلى غرفتها ، وأغلقت الباب ، ثم انفجرت باكيةً .

كانت تبكي بحرقة تماثل حرقة زهرةٍ مسحوقة تحت أقدام الجنود العائدين من الهزيمة . في جبينها تتكاثر النباتات السامة وعلى يديها تبكي الحيطان التي يخرج

منها جرذان الحزن والضجر . نظرت في المرآة . تحسست جسدَها حَجَراً حجراً . أنوثتها تذبل تدريجياً حتى صارت أعضاؤها كالحجارة التي لا يتفجر منها الماءُ ولا الأحلامُ . أخرجت من جيبها منديلاً ومسحت دموعها . لاحظت بقايا الكحل وقد هبطت على منديلها .

_ لماذا أضعُ الكحلَ ولمن أضعه ؟ .

سألتْ نفسها هذا السؤال وألقته في قاع حلمها اليابس .

وضعتْ يدها على بطنها وتمنت لو أنها تصير أُماً لأطفال كثيرين يقفزون حولها ويتسلقون أكتافها واحداً تلو الآخر ، وتسمع منهم لفظة ماما . إنها أمنية مستحيلة. ولكنْ لماذا هي مستحيلة ؟. لقد هربت من الإجابة على هذا السؤال والتحفت الصمتَ الرهيب .

قالت الراهبة كاترين لأختها الراهبة لارا :

_ كأنني رأيتُ جودي وهي تبكي قبل أن تدخل غرفتها .

_ هل أنتِ متأكدة ؟ .

_ أنا شبه متأكدة .

_ فلنقم إليها ونعرف ما القصة .

ذهبت الراهبتان إلى تلك الغرفة التي تحتل جسد جودي وتحاصره من كل الجهات . قرعت إحداهن البابَ ففُتح البابُ . وظهرت جودي بشكل يحاول أن يتقمص الصلابة والتماسك ، لكنَّ عينيها كانتا تلمعان بشدة بسبب الدمع الذي تَجَمَّع فيهما ، مما جعل أمرها مكشوفاً أمام هاتين الراهبتين .

قال لارا وعلاماتُ التألم بادية على جوانحها :

_ لماذا كنتِ تبكين ؟ .

_ الأمر ليس مهماً . إنها مسألة شخصية وقد انتهت .

وأردفت قائلة :

_ وإن كنتما تحبانني فانسيا الموضوع لأنه تافه ، وأنا أريد أن أنساه .

حاولت جودي أن تُبَسِّط الأمر ظاهرياً لئلا يتسبب ذلك بمزيد من الألم والخوف لدى تلك الراهبتين. وبالفعل فقد تناسى الجميع هذا الأمر نزولاً عند رغبة جودي . وتَقَمَّصت جودي النسيانَ مع أنها كانت تحترق في داخلها ، لأنها لم تتعود على تلك الألفاظ الجنسية التي تَلَفَّظ بها ذلك الخبَّاز الوقح . هكذا كانت تُسَمِّيه جودي في قرارة نفسها .

قالت كاترين وهي تحاول أن تنقل الموضوع من جهة إلى أخرى :

_ هل تسمحين لنا أن ندخل غرفتك لنلعب الشطرنج ؟ .

ردت جودي وقد تهلَّلت أساريرُها :

_ بكل سرور .

بصراحة لم تكن كاترين لاعبة جيدة في الشطرنج ، لكنها حاولت إحداث جو من البهجة على هذا المكان الكئيب الموغل في الأحزان المتجددة والمتوالدة كالفئران التي تظهر أحياناً في سراديب هذا الدَّير المظلمة، وأيضاً هي تعلم مقدار حب جودي للشطرنج وإتقانها لهذه اللعبة .

دخلت الراهبتان وعليهما مسحةُ بهجة منقوعة في سوائل الحزن الغامض . ذهبت كاترين إلى المرآة ، ووضعت قليلاً من أحمر الشفاه بصورة حمقاء فوضوية ، وقالت لرفيقتيها ساخرة :

_ انظرا كيف أصبحتُ نجمة سينمائية .

ضحكت جودي ولارا ضحكاً متواصلاً نابعاً من قلبين جريحين في هذا المدى الرَّصاصي . ووضعت جودي يدها اليمنى على فمها لتكبح هذا الضحك الذي لم تضحك مثله منذ مدة بعيدة . أما لارا فلم تستطع أن تتوقف عن الضحك ، لكنها زرعت في خضم ضحكتها المدوية سؤالاً مصبوغاً بالضحك ، حيث قالت مخاطبةً جودي :

ـ من أين جئتِ بأحمر الشفاه ؟! .

وتدخلت حينئذ كاترين ، وألقت سؤالها الشخصي الذي بدا وكأنه يُعَزِّز سؤالَ رفيقتها :

ـ ومن أين جئتِ بعلبة المكياج هذه ؟! .

كان هذان السؤالان البريئان يُلَخِّصان حجم الألم الذي تعيشه هؤلاء النسوة . إنهن غارقات في علبة المكياج تلك والتي تَختصر تاريخاً حاشداً من الأنوثة المقموعة بخنجر العزلة المتكور على ذاته . إنهما سؤالان من نوع خاص ، نوع ينقلكَ من أناشيد الرعاة المصادَرة إلى أنوثة السنبلة التي لا تعرف أنها سنبلة تحتاج إلى يد الريح الدافئة من أجل أن يربت الشتاءُ على أكتاف الحزن القادم من شقوق الجدران المتكاثرة مثل الرايات البيضاء للجيوش المهزومة .

قالت جودي وقد قطعت مسلسل عنفوان ضحكها :

ـ لقد طلبتُ من أختي التي تدرس في الجامعة أن تُحضِر لي هذه العلبة من العاصمة .

قالت لارا مندهشة :

ـ وكيف أدخلتِها إلى هنا دون أن تراك تيريز وعايدة ؟! .

ـ لقد وضعتُها في كيس أسود مع بعض الحاجيات .

ـ يا لكِ من ماكرة ! .

وعادت الراهباتُ إلى الضحك مرةً أخرى . إن الضحك ينبعث من كل أعضائهن ، ويكسر الأقنعةَ الرِّجالية التي ترتديها هؤلاء النسوة المتنكرات لأنوثتهن. هؤلاء النسوة الصاعدات من ذكريات القش في الإسطبلات المهجورة كما الميناء الذي يعيش فيه الناسُ ويموتون فيه . على هامش الذكريات المنسية يعيشون ، ويتيهون ، ويقمعون عواطفهم ، ويموتون . هكذا بكل بساطة يحيون ويميتون ، لكن حياتهم إحدى أشكال الموت . لا أحد يذكرهم سوى الغبار على المكتب الشاهد

على انتحار الكاتب الذي جلس عليه في الماضي المستقبلي .

أما تيريز وعايدة فهما راهبتان كبيرتان في السن تجاوزتا الخمسين بقليل . إن وجهيهما مملكة التجاعيد القاسية . أعضاؤهما يابسةٌ كالخوخ الساقط على التراب ، والذي لم يجد أحداً يقطفه . إنهما قتيلتان ما زالتا تمشيان لأنهما لم تجدا حفار قبور محترف يدفن الموتى الذين يسيرون بيننا ، ويسلبون منا أحلام الفراشات الضوئية المهاجرة إلى أظافر التراب . في بعض الأحيان يحتاج البشر إلى حفار قبور موهوب لكي يدركوا مذاق الحياة القادمة من شقوق سور المقبرة المنخفض .

ويمكن أن نقول إن الدَّير كان فيه تياران ، تيار يمثل الحرس القديم مكوَّن من تيريز وعايدة ، وتيار يمثل الحرس الجديد مكوَّن من جودي وكاترين ولارا . إنه صراع أجيال شرس يتدفق في كل أنظمة الحزن التي تعشعش في زوايا الوجوه المتآكلة كالضوء المهرول نحو الانطفاء .

جهَّزت إحداهن رقعة الشطرنج واضعةً إياها على السرير . وتمركزت جودي ولارا بشكل متقابِل ، حيث جلستا على الأرض بينما كانت الرقعة على السرير ، وراحتا تلعبان بكل شراهة . أما كاترين صاحبة الفكرة فراحت تذرع الغرفة عرضاً وطولاً. وأحياناً تُقَلِّب الأشياء التي تجدها هنا أو هناك . استقرت أمام مكتب جودي الخشبي . كان يعلوه رف طويل عليه كتب عديدة ، كتب بالعربية والإنجليزية والفرنسية واليونانية . بدأت تتناول كتاباً إثر كتاب ، وتتصفحه بشكل سريع ، فهي تجيد هذه اللغات الأربع شأنها شأن كل الراهبات في هذا الدَّير . وبينما هي منهمكة في التصفح وقع في يدها كتابٌ بالعربية من نوع خاص . صعقها عنوانُه بشدة . كان العنوان " رسائل الإمام الشهيد حسن البنا " . ارتبكت أيما ارتباك ، وراحت تُقَلِّب صفحاته بهدوء كأنها تحاول أن تمتص الحِبر المزروع في الورق ، وتستنشق الكلام كلمةً كلمة . كانت زميلتاها مشغولتين باللعب فلم تلاحظا دهشةَ كاترين وانزعاجها من الأمر . إنه الهدوء المخيف يتفشى في ذرات

الأكسجين التي تسيطر على الأرجاء . وفجأة صاحت جودي ناسفةً كل هذا السكون المرعِب :

_ لقد فزتُ .. لقد فزتُ .

وأردفت قائلة :

_ تعالي يا كاترين لتشاهدي هزيمة لارا .

لم تجب كاترين لأنها عائشة في عالَم آخر بعيد عن هذه الحجرة ، وغارقة في قراءة ذلك الكتاب الذي صعقها عنوانُه . لاحظت جودي ولارا ذهول كاترين فقالتا بصوت واحد كأنهما قد اتفقتا على صيغة الكلام :

_ ماذا هناك يا كاترين ؟ .

قالت كاترين وقد تغير لونُ وجهها الذي يلهث في مدارات الخيبة :

_ مِن أين لكِ هذا الكتاب ؟ .

ردت جودي وهي مقتنعة أن الأمر لا يستحق كل هذا الاستغراب :

_ أي كتاب تقصدين ؟ .

قالت كاترين وهي تمط الكلام مطاً يدل على الاستهزاء والدهشة في آن معاً :

_ رسائل الإمام الشهيد حسن البنا .

وما إن سمعت جودي هذا الكلام حتى بدا عليها الارتباكُ ، فبلعت ريقها في محاولة منها لامتصاص هذا الارتباك الطفيف الذي طرأ عليها ، وقالت :

_ بصراحة ، لقد أهداه إلي شاب مُسْلِم اسمه زياد خضر ، وقد كتب اسمه في أعلى الصفحة الأولى من الكتاب .

وهنا تدخلت لارا مستنكرةً هذا الكلام :

_ ومنذ متى تتلقين هدايا من شاب ومُسْلِم أيضاً ؟! .

_ لقد ألح عليَّ أن آخذه ، و...

وهنا سكتت جودي لتزيد حدة التشويق الذي تُبعثره في الأرجاء وتنثره بلا

رحمة على رأسَيْ زميلتيها ، لكن الفضول القاتِل انسكب دفعة واحدة في عيون كاترين ، وقالت واللهفة تحتلها :

_ وماذا أيضاً ؟ أكملي بسرعة ! .

بلعت جودي ريقها للمرة الثانية ، وقالت وقد تطاول عنقُها بصورة واضحة ومقصودة :

_ لقد طلب مني موعداً على الشَّاطئ لكنني رفضتُ .

وساد الحجرةَ صمتٌ مرعِب ، صمت يتداخل في أجزاء هذه الحيطان المتكاثرة بلا هوادة . شعرت جودي بعد هذا الكلام أن جبلاً كان على كتفيها لكنها ألقَتْه على أكتاف الآخرين . كل العيون المتسمرة في ذلك المكان كانت تلمع. كأن لمعانها قطعان غزلان تعدو نحو السكاكين والمنحدرات الوعرة والنسيان الحاسم .

قالت كاترين وقد تكومت في جبينها غاباتٌ من الغيرة والدهشة والحقد :

_ لا بد أنك تمزحين ، مؤكَّد أنك تمزحين .

وأقحمت لارا نفسها في الحوار قائلة :

_ نعم ، إنك تمزحين .

نفشت جودي ريشها فخورةً بما تفعل ، وقالت :

_ لا أطلب منكما أن تصدقاني ، لأن الموضوع كان سراً أطلعتكما عليه لكونكما صديقتاي . وعلى أية حال لقد رفضتُ ذلك الموعد ، وانتهى الأمر .

كان الجميع بحاجة إلى نسيان هذا الكلام لأنه مرعِب من جهة نظر هؤلاء الراهبات. كلهن يَعْلمن أنهن سائرات في درب مضاد للعلاقات مع الرجال أو الحب أو الزواج . هذه مفردات محذوفة من قاموسهن الذي يخترعه الألم الطالع من زوايا سراديب الدَّير المعتمة ، من منعطفات مفاصلهن المختبئة داخل جلود رقيقة ، ودماءٍ ليست زرقاء بأية حال من الأحوال. لقد اقتربت الجدرانُ شيئاً فشيئاً

من هذه العتمة الصاعقة . كان هناك في الجهة المقابِلة لعيونهن الخرساء نافذة تطل على حديقة يبدو أنها تعيش خريفها مبكراً بعد الشيء مع أننا في فصل الصيف . يخترق الحجرةَ ضوءٌ رصاصي قادم من أشجار الصنوبر الحبلى بالدماء بلا أجنة . إنها تلد سكوتاً رهيباً في كنف كل هذا الحرمان الممتد كالخناجر القديمة التي تُشَرِّح جسدَ شاعرٍ مجهول قبيل اغتيال قصائده .

قالت كاترين مخاطبةً لارا :

_ لنترك جودي لوحدها ، ونذهب للقيام ببعض الأعمال .

_ كما تشائين .

وانطلقتا مثل جرادتين مستحمتين بالسموم المتوحشة . خرجتا من الحجرة دون أن تنبس جودي ببنت شفة . كان الوجوم يتسلق أقدامهما وهما تسرعان نحو الباب الذي ظهر أضيق مما هو عليه في الواقع . كل شيء يضيق في هذا المكان المنقوع في قارورة الحزن المفترِس .

نظرت جودي في الأشياء التي تحيط بها . حدَّقتْ في أحجار الشطرنج ، وغرقت في ثنائية الأبيض والأسود . داهمها خاطرٌ سريع لماذا لا توجد حجارة شطرنج إلا بهذين اللونين ؟ . لم تعرف الإجابة . استفزها عدمُ تمكنها من الإجابة ، فغضبتْ وألقت حجارة الشطرنج على الأرض . ثم ذهبتْ إلى الباب وأغلقَتْه بالمفتاح ، وتوجَّهت إلى المرآة . زرعتْ نظراتها في جسد المرآة خناجر ، خلعتْ غطاءَ رأسها وألقَتْه على السرير . نزعت الصليبَ ووضعته إلى جانب علبة المكياج . بدأت تنزع ملابسها قطعةً قطعةً حتى أضحت عاريةً تماماً أمام المرآة. وراحت تتحسس أعضاءها حجراً حجراً . انفجرت باكيةً بصورة درامية ، فركضت نحو سريرها ، واستلقت عليه ، وتغطَّت باللحاف الأملس . كان اللحاف يغطي كامل جسمها من رأسها حتى أخمص قدميها . علا النشيج من تلك الكومة اللحمية المصلوبة على ذلك السرير المعدني . إن دموعها تتصاعد من قاع السرير ، من

أعمق نقطة تحت ملمس اللحاف، حيث يتوحد الجسد العاري مع الرغبة المتفجرة من عظام الحيطان المدهونة جيداً . إنها الآن في أقصى عويل الدموع التي لا ترحم .

كان بابُ الدَّير الرئيسي يُقرَع بشدة ، بحيث صار الصوت الناتج عن القرع المتواصل بالغ الإزعاج والقرف . وقد أدى ذلك الصوت المزعِج إلى تعكر مزاج الراهبة تيريز حيث كانت تقرأ في إنجيل برنابا الذي لا تعترف به الكنيسة ، ولكن كل ممنوع مرغوب . تَأَفَّفتْ بصورة مثيرة للكآبة وقالت لعايدة التي كانت تستمع إلى المذياع :

_ اذهبي وافتحي الباب لنرى من هذا الشخص اللطيف الذي يقرع الباب بكل أدب ! .

وطبعاً كان كلامها يحمل كل معاني السخرية والاستهزاء ، وكل التفاصيل المرة للكوميديا السوداء التي تحتل كلماتِها .

كانت تيريز امرأة قاسية الملامح ، متجهمة على الدوام ، عيناها كأنهما جمرتان على سطح تفاحة تحترق اكتئاباً . أما عايدة فكانت تعابيرها تكشف سذاجتها وضعف شخصيتها ، والنظارة السميكة التي تضعها على عينيها الذابلتين زادتها سذاجةً إلى سذاجتها ، وهي منصاعة لأوامر تيريز . فما تقوله تيريز يُعتبَر كلاماً مقدساً بالنسبة لعايدة ، وهذه الأخيرة عليها أن ترضخ للأوامر دون مناقشة .

ذهبت عايدة وقد تركت المذياعَ يعمل ، وكلما اقتربت من الباب شعرت أكثر فأكثر بهذا الصوت المزعج ، وهي تتساءل في نفسها : من هذا الذي يقرع الباب بهذا الجنون ؟ . فتحت البابَ فإذا به أسعد بشَعره المنكوش الذي يصل إلى منكبيه ، ولحيته الطويلة جداً والمتروكة بدون تهذيب، وثيابه المرقعة ، وعصاه الهالكة التي يتوكأ عليها ، وحذائه الرياضي الممزَّق ذي الألوان المختلفة ، ففي قدمه اليمنى حذاء ذو لون أخضر ، وفي قدمه اليسرى حذاء ذو لون أزرق .

قالت عايدة وقد خف منسوبُ حنقها وقرفها بسبب القرعِ المتواصِل حين رأت أسعد بهذه الهيئة التي يُرثَى لها :

ـ ماذا تريد يا أسعد ؟ .

رد أسعد وكأنه يستخرج الكلماتِ من قعر بئر سحيقة :

ـ أريد .. أريد جودي .

ـ جودي غير موجودة هنا ، عُدْ في وقت آخر .

ـ لقد .. لقد رأيتُها .. لقد رأيتُها تَدخل .

ردت عايدة وقد ملَّتْ من هذا الحوار السقيم :

ـ انتظرني حتى أُحضرها لكَ .

أغلقت البابَ في وجه أسعد ، ومضت إلى الداخل باتجاه غرفة جودي ، لكن تيريز استوقفتها قائلة :

ـ مَن بالباب ؟ .

ـ إنه أسعد المخبول .

ـ وماذا يريد ؟ .

ـ يريد جودي .

تأففت تيريز لتُعَبِّر عن عدم رضاها وقالت في نفسها إن الطيور على أشكالها تقع .

وصلت عايدة إلى غرفة جودي . قرعت البابَ بسرعة ، فتدفق الصوتُ إلى أُذن جودي ، فقدكانت نصف نائمة . كشفت اللحافَ عن وجهها ، وقالت :

ـ من هناك ؟ .

ـ أنا عايدة .. افتحي يا جودي .. أسعد يريدك .

نهضت جودي وقد نفضت النعاس عن عينيها ، وحاولت أن تخفيَ أية آثار للدموع التي تفجرت في عينيها قبل وقت بسيط . لاحظتْ أنها تسير عاريةً تماماً ،

فبدأت بارتداء ملابسها بعصبية وارتباك بالغَيْن . اقتربتْ من المرآة ، وفكرت أن تُخفيَ علبة المكياج لئلا تراه عايدة فتخبر تيريز ، وتخترع هذه الأخيرةُ مشكلة لا أول لها ولا آخر . احتارت أين تضع تلك العلبة التي صارت أشبه بتابوت يمتصها رويداً ، وفي زحمة ارتباكها ارتطمت يدها بعلبة المكياج فانزاحت باتجاه الصليب وأزاحته ، وسقط في سلة المهملات الموضوعة على الأرض إلى جانب المرآة ، لكنها لم تنتبه إلى هذا الأمر ، فسقوط الصليب لم يُحدِث ضجيجاً لأن وقع على كومة أوراق وأشياء أخرى امتصت صوت الارتطام حتى الرمق الأخير .

فتحت جودي بابَ حجرتها فلم تر عايدة ، إذا أنها طرقت البابَ وانصرفت . مضت جودي إلى باب الدَّير ، وقد اغتاظت تيريز لأن جودي أثناء مرورها لم ترد عليها التحية . فتحت البابَ فوجدت أسعد يجلس القرفصاء وهو يُحَدِّق في السماء بصورة تجعل كل من يراه يتأكد أنه أبله . أشفقتْ عليه وقالت :

_ لماذا تجلس هكذا يا أسعد ؟ .

_ إنني أنتظر القطار ! .

ضحكت جودي بملء فمها من هذا الكلام المجنون ، إذ إن هذه البلدة برمتها لا يوجد فيها قطار ، ولستُ أدري من أين جاء بلفظة "القطار" . وضحك أسعد لما رأى ضحكة جودي المجلجلة . وبعد انتهاء جرعة الضحك هذه قالت له :

_ ماذا تريد يا أسعد ؟ .

وما إن سمع هذا الكلام حتى هبَّ واقفاً على قدميه قائلاً :

_ أريد رغيفين .

_ لماذا تريد رغيفين ؟ .

_ واحدٌ لي ، وواحدٌ لقطتي التي ماتت ! .

_ سأعطيك رغيفاً واحداً فقط .

وأسرعت جودي إلى الداخل ، وأحضرتْ رغيف خبز ، وبينما هي مسرعة نحو

الباب سألتها تيريز بخبث :

ـ لمن هذا الرغيف ؟ .

ـ إنه لأسعد المسكين .

ردت تيريز وملامحها تركض في التوحش والغضب :

ـ وهل من وظيفة الكنيسة أن تصرف على هؤلاء المجانين وتطعمهم مجاناً ؟! . أعيدي الرغيف إلى الداخل .

قالت جودي وهي تزداد احتقاراً لكلام تيريز وتمسكاً بهذا العمل :

ـ لن أعيده ، وسأُعطيه إياه .

ومضت نحو الباب ، وبالفعل ناولَتْه الرغيف قائلة :

ـ اعتنِ بنفسك جيداً يا أسعد .

وانطلق أسعد فرحاً بهذا الرغيف . صار يقضمه كأنه يريد الوصول إلى أقصى لحظات اللذة والنشوة . إنه يقضم رائحته ومذاقه وكل شيء فيه. منظره وهو يمشي يثير البكاء والضحك في آن معاً . كان يمشي صارخاً في هذا الفضاء :

ـ يا وطني المقبرة . اقتلني وانْهِ لعبةَ المطارَدة . لا أخضع لشروطك ، ولا تخضع لشروطي . نحن قتيلان لأن اللصوص سرقوا الحياة من وجهينا . إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ .

وغرق في البكاءِ بعد أن ألقى هذه العبارات في الفضاء الأرجواني الملوَّث بالقنابل التي لم تنفجر ، وبذكريات الضحايا ، والعناصرِ السامة المنبعثة من الأسلحة المتطورة . ويقطع بكاءَه بصراخٍ جديد كأنه ينادي على مجرة بعيدة راحلة إلى قبرها الكوني السحيق :

ـ اللهم حَرِّمْ جسدي على نار الدنيا والآخرة . اللهم حَرِّمْ جسدي على نساء الدنيا .

ويغرق من جديد في البكاء ، بكاء ينقله من نشوة الحزن المعتَّق كأصوات

الضحايا إلى يوميات خنجر يصير آخر الليل فراشةً لا لون لها سوى الركام . هذه هي حياة أسعد . وبصراحة لستُ أعرف كيف أصفها بدقة . إنه رَجُل غارق في دموعه وضحكه ، يبكي بلا سبب ، ويضحك بلا سبب .

وقد انقسم الناسُ بشأنه . طائفةٌ منهم تقول إنه مجنون ، وطائفة تقول إنه أحد أولياء الله المجاذيب ، وطائفة تقول إنه مُخبِر يُمَثِّل دور المجنون ليحصل على المعلومات . وتكاثرت الحكايا والقصص حوله حتى صار حكايةً شعبية يتداولها الناسُ في مخادعهم ومجالسهم العامة وأعراسهم وأتراحهم . وكل قصة تُوَلِّد قصةً جديدة . فالذين يقولون إنه مجنون اختلفوا في سبب جنونه ، فمنهم من يقول إنه كان أستاذ جامعة مُعارِضاً للحكومة فتم اعتقاله وتعذيبه حتى فقد عقلُه ، ومنهم من يقول إنه كان رجل أعمال وقد اكتشف أن زوجته تخونه مع السائق ففقد عقلُه منذ ذلك الحين . والذين يقولون إنه أحد أولياء الله المجاذيب لهم في ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من يقول إنه كان يعرف الاسم الأعظم لكنه لم يستطع تحمل أنواره فجُذِب . ومنهم من يقول إنه كان يُعطِي دروساً للجن ويتعامل معهم لكنه لم يتمكن في اللحظة الأخيرة من السيطرة عليهم فأصابه مس وصار مجذوباً . ولستُ أدري ما علاقة المس بالجذب . ومنهم من يقول إنه شيخ صوفي ظهرت على يديه كرامات خارقة فجُذِب من شدة تلك الكرامات . والذين يقولون إنه مُخبِر اختلفوا في تحليلهم لهذه الحالة ، فطائفة تقول إنه عميل للمخابرات ، وطائفة تقول إنه عميل للاستخبارات العسكرية ، وطائفة تقول إنه عميل لمخابرات دولة شقيقة ، وطائفة تقول إنه عميل للموساد . وبصراحة أنا لا أعرف حقيقة هذا الرَّجل لأن الناس يريدون قصةً لكي يظلوا يزيدون ويُنقصون فيها على مزاجهم ، ولكي تصير حكاية ينسجونها على هواهم . حتى إن بعض الأمهات صرن يُخَوِّفْنَ أبناءهن قبل النوم فَيَقُلْنَ لهم إن أسعد سوف يأتي إذا لم تناموا . وما إن يسمع الأطفال كلمة "أسعد" حتى يتدثروا باللحاف خوفاً ، وحتى الأطفال الذين لا يريدون النوم يُمَثِّلون

دور النائم خوفاً من أن يأتيَ أسعد. وفي واقع الأمر لقد صار أسطورةً حيةً في هذه البلدة، والناس يعرفونه في هذا المكان أكثر من معرفتهم لرئيس الدولة أو رئيس الوزراء . لقد صار مشهوراً هذا الأسعد، وما زال الناس حتى يومنا الحاضر يخترعون القصص حول أسعد وحقيقة أمره .

وهناك في الدَّير كانت صوتُ تيريز عالياً وهي تصيح على جودي وتُوَبِّخها بسبب ذلك الرغيف الذي صار قضيةً عالميةً لا يمكن تجاوزها في تلك البقعة السوداء المحاصَرة . بدأت تيريز تصب الشتائمَ القاسية على رأس جودي ، وباقي الراهبات يقفن متفرجات وخائفات من كبح جماح تيريز . مضت جودي إلى غرفتها دون أن تنبس ببنت شفة أو ترد على تلك الشتائم المؤلمة ، وهذا الأمر أغاظ تيريزَ بشكل صاعق فارتفعت عقيرتها بالسباب والشتم أكثر من ذي قبل ، خاصة بعد أن أغلقت جودي بابَ حجرتها بقوة مبالغ فيها ، ربما كان هذا احتجاجها الوحيد على سلوك تيريز . والتفتت تيريز نحو الراهبات المتسمرات في أماكنهن ، فصرخت في وجوههن قائلةً :

ـ إلى ماذا تَنْظُرْنَ ؟ .. لتذهبْ كل واحدة منكن إلى عملها .

وما إن فرغت من هذا الكلام حتى تبعثر شمل الراهبات وتفرقن ، كل واحدة ذهبت في ناحية ما ، فالتي لديها عمل ذهبت لإكماله ، والتالي لا عمل عندها في تلك الساعة اخترعت عملاً وذهبت كي تغوص فيه ، المهم أن لا تقع نظرات تيريز الحادة على واحدة منهن .

كان ذلك الدَّير الموحش مجاوِراً لكنيسة مهجورة صغيرة الحجم ، تَهَدَّمت أجزاء كثيرة منها بفعل القصف الجوي أيام الحرب . وقد كانت هذه الكنيسة في السابق مسجداً إلا أن الفاتيكان ضغط على الحكومة من أجل تحويلها إلى كنيسة لقاء مساعدات مالية إضافية لإقامة توازن طائفي في هذا الميناء الحيوي ، وتشكيل مركز ثقل ديني مُكَوَّن من الكنيسة والدَّير . فالدَّير كان موجوداً منذ زمن بعيد ،

وعندما حاول المجلس الكنسي شراء الأرض التي بجانبه لإقامة كنيسة رفض المالكون بيع الأرض ، مما اضطر المجلس لمخاطبة جهات خارجية منها الفاتيكان الذي قام بلعبته المعهودة (الجزرة أو العصا) بكل احتراف . وقد عارض السكان تحويل مسجدهم إلى كنيسة إلا أن القرار نُفِّذ تحت حراسة مشددة . ولقد نشب بعد ذلك كثير من أحداث العنف ، إلا أن المخفر المحلي كان يتأخر في التدخل عمداً من أجل ابتزاز الكنيسة الغربية والحصول على أموال إضافية . وبصراحة فقد خطَّطت الحكومةُ لضرب السكان المحليين في هذا المكان وتفريقهم وفق نظرية فَرِّقْ تَسُدْ ، فهذه البقعة كانت معقلاً للمعارضة الإسلامية ، فأرادت الحكومة شغل الناس بالنعرات العنصرية والخلافات الدينية كي تسهل تفتيت هذه البُقعة والسيطرة عليها وإخماد المعارَضة بعد تحميلها المسؤولية أمام الرأي العام الداخلي والخارجي، خصوصاً بعدما نجحت المعارضة في تقليص نفوذ الحزب الحاكم في البرلمان رغم كل التزوير الذي قامت به الحكومة في وضح النهار.

وقامت الحكومة بحرق كنيسة وإصدار بيان مزيف عن تنظيم إسلامي يتبنى العملية لضرب السكان وتصوير الحكومة للغرب تكافح الإرهاب لتبتز الغرب وتأخذ فلوساً

وبالنسبة لراعي الكنيسة الأب إدوارد خزيم فقد تم طرده من قبل المجلس الكنسي الأعلى وذلك بعدما ثبت تحرشه جنسياً بالأطفال والنساء اللواتي يأتين من أجل الاعتراف ، وقد ثبت عليه أنه كان ينظر إلى الراهبات وهنَّ يُغَيِّرْنَ ملابسهن بواسطة منظار مُرَكَّز في برج الكنيسة الذي كان مئذنة يوماً من الأيام . وقد اكتشفت أمره الراهبةُ جودي بينما كانت على سطح الدَّير تُنَظِّفه بالمكنسة الخشبية الأثرية . وما زاد الطين بِلة أن الأب إدوارد خزيم كان يؤجر قبو الكنيسة لبعض السياح الذين ينتمون لعبدة الشيطان حيث يمارسون فيه طقوسهم . فصار القبو أشبه بجمعية سرية يلتقي فيها عبدةُ الشيطان الذين يأتون من أوروبا للسياحة وأشياء

أخرى . وعندما افْتُضح أمره اعترف أمام لجنة تحقيق كنسية بكامل هذه الأعمال ، وهذا كَلَّفه منصبه بشكل كلي ، حيث تم تجريده من كافة الألقاب ، وطرده من سلك الكهنوت للأبد . وقد بقيت الكنيسة مغلقة لفترة بسيطة بلا مسؤول عنها ، وعندما قرَّر المجلس الكنسي إرسال راعي كنيسة جديد نشبت الحربُ ، مما أدى إلى العدول عن ذلك القرار والانتظار ريثما تضع الحرب أوزارها ، وقد وَضَعَتْها . وبقي الآن أن يأتي راعي كنيسة جديد . وعندما طُرِد الأب إدوارد خزيم من سلك الكهنوت ذهب إلى العاصمة ، وفتح مطعماً للعائلات في حي راق . وبصراحة أنا غير متأكد من هذا الكلام لأني لم أره إلا أن أناساً كثر أكدوا ذلك .

٥

كان زياد يذرع غرفته طولاً وعرضاً باحثاً عن كتاب " رسائل الإمام الشهيد حسن البنا " . أين اختفى ؟ . صار يتناول الكتب كتاباً كتاباً لكن محاولاته لإيجاد ذلك الكتاب باءت بالفشل . هل استعاره أحد زملائه في الجامعة قبل الحرب ولم يتمكن من إعادته بسبب الحرب ؟ . هل أهداه لأحد أصدقائه في المسجد ؟ . ولكنْ ليس من عادته أن يهديَ كتباً ، فهو متمسك بكل كتاب حتى الرمق الأخير كأنه اشتراه بجزء من دمه ولحمه . هل دخل الغرفة أحدٌ في غيابه وأخذ الكتاب ؟ . كل هذه الأسئلة تكوَّمت عليه بصورة أصابته بدوار شديد، مما جعله يرتمي على السرير رامياً بصره على تجاعيد السقف المقشَّر . لقد توقف عقله عن التفكير مؤقتاً ، أو على الأقل هكذا خُيِّل إليه . إنه كتابٌ عزيز عليه قرأه أكثر من ست وعشرين مرة دون أن يمل منه . إنه يملك جَلَداً عجيباً يُمَكِّنه من الاستغراق في القراءة المتواصلة ، فمعظم الكتب التي عنده أعاد قراءتها مرات كثيرة. لقد انطفأ بحثه عن ذلك الكتاب وخمدت همته في التفتيش عنه ، مما سبَّب له حزناً بالغاً كان ينام معه على السرير ويتدثر بعظامه بلا رحمة .

لقد نسي زياد الكتاب على صخرةٍ على الشَّاطئ قبل أيام . فقد أخذ الكتاب

معه إلى صلاة الفجر ، وبعد أن فرغ من الصلاة ذهب إلى البحر من أجل السباحة كعادته ، ووضع الكتاب على صخرة قبل أن يُسَلِّم للبحر أعضاءه . وعندما انتهى من السباحة عاد إلى منزله ناسياً الكتاب . وفي مساء ذلك اليوم بينما كانت الراهبة جودي تتمشى على الشاطئ عثرت على الكتاب ، ولم تتمكن من معرفة صاحبه رغم أن اسمه مكتوب على الصفحة الأولى . قرأتِ الاسمَ لكنها لم تعرف من هو " زياد خضر" . ومن عادة زياد أن يكتب اسمه على الصفحات الأولى من كتبه بلا استثناء . وهكذا احتفظت به في غرفتها ، واخترعت قصة الإهداء من أجل أن تبدوَ وكأنها مثار اهتمام الرجال،وأنها ما زالت تملك عناصر الأنوثة التي تجذب أي رَجُل. هكذا كانت تفكر وتُمَنِّي نفسها لكي تتخلص من جزء ولو بسيط من الاكتئاب الباطن الذي يحتلها .

إنه يوم الجمعة ، وقد بقي على الصلاة والخطبة أقل من ساعة . شعر زياد أن الوقت يحاصره من كل الجهات . وحتى هذه اللحظة لم يغتسل ، فانشغال ذهنه بالبحث عن الكتاب أنساه الاغتسال . نهض من سباتِ الحيطان المصابة بالأرق الحاسم ، وهبَّ واقفاً ثم ذهب لتجهيز ملابسه التي سيذهب بها إلى الصلاة . ثوبٌ أبيض فضفاض وطاقية بيضاء وسروالٌ أبيض ، حتى إن ملابسه الداخلية بيضاء . إنه محاطٌ بالبياض اللذيذ ، وكل أعضائه راكضة نحو بياض أفقي يمتد من نخاع العظم حتى عينيه اللتين تمشيان على سور المسجد .

وبعد أن جهَّز ثيابه دخل إلى الحمَّام من أجل الاستحمام حاملاً ثيابه . نزع ثيابه القديمة. وضعها جانباً وقرَّر أن يُنزِلها إلى أخته فاطمة لاحقاً لكي تغسلها في الغسالة، فهو لا يملك غسَّالة في مملكته الصغيرة . سلَّم أعضاءه للماء الدافئ بفعل حرارة الشمس المسلَّطة على خزَّانات المياه على السطح ، حيث يُقيم . لقد وصل الماءُ المقاتِل إلى كل خنادق جسده وانحناءات حلمه الموزَّع بالتساوي على الأكسجين والهيدروجين اللذين يكوِّنان مملكةَ الماء . فرغ من الاغتسال المحتوي

على الوضوء . ارتدى ثيابه البيضاء وردةً وردةً . وخرج حاملاً تواريخ العصافير المنفية على مشطه المحدودَب . قرَّر أن يُصَلِّيَ سُنة الوضوء . دخل في الصلاة كشجرة مقطوعة من شجرة لا تاريخ لها سوى الصلاة والخشوع . إنه بين يدي الخالق واقفٌ كعمود كهرباء في المنفى الأرضي، كحبة تراب مهاجرة إلى الكواكب صاعدة إلى الاستغفار الفضائي . أنهى صلاته وانهمك بالتسبيح ثم قرأ سورة الكهف وأهدى ثواب القراءة إلى الأموات . فكَّر في أولئك الأشخاص الذين سيهدونه قراءتهم للقرآن بعد موته . إنه الموت قمة الحياة السرمدية . وها هو يزور ذهن زياد بين الفينة والأخرى ليُطَهِّره من ذكريات أخشاب المراكب الغارقة بعيداً عن رصيف هذا الميناء المهجور . تذكَّر كلمات للشاعر إبراهيم أبو عواد الذي أُعدِم شاباً : ((إذا أردتم أن تغتالوني فأعطوني فرصةً كي أقرأ سورة الكهف وأُصَلِّيَ الجمعة في درب التبانة)) . لقد برقت هذه الكلمات في ذهنه على نحو صاعق . حدَّق في النافذة المفتوحة على زرقة السماء ، ودعا الله بأدعية لا يحضرني فحواها الآن .

قُرِع باب حجرته فقال :

_ من بالباب ؟ .

_ أنا خولة يا عمي.. جَدِّي يقول لك انزل لكي تذهبا سويةً إلى صلاة الجمعة.

_ سوف أنزل حالاً .

وعادت الطفلة لتخبر جَدَّها ، أما زياد فنهض وتضمخ بالمسك الذي أهداه إليه الشيخُ سليمان ثويني بعدما مجيئه من العُمرة قبل الحرب . خرج من غرفته وأغلق الباب بالمفتاح ، ونزل الدرجات حُلماً للرمال لكنه لم يُضَيِّع وقته في عدها مثلما كانت تفعل خولة . وَجَدَ أباه ينتظره على باب شقتهم . وذهبا معاً إلى المسجد .

كانا يشاهدان العمال الذين يعملون على إعادة الإعمار وهم منهمكون في العمل والغوص في ذكريات آلياتهم ورائحة الوقود لمركباتهم الضخمة . لقد صارت

البلدة موقفاً للشاحنات وكافتيريا للسائقين الذين يدخنون ويتبادلون النكات الإباحية . والحق يُقال إن منهم سائقين محترمين ابتعدوا عن التجمعات التي يقودها السائقون الزعران الذين يفتخرون بالأشياء التي وقعت بينهم وبين نسائهم في غرف النوم في الليلة الماضية ، وصار كل واحد منهم يريد أن يُثبِت رجولته وفحولته أمام الآخر ، فيخوض في الحديث عن قدرته الجنسية الجبارة بدون أدوية أو كيماويات ، وبالطبع فإن الضحايا هم النساء المشغولات في مطابخ بيوتهن بإعداد الطعام ، وغير العالمات بأنهن صرن علكة تُمضَغ في أفواه السائقين المحقونة بالنيكوتين والقطران .

قال الأب لابنه وهما يشقان طريقهما وسط غابة من الغبار والأنقاض :

_ هؤلاء السائقون لا يعرفون الصلاة نهائياً .

_ إن منهم أناساً محترمين وملتزمين ، وبالطبع فهناك زعران لا يخجلون من العمل أثناء الأذان وأثناء الصلاة .

نثرا هذه الكلمات في قلوب ذرات الأكسجين الضئيل ، ومضيا إلى المسجد . وبعد أن دخلا وصَلَّيا تحية المسجد انتشر الأذان في الأرجاء كأنه طوفان من الأنوار والفضاءات . اعتلى الشيخ سليمان ثويني المنبر، وبدأ خطبة الجمعة بحمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على النَّبي ﷺ ثم قال بالحرف الواحد :

((إن حكومتنا العلمانية التي لا تعرف سوى زيادة الضرائب لسرقة الناس لم تكتفِ بسرقة الناس الذين صاروا يعيشون كالفئران عند سلال القمامة للوزراء والأثرياء ، وإنما سرقت غالبية الأموال التي وصلتها من الدول الشقيقة من أجل إعادة الإعمار . فإلى متى سنظل صامتين على جرائم هذه الحكومة الفاشية ؟ . اللصوص الأنيقون في ازدياد ، وضباط المخابرات في ازدياد ، والفقراء في ازدياد، والمومسات في ازدياد ، والمسابح المختلطة في ازدياد ، والضرائب في ازدياد . إنهم لا يطبقون شرعَ الله ، بل يُطَبِّقون شرع أسيادهم أولئك الغزاة الصليبيين الذين

نصَّبوا رئيس دولتنا على أنهار جماجمنا. فإلى متى سنظل غاطسين في أحضان نسائنا؟!. إنها دولة غير شرعية سوف تسقط لا محالة إن بقيت سائرة على خطى إبليس . ما هي الديمقراطية التي يتحدثون عنها ؟ ، إنها رمي المجاهدين في السجون ، وفتح البلاد للراقصات والمطربات المتاجرات بأعضائهن صاحبات جوازات السفر الدبلوماسية . الخمَّارات في كل الأزقة ، والسائحات العاريات قادمات حاملات الإيدز في باقات الورد ، والناس يُسَبِّحون بحمد الحاكم ويقدِّسون له . نساء الوزراء في المسابح المختلطة ، والشعب لا يجد ماء للشرب . وفساتين السهرة الخاصة بهن على حساب الشعب المتسول على أبواب مساجد وكنائس البلاد ، هذه البلاد القائمة على بحر من النفط والغاز والمعادن ، ومع هذا فالشعب صار شحاذاً . يُخَدِّروننا بخرافة حوار الحضارات، لكنني سأقول اقتراحاً من أجل حوار الحضارات. فلنحضر نجلاء فتحي وميرفت أمين وعمرو دياب وتامر حسني وهيفاء وهبي وإليسا ونانسي عجرم ، وليحضر أعداؤنا الصليبيون سيلين ديون وماريا كيري وبريتني سبيرز وجودي فوستر وكاترين زيتا جونز ومايكل جاكسون وريكي مارتن، وهكذا يصير هناك حوار حضارات مفعم بالأحاسيس الدافئة والملابس الداخلية ، وتتوحد الشعوب ! ، أما أن تخبرني عن عشرات الآلاف من المسْلِمَات اللواتي اغْتُصِبْن في البوسنة، أو تخبرني عن عشرات الآلاف من الكاثوليكيات اللواتي اغْتُصِبْن في رواندا، فهذه ليست مشكلة ، المهم أن يظل اللصوص الكبار يستعملون الشامبو الفاخر والعطر الفرنسي الراقي ومضادات الاكتئاب ، وأن يظل علماء السلاطين عندنا نائمين مع نسائهم، ويصدرون الفتاوى لشرعنة الأنظمة الطاغوتية ، وأن تظل أميرات أوروبا يعرضن أعضاءهن أمام عدسات المصوِّرين . والذي حجَّت قُرَيْشٌ بيتَه لو تعلم المتاجرة بلحمها ماذا ينتظرها بعد موتها ما تاجرت، ولو يعلم الطاغيةُ ما ينتظره في قبره ما سرق الشعب وحجَّ إلى البيت الأبيض. أعلم أنه سيتم خيانتي مثلما خان الأمويون عثمان، ومثلما خان أهل الكوفة

علياً والحسين . وأعلم أنهم سيتركونني في المعركة وحيداً كما تركوا ابنَ الزبير وذهبوا للنوم مع نسائهم ، ولكنني سأظل أُقاتِل حتى نهاية حلم أشيائي .

إن اللغة العربية محاصَرة بالإنجليزية والفرنسية في عقر دارها ، والفضل للخونة من أبناء جلدتنا من عبيد الفكر الغربي الذين لا يعرفون سوى التحرش الجنسي بالنساء وتقديس أسيادهم الغزاة الصليبيين الذين يغدقون عليهم الأموال . شكراً أيها اللوبي الفرنكوفوني ، وتحيةً أيها اللوبي الأنجلوسكسوني . إنها الديمقراطية التي تخترعها زوجة الحاكم وهي في قميص النوم الشفاف في المؤتمر الصحفي . أية انتخابات وأية ديمقراطية وأي بطيخ ؟! . لا أهمية للانتخابات لأن النتائج معروفة سلفاً وفق مزاج حكومة التزوير الشريفة كالبغايا الخجولات المرخَّصات من وزارة الداخلية في هذه الجمهورية الضائعة. عندما تغتالني الحكومةُ العلمانية فلتنشئ مصنع بيرة ومرقصاً في نعشي من أجل تشجيع السياحة وتعزيز مسيرة الديمقراطية . أيها الناس استيقظوا قبل أن يأتيَ الطوفان ، وكأنني ألمح بوادره تأتي من بحرنا المنهوب والذي ترسو فيه بوارج أعدائنا بمباركة حكومتنا الرشيدة . يجب أسلمة العالَم وتعريبه وخصوصاً أمريكا وأوروبا . يا أخي المسلم في فرنسا ، أنتَ تذهب إلى بلاد نقابة المومسات لا أجيراً أو عاملاً بل فاتحاً لتحرير باريس من الاحتلال الصليبي ، ورفع الهلال فوق برج إيفل. لا تضيع وقتك مع المراهقات في المسابح المختلطة . قم بأسلمة أوروبا وتعريبها ، وابدأ من الأندلس لتتحرر فلسطين وكشمير وغروزني وسراييفو . أيها الناس أَخرِجوا حب المال من قلوبكم لتسقط فيه الثورة والنصر)).

وختم الخطبة كما بدأها وأُقيمت الصلاة ، وصلَّى بالناس إماماً وقد تعمَّد أن يقرأ الآية : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . أنهى الصلاة واستدار بشكل مواجِه للمصلين. كانت وجوههم مبتلة بالعَرق والخوف على شيخهم . لقد كانت خطبة قوية ، مفرداتها كأنها كتل

ثورة ورعد . وعلى الرغم من تعودهم على أسلوب الشيخ في مواجهة الدولة والحكومة إلا أن هذه الخطبة لها مذاق خاص ، فالدولة الآن قد انتهت من الحرب للتو ، وصارت تلتفت إلى الداخل مُحكمة سطوتها على كل تفاصيل الحياة العامة . وأيضاً فإن دائرة المخابرات قد نشرت رجالها في المساجد من أجل كتابة تقارير عن أي شيء يخالف أوامر الدولة . وعلى الرغم من كون خطبة الجمعة في هذه البلاد تُكتَب من قبل رجال الحكومة ، وتُرسَل بالفاكس إلى الخطباء لكي يقولوها بدون زيادة أو نقصان ، إلا أن بعض الخطباء يرمون أوامر الحكومة وراء ظهورهم ، ويكتبون ما يشاؤون حاملين المسؤولية على أكتافهم . وبالطبع فإن الخطبة المرسَلة بالفاكس إلى الخطباء تتحدث عن موضوع واحد ، وهو وجوب طاعة الحاكم في كل الأحوال ، وعن نشاطاته في تطوير البلد سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وعن ما يسمونه ارتفاع دخل المواطن وتحسن المعيشة بكل جوانبها ، وبالطبع فهذا الكلام ليس له نصيب من الصحة ، فوضع البلاد من سيء إلى أسوأ . وهذه البلاد خارجة من حرب عبثية لا معنى لها ، مما يعني ازدياد الديون وتعقد الحياة ، وازدياد الشباب المهاجرين إلى الخارج ، والمصطفِّين طوابير طويلة كالأشجار الذابلة أمام السفارات الأجنبية .

انتهت الصلاة وصار المصلون يخرجون من المسجد كأمواج من النسور الوردية النادرة ، وبقي الشيخ في المحراب يذكر الله . وبعد نصف ساعةٍ تقريباً خلا المسجد إلا من الشيخ سليمان وزياد . كانا وجهين لوهج مجرة راحلة إلى السجود لخالقها ، أو بندقيتين لمجاهِد قديم مرَّ في السديم قبل ولادة مسدَّسات الخريف . ذهب زياد إلى الشيخ سليمان وصافحه وجلس إلى جانبه وقال :

ـ سَيِّدي الشيخ ، أظن أن هذه الخطبة لن تمر هكذا ، ولا بد أن أزلام الحكومة قد أوصلوا لها نص الخطبة كاملاً ، وسوف يلحق بك الأذى إن بقيت ههنا .

رد الشيخ بصوت صلب :

_ أعرف هذا يا زياد ، ولكن علينا أن نقول الحق مهما كانت العواقب ، وأن لا نخشى في الله لومة لائم . فسيدنا يحيى قُتل من أجل بغي من بغايا بني إسرائيل ، وحُزَّت رأسُه ، ووُضِعت على صحن فوق رأس الراقصة ، وأنبياء كُثر قُتلوا في سبيل الدعوة ، وسيدنا عمر قُتل وهو في المحراب ، وسيدنا عثمان قتلوه في بيته صائماً بعد أن حاصره الرعاع ، وسيدنا علي قُتل في طريقه إلى صلاة الفجر ، ودُفن ليلاً لئلا تنبش الخوارج قبره، وسيدنا الحسن دسَّت له زوجته السم في الطعام وقتلته بكل خيانة ، وسيدنا الحسين حُزَّت رأسه ، وسيدنا عبد الله بن الزبير صُلب وحُزَّت رأسه ، والإمام زيد بن علي أُخْرِج من قبره وصُلِب ، والإمام مُسْلِم دسُّوا له السم في التِّين وقتلوه، والإمام النَّسائي مات من الضرب، والإمام ابن حزم مات مُحاصَراً، والشيخ حسن البنا قتلوه ، والدكتور عبد الله عزام قتلوه ، والشيوخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي وفتحي الشقاقي قتلهم الغزاةُ ، والقائد الرمز أصلان مسخادوف اغتاله الصليبيون هو وأسد البراري شامل باسابيف ، وبالتأكيد فلن أكون أفضل من هؤلاء كلهم ، ولن أكون أفضل من الصحابة الذين لقوا أبشع صور التعذيب والترهيب في سبيل الدعوة ولم يتراجعوا . ولن أكون أفضل من أئمة آل البيت الثوار الذين دُسَّ لهم السم واحداً تلو الآخر .

وأردف قائلاً :

_ لقد عرضت عليَّ الحكومةُ مبلغ ألف دولار عن كل خطبة جمعة أخطبها بشرط أن أمدح الحاكم والحكومة ، ولكنني رفضتُ هذا العرض . وأنا لا أقول لك هذا الكلام لتظن أني أمير المؤمنين الشريف الطاهر ، ولكن لتعلم أن مساري يختلف عن مسار أولئك الذين باعوا دينهم بعرض من الدنيا زائل .

_ أعرف هذا يا سَيِّدي الشيخ ، ولذلك عليك أن تُغَيِّر مكان إقامتك سريعاً لئلا تُصاب بأذى . ولديَّ فكرة جيدة حول هذا الموضوع .

رد الشيخ واللهفة تحاصره من كل الجهات :

ـ وما هي هذه الفكرة ؟! .

ـ تتخفى في زي امرأة ترتدي خِمَاراً وتأتي إلى غرفتي على السطح وتقيم فيها إلى أن تنكشف هذه الغمة ، وسوف أنتظرك بعد ربع ساعة ، ولكنْ احرص على أن لا يراك أحد وأنت تصعد إليَّ لئلا نُشَوِّه سمعة مرتديات الخِمار ، وهذا الموضوع لا يعلمه إلا أنا وأنت .

راقت هذه الفكرة للشيخ ، واتفق الاثنان على ذلك. وخرج زياد وبين ضلوعه قلب جديد مغموس في جرأة العشب الاستوائي . وعندما وصل إلى باب المسجد ارتبك قليلاً حين رأى أسعد يمسك حذاءه ويمسحه ، ثم ما لبث أن استعاد رباطة جأشه ، فقال :

ـ دعكَ من حذائي يا أسعد .

يجيب أسعد وعيناه طافيتان في مقلاة الذبول وزيوت المجرة المسافرة أبداً :

ـ سوف أمسحه جيداً لتلبسه في أعياد ذبح الوطن ، وتبدوَ أنيقاً أمام لصوص الحكومة .

ـ لا أدري من أين تأتي بهذا الكلام .. لقد حَيَّرْتني يا أسعد ، فلم أعد أعرف هل أنت عاقل أم مجنون .

ـ أنا نصف عاقل ونصف مجنون، يعني نص نص مثل أغنية نانسي عجرم ولكن للأسف ليس عندي ثديان مثلها لأجذب قطيعَ الغنم ، فأنا المجذوب نحو ذكريات تلمع على كتف ضوء يلمع في آخر نفق بَحْرٍ لا يلمع .

اندهش زياد من هذا الكلام ، وقال والدهشة تمزقه بخنجر الوقت :

ـ إنك شاعرٌ يا أسعد .. من أين تأتي بهذا الكلام ؟ .

ـ لستُ شاعراً لأن الشعراء قتلوا قطتي ، أنا مجرد شبح ، رقمُ شبح ضمن أرقام أشباح هذا الميناء الذي سيبلعه الطوفان لا محالة .

وصار أسعد يصرخ خارجاً من المسجد والحرقة تعتصره :

_ إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ .

ويغرق في البكاء المر حتى الثمالة لدرجة أن نشيجه يكاد يمزق صدرَ زياد الموزَّع بين كلام أسعد العجيب وبين حماية الشيخ الذي سيأتي إليه بعد قليل . وقد كانت الحيرة تتجاذب زياد من كل الأطراف .

_ مستحيل أن يكون هذا مجنوناً .

قال في نفسه .

وانتعل حذاءه وسبق الشيخ إلى غرفة السطح . رتَّبها بحيث كان حريصاً على أن تبدوَ في أحسنِ صورة وانتظر قدومَ الشيخ . كانت دقائق الانتظار كأنها مسامير في جسد الوقت ، دقائق من نار تتدحرج على أكوام أحزان لا بد أن تضحك يوماً ما . أما الشيخ فقد ارتدى زي امرأة ساتراً لكل جسمه ، وما إن وضع قدمه على باب العمارةِ حتى أحس بصوت يتدفق من وراء الباب. ازدادت دقاتُ قلبه ، وظن أن أمره قد كُشِف ، فاختبأ في زاوية إلى أن زال ذلك الصوت . كان الصوتُ للعجوز خضر الزاوي وهو يصيح على حفيدته . ولم يكد الصوت يختفي حتى شعر الشيخ بالطمأنينة ، فخرج من الزاوية التي كان يختبئ فيها ، وصعد الدَّرجَ بخطوات متسارعة تضغط على الدرجات بحنو بالغ لئلا يُحدِث صوتاً فيُفتضَح الأمر .

دق على باب الغرفة وهو يتلفت وراءه قائلاً :

_ افتح يا زياد .. أنا سليمان ثويني .

فتح زياد وأدخل الشيخ، وما إن دخل حتى خلع الخِمَار وكامل الزي النسائي. جلس الشيخ على طرف السرير ، وأخذ زياد يطمئن على حالته ، ويستفسر عن مجريات الأمور ، ويسأله عما إذا كان أحدٌ ما قد رآه . ولما اطمأن زياد إلى سير الأمور قال :

_ اعذرني يا سَيِّدي الشيخ ، فسوف أذهب لإحضار الغداء .. دقائق وسأكون

عندك . أغلقِ البابَ بالمفتاح ، ولا تفتحْ إلا عندما تسمع صوتي .

ونزل زياد مسرعاً ، وهناك على الدَّرج رأى مريانا بقميص النوم وهي تركض وتصيح وزوجها بملابسه الداخلية يركض وراءها حاملاً إحدى سكاكين المطبخ . كان قميص نومها يُفَصِّل جسدها تفصيلاً بصورة مثيرة للاشمئزاز . وصلت إلى شقة العجوز خضر وصار تقرع الباب قرعاً عنيفاً ففتحت فاطمة الباب متأففة ، وما إن رأت مريانا بقميص النوم حتى احمر وجهها خجلاً وذابت في ثيابها ، وبدأ جبينها يتفصد عرقاً بشكل غير طبيعي . وقد كان صراخ زوجها البدين يعدو وراءها كذئب متقاعد راكض باتجاه الماضي . خافت فاطمة من الأمر وارتبكت أيما ارتباك ، ولم تدر ما تفعل . لقد تعطل عقلها عن العمل بفعل هذه الصدمة المدوية ، لكنها في اللحظة الأخيرة تمالكت نفسها وفتحت الباب على مصراعيه فدخلت مريانا وأَغلقت الباب وراءها . وصار زوجها يقرع الباب قرعاً عنيفاً ثم تذكر أنه بملابسه الداخلية فخجل من نفسه على غير العادة وعاد أدراجه ، وبينما هو صاعدٌ التقى بزياد على الدرج ، فقال زياد وهو يحاول أن يفهم الأمر :

_ ماذا هناك يا جار ؟ .

جحظت عينا يعقوب ، وتكوَّرت نظراته بحيث صار كأنه يريد أن يلتهم محدثه ، وقال بصوت أجش :

_ قل لأهلك إن زوجتي إذا لم ترجع في غضون عشر دقائق فسوف أَقتلها وأُنَظِّم في هذه العمارة التعيسة جنازةً لكل سكانها .

بصراحة لقد أخذ زياد هذا الكلام على محمل الجد خصوصاً عندما رأى السكينة العريضة في يده، فهذا الرَّجل قد يعمل أي شيء . كل الاحتمالات واردة.

عاد يعقوب إلى شقته وأغلق الباب بشدة في حين أن ابنته كانت ترتعد تحت اللحاف . فهي ما إن سمعت الصراخ من أبويها حتى تملكها الرعبُ ، ودخلت غرفتها وأغلقت الباب بالمفتاح ، وتدثرت باللحاف . إنها ترجف كأن أعصابها

قطارات كهربائية انحرفتْ عن السكة أو انقطع فجأةً التيار الكهربائي . لقد ذهبت أعصابها في الرعاش الأسطوري . أسنانها تصطك ، ويداها ترتجفان ، وكل رِجْل تصطدم بالأخرى ضمن معركة لا نهائية مع خيول البكاء الأخرس ، بكاء يقوده كاتم صوت لئلا يسمع أباها صوتَ بكائها فيقترف جريمةً في هذا البيت المشتعل ألماً ودموعاً وذكريات دمار أخرس تحت لحاف قديم .

خرج العجوز خضر ليرى ماذا يحدث في بيته فوقعت عيناه على مريانا وهي في هذه الحالة حيث تظهر كامل مفاتنها . احمرت وجنتا العجوز وأرسل نظره باتجاه الأرض قائلاً :

_ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ثم نظر إلى ابنته وقال :

_ خذوا جارتنا مريانا يا فاطمة ، وأعطيها شيئاً من ملابسك لتستر بها جسمها.

وبالفعل قادت فاطمةُ مريانا إلى غرفتها من أجل أن تبحث لها عن شيء تلبسه . أما فايزة فخرجت من غرفتها لتستطلع الأمر ، فلما شاهدت المنظر علمت أن هناك أمراً كارثياً قد حصل ، فالمرأة لا تخرج بهذه الصورة إلا وهناك مصيبة عظيمة ترفرف في الأرجاء. مضت فاطمة وفايزة تقودان مريانا إلى الغرفة ، وارتدت مريانا عباءة سترت كاملَ جسدها، وبعد ذلك اغرورقت عيناها بالدمع وأجهشت بالبكاء بحرقة الثكلى . حاولت المرأتان التخفيفَ عنها ومعرفة سبب المشكلة ، لكن المحاولات ذهبت أدراج الرياح ، إذ تهرَّبت مريانا من شرح مشكلتها . وفي أثناء هذه المحاولات الفاشلة رن جرس الباب . فذهب العجوز لفتحه معتقداً أن يعقوب قد عاد ، فأجمع العجوزُ أمره أن يقسوَ بالكلام عليه على أمل أن يرتدع ويكف عن هذا الجنون . وعندما فتح البابَ قال بشكل عنيف :

_ اسمع يا يعقوب ...

أراد أن يُعَنِّف يعقوب لكنه اكتشف أن الذي رن الجرسَ هو ابنه زياد ، فلم

يكمل كلامه ، واكتفى بالقول :

_ أهذا أنتَ يا زياد ؟! .

دخل زياد مسرعاً وقال :

_ أين جارتنا مريانا ؟! .

_ ماذا تريد منها ؟! .

_ يعقوب يقول إذا لم ترجع زوجته في غضون عشر دقائق سوف يقتلها ويقتلنا.

ضحك العجوز بسخرية قائلاً :

_ أُف ! صار يعقوب رَجُلاً يقتل ويذبح على مزاجه .

وأردف قائلاً :

_ أليس هناك قانون في البلد وشرطة ومحاكم ؟! ، هل يظن المسألة فوضى على مزاج أبيه ؟! .

_ يا أبي دعنا نُعد إليه زوجته بالحسنى لنتجنب المشاكل ونصلح بين الناس .

_ إن زوجته في الداخل مع أختك وزوجة أخيك .

ذهب زياد إلى باب الغرفة لكنه لم يدخل واكتفى بالنداء على أخته فاطمة ، فخرجت إليه فأفهمها القصة ، ثم دخلتْ وأقنعت مريانا بضرورة العودة إلى زوجها وأن تتحمله بعد كل هذا العمر دون أن يعرف أحدٌ ما سبب المشكلة . خرجت مريانا وعيناها متجهتان صوب الأرض ، ومشى زياد أمامها .

وفي هذه الأثناء كان يعقوب يحرق سيجارةً تلو سيجارة . وهو على كرسيه يحترق مثل رائحة التبغ المنتشر في الجو كجثث الضفادع المسمومة . لم يكن معتاداً على الانتظار بهذا الشكل الكئيب الحارق الذي يلتهمه تدريجياً . كان يَشْتم زوجته في نفسه قائلاً :

_ هذه المرأة ابنة الكلب لا تفهم إلا أن تظل ممسحة للأحذية ، سوف أُرَبِّيها

من جديد على طريقتي .

وبينما هو يحترق في مقعده المشلول قُرِع بابُ شقته فعلم أن زوجته قد عادت . ذهب لكي يفتح الباب ، فإذا به زياد ومريانا تقف وراءه متسمرة في تلك العباءة السوداء .

قال زياد وهو يحاول أن يُلَطِّف الجو :

_ يا أستاذ يعقوب هذه زوجتك الست مريانا ، وأنتما الاثنان لا تستطيعان الاستغناء عن بعضكما . ولقد عشتما معاً طوال هذه السنوات بحلوها ومرها ، وأنا متأكد أنكما بحاجة إلى بعضكما البعض .

كان يعقوب يتأفف بصوت عال قائلاً في نفسه :

_ متى ستنتهي هذه المحاضرة الذي يلقيها هذا الولد ؟ . هل يظن نفسه في الجامعة ؟ .

وتوجه زياد بالكلام لمريانا قائلاً :

_ تفضلي يا ست مريانا إلى بيتك ، وإن شاء الله ستكون حياتكم سعيدة .

ودخلت مريانا إلى بيتها مطأطئة الرأس وفي عينيها جبال من الدمع الطازج ، وهي ذائبة في مشاعر الخوف والقلق . أما ابنتها راحيل فكانت تسترق السمع خلف باب حجرتها ، وقد شعرت بقدر كبير من الأمان عندما سمعت كلامَ زياد الذي كان بمثابة المنقِذ بالنسبة لهذه الأسرة المفكَّكة .

وأغلق يعقوب البابَ في وجه زياد حتى إنه لم يقل له تَفَضَّل ، أو أية عبارة ترحيبية .

بدت مريانا خائفة أكثر من أي وقت مضى خاصة بعد أن أُغلِق الباب، ووقفت أمام زوجها كالتلميذة الصغيرة الخائفة من عقاب مديرة المدرسة الشديدة . وقال لها زوجها :

_ هل أعجبكِ ما قمتِ به ؟ . صار من هبَّ ودبَّ يتفرج علينا ويعطينا

محاضرات في الشرف والأخلاق .. الآن ارتحتِ يا ست الحُسن والجَمال ؟ .. اذهبي وانتظريني في الغرفة .

ومضت المرأة المستسلمة لأمر زوجها إلى غرفتها تجر كل تواريخ الجيوش المهزومة وتحمل كل ذكريات النساء المغتصَبات على كتفها مثل أكياس الدقيق الذي كان يحصل عليها زوجها بطرق غير شرعية من أحد مسؤولي الحكومة .

وكانت سبب المشكلة بين الزوجين هو أن يعقوب بنيامين أراد أن يأتيَ زوجته من دُبُرها . وهذا يسبب لها ضيقاً ما بعده ضيق وألماً ينقلها إلى عوالم الاكتئاب والقرف ، فلما رفضتْ حاول إجبارها على ذلك ، وبعد أن أمعنت في الرفض أحضر زوجها إحدى سكاكين المطبخ ليجبرها تحت تهديد السلاح ، وهذا جعلها تفر من بيتها وهي في ملابسها الفاضحة تلك، إذ لم يكن لديها الوقت لتغير ملابسها وتستر نفسها .

دخل يعقوب الغرفة وعيناه تلمعان كذئب مسعور لدغته أفعى الشهوة ، وهجم على زوجته كوحش ينقض على فريسته بلا رحمة . وأخذ منها ما كان يشتهيه، وقد كانت تصرخ بصوت عال كدجاجة مذبوحة في حجرات الطاعون . وسمعت ابنتها صراخها من وراء باب حجرتها بعد أن فتحته قليلاً لتتمكن من ملاحظة ما يجري . إن صراخ الأم يقتلع خصلات شَعْر ابنتها من جذورها ، يقتلع يومياتها بلا هوادة . بدا الصراخ كصراخ امرأة في غرفة الولادة أيقنت أنها ستموت بعد وضع طفلها . وتدفق صراخ الأم نحو عوالم ابنتها . كان قلب البنت مشققاً بفعل صراخ داخلي لا تقدر على إخراجه خوفاً من أبيها . إنه بيت الصراخ، وكل الأشياء في ذلك المكان السحيق مصابة بالقشعريرة والكوليرا ، إنه الصراخ حينما تُساق الإناث إلى المذبح واثقات من الهاوية والألم والوخز .

وبعد أن شبع زوجها منها ارتمى على السجادة بينما ارتمت زوجته على السرير كقطة ضالة لا تجد من يؤويها ، وقال زوجها بسخرية لاذعة :

_ هكذا يشبع الرَّجل من زوجته دون أن ينجب بنتاً عمياء ولا ابناً أحول ! .

نزلت هذه الكلمات على رأسها كشظايا طائرات ساقطة على أعشاب الماضي لا حلم لها سوى الدمع . كانت كلماته كوخز الدبابيس المتروكة قروناً تحت أشعة الشمس . تفشى الألم في ذاكرة الحيطان التي تمشي تدريجياً لتحكم سيطرتها على تلك المرأة المهرولة في مدارات الضجر والصراخ والدمع السخين المالح .

رجع زياد إلى البيت ليطلب من أخته فاطمة أن تُجَهِّز طعام غداء لشخصين ، وعندما قال لأخته هذا الكلام تعجبت وأمطرته بالأسئلة والتحقيقات ، ثم قالت له في النهاية :

_ هل عندك ضيوف ؟ .

تردد قليلاً قبل أن يجيب ، لكنه قرر أن يكذب لأن الأمر يتعلق بحياة شخص أو موته ، فالكذب واجبٌ في هذه اللحظة ، هكذا كان يعتقد . فقال وهو يستغفر الله بينه وبين نفسه :

_ لا ، ولكني أشعر أني جائعٌ لدرجة أنني مستعد أن آكل طعام رجلين معاً لذلك قلتُ لكِ جهزي الطعام لشخصين .

لم تعهد أخته عليه كذباً فصدقته ، ومضت إلى المطبخ حيث كان الطعام جاهزاً فسكبت منه مقداراً معيناً يكفي لشخصين حسب تقديرها ، ووضعت الطعامَ في وعاء مخصص لذلك . حمله وأسرع نحو السطح يمخر عباب هذه الدرجات المشققة ذات البلاط الرديء .

كان الشيخ سليمان قلقاً بسبب تأخر زياد كل هذا الوقت . وصارت الخيالات تغزوه من كل الجهات . ربما يكون قد اعتقلوه أو كُشِف أمرنا ، أو ربما رآني أحدٌ وأنا أدخل العمارة فشك في الأمر . كل هذه الأسئلة القاتلة والوساوس المؤلمة تبخرت عندما قرع زياد البابَ وعرَّف عن نفسه .

فتح الشيخُ البابَ وتهللت أساريره عندما رأى زياداً . دخل زياد وأغلق البابَ

وراءه ، وسأله الشيخ :

_ لماذا تأخرتَ يا زياد ؟ . لقد غزتني الخواطرُ والوساوس .

لم يرد زياد أن يتناول قصة الجيران لذا اكتفى بالقول :

_ أشياء بسيطة أَخَّرَتْني ، والمهم أنني وصلتُ .

ووُضع الغداء على الأرض ، وتحلق الاثنان حوله ، وقبل الأكل قال الشيخ :

_ أفضل شيء قمتَ به أنك لم تضع الجرائد تحت الطعام مثلما يفعل الجهال

.

ابتسم زياد ابتسامة المنتصِر الواثق وقال :

_ هذه المسائل أنا منتبه إليها جيداً ، فالجرائد التي تدخل بيتنا للقراءة فقط ، ونحن لا نفعل مثل الناس الذين يأكلون على الكلمات المقدَّسة .

ومضى الاثنان يتناولان الطعام بشهية مفتوحة على كل الاحتمالات كأنهما لم يذوقا الطعام منذ قرون . وفي أثناء قيامهما بالأكل ذهب زياد لكي يحضر ماءً من الحنفية ، وللأسف كان الماء ساخناً . إذ إن الثلاجة في بيت والده معطلة بسبب انقطاع التيار الكهربائي ، وهذا حرمهما من تذوق الماء البارد . وكلما شربا من الماء الساخن ازدادت نقمتهما على الحكومة التي تحرص على إيصال التيار الكهربائي للأحياء الراقية في حين تُهمِل الأحياءَ الفقيرة بحجة القيام بعمليات الصيانة والأشغال . وبصراحة إن الحكومة لا تجرؤ على قطع الكهرباء عن الأحياء الراقية بسبب وجود السفارات الأجنبية ورجال الأعمال الذين يمسكون باقتصاد البلد ويقودونه كقطيع الأغنام المستسلم نحو أرصدتهم الشخصية وقصورهم المحتوية على برك السباحة الكبيرة في الوقت الذي لا يجد الناسُ في هذا المكان ماءً للشرب.

وللأسف فإن الذين يقاتلون في الحروب العبثية التي تشنها هذه الدولة على الجيران هم الفقراء الذين يزدادون فقراً في حين أن الساسة وعِلْية القوم الذين

يقضون فترة الحرب جالسين في منتجعات أوروبا هم المستفيدون ، وهم الذين يزدادون ثراءً بسبب متاجرتهم بالسلاح حيث يعملون سماسرة ووسطاء بين مصانع السلاح الأجنبية وبين الحكومة والحكومات المجاورة ، ومن يدفع أكثر يكون له الحق في الصفقة الجيدة ! .

وقبل صلاة العصر بنحو ساعة تكاثرت سيارات الجيب العسكرية المهداة من إحدى الدول الغربية لهذه الحكومة . تكاثرت حول المسجد بصورة مثيرة للرعب . ترجل الجنود في حين بقي المسؤول في إحدى السيارات مع سائقه وحرسه . مضى ثلاثة جنود باتجاه بيت الإمام . قرع أحدهم البابَ فلم يجبه أحدٌ. أعاد الكَرَّة لكن محاولته باءت بالفشل . عادوا إلى قائدهم وأخبروه بأنه لم يرد عليهم أحد ، فأصدر القائد أوامره بكسر الباب. وبالفعل ذهبت مجموعة الجنود وكسروا البابَ ودخلوا. ثم حضر القائد وصار يُقلِّب في أشياء المنزل . كان من الواضح أن الشيخ قد أخذ احتياطاته واستعد لهذه الساعة فلم يكن في المنزل شيء ذو قيمة . أما أسرة الشيخ فقد ذهبت إلى الريف لتقضيَ فترة الحرب هناك بعيداً عن القذائف والانفجارات في هذا الميناء الذي صار جزءاً من الماضي بعد الدمار الهائل الذي لحق به. زوجته حملت الأولاد وذهبت إلى بيت أبيها في الريف ريثما تنتهي الحرب ، وها هي قد انتهت . وبالطبع فهي لم تذهب بمفردها بل أوصلها أخوها بشاحنته هي والأبناء. وقد أخبرها الشيخ بأن تبقى في بيت أهلها حتى يأتيَ هو بنفسه ليأخذها . وبالفعل نفَّذت إرادةَ زوجها .

قال القائد بهدوء أعصاب مخيف :

ـ لا أهمية لتفتيش المنزل ، فمن الواضح أن الشيخ قد أخذ كامل الاحتياطات واستعد لهذه اللحظة. يجب أن نبحث عنه في مكان آخر عبر استجواب الناس أو المصلين .

وأردف قائلاً :

_ ستكون مهمة رجال الأمن مستحيلة عندما يواجهون شيوخاً أذكياء . إنها مغامرة من نوع خاص ، لكنني لن أستسلم .

وانتشر الجنود في أرجاء المنطقة يستفسرون عن الشيخ . مَن رآه ؟ . من يعرف أين هو الآن ؟ . لكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح ، فغالبية الناس كانوا خائفين من هبوط هذا السؤال على رؤوسهم فكانت إجابتهم تكاد تكون واحدة وهي أنهم صلوا الجمعة وراءه وبعدها لم يشاهدوه مع إضافة شعار التبرؤ من مهاجمة الحكومة التي حصلت أثناء خطبة الجمعة . وما زلتُ أذكر أحد سائقي الشاحنات المتجمعة في المكان ، كان متكئاً على باب شاحنته وهو يدخن، وقد اخترع محاضرة كاملة ألقاها على مسامع الجنود حيث قال لهم :

_ لطالما نصحتُ الشيخَ أن لا يذكر الحكومة بسوء ، فهذه حكومتنا الرشيدة التي ترعى مصالحنا وتعتني بنا . الله يخليها ويزيدها قوة أكثر وأكثر . لكن للأسف الشيخ لم يكن يسمع الكلام ، وكان يمشي على هواه .

وبالطبع لا أساس لهذا الكلام من الصحة فهو لم يقابِل الشيخَ وجهاً لوجه مطلقاً لكنه رأى أن يخترع تلك الأحداث الوهمية ليبدوَ مواطناً صالحاً في عيون الجنود .

وعندما ذهبوا بصق السائق على الأرض على نحو ذي دلالة رمزية وقال في نفسه :

_ الله يخرب بيت الحكومة كما خربت بيوتنا . كلكم لصوص يا أولاد ... ، واللهِ مع الشيخ كل الحق أن يفضحكم ويمسح بكم الأرض .

كان كلام السائق يعكس حالة حزن غاضب تسود المجتمع ، فهذا السائق كان يملك أربع شاحنات في الماضي ، ولكن مع زيادة أسعار الوقود على مر الأعوام وزيادة الضرائب وارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة والزيادة الجنونية في أسعار الأراضي والعقارات اضطر لبيع الشاحنات واحدة تلو الأخرى على مدار العقدين

الماضيين ، ولم يبق عنده سوى شاحنة واحدة ، وقد يبيعها إذا استمر الوضع الاقتصادي في التدهور كما هو حاصل الآن .

وكان أسعد يسير هائماً على وجهه مقتحِماً هذه الأنقاض اللانهائية ، بحيث يوقن كل من يراه أن هذا الشخص مختل . استوقفه أحد الجنود قائلاً :

ـ هل رأيتَ إمام المسجد ؟ .

كان مع الجندي زميله الذي قال بصوت خفيض :

ـ ألم تجد إلا هذا الأبله لكي تسأله ؟ .

رد الجندي بثقة مجهولة المصدر :

ـ هؤلاء المجانين لديهم معلومات قد تفيدنا .

وقد سمع أسعد هذا الكلام ورأسه تترنح كرأس المشنوق التي فُصِلت عن الجسد بفعل قسوة الحبل . ولم يجب عن السؤال بل بقي محدقاً في ملامح هذين الجنديين بصورة مثيرة للضحك كأنه مهرج متقاعد في سيرك أَقفل أبوابه .

أعاد الجندي سؤاله مرة أخرى بشكل فيه شدة :

ـ هل رأيتَ إمام المسجد ؟ .

ـ وماذا تريدان منه ؟ .

ـ إنه قريبنا وقد جئنا لنُسَلِّم عليه .

كانت عينا أسعد تلمعان بشكل غريب. لقد كان مقتنعاً في داخله أنهما يكذبان ويخفيان الحقيقة . إنه يحس بالأشياء إحساساً مُرَكَّباً ، وما زاده ريبة تلك الملابس العسكرية التي تذكره بذكريات سحيقة مرت في حياته . إنه متوتر ، وكلما حَدَّق في النجمات على أكتافهما ازداد قشعريرةً باطنية . عيناه تجحظان كمسدس مبلول بالنار ، أو كغابة هجرها المطر الأحمر . أحس أن خطراً من نوع ما ينتظر الشيخ ، فقال لأحدهما :

ـ هل أنتَ متزوج ؟ .

_ نعم .

_ أنصحك أن تركز في مضاجعة زوجتك بدلاً من ملاحقة الشرفاء .

هبط هذا الكلام كالصاعقة على هذين الجنديين . توقف تفكيرهما بصورة صادمة ، ودخلا في هستيريا الحطب الذي يحترق في صدريهما . صعد الأحمر بكل جنونه إلى وجهيهما ، فلطمه أحد الجنود على وجهه وبصق عليه . مسح أسعد البصقة المستقرة على سحنته بطرف كمه . تجمعت الدموع الساخنة في عينيه الباردتين . وهم أحد الجنود في فورة الغضب أن يطلق عليه الرصاص لكن زميله قال له :

_ دعك من هذا المجنون ، إنه لا يدري ما يقول .

وهرب أسعد من المكان . كانت شرايينه تذوب في اللهاث المر . وأخذ يبكي بحرقة وصوت مسموع ، كأن هذا النشيج عوالم لا نهائية من الألم . وراح يصرخ في هذه الأنقاض الشاسعة :

_ إن الغزاة الذين قتلوا قطتي قادمون . إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ .

وسمع هذه الصرخة بعض سائقي الشاحنات الذين كانوا متواجدين في المكان فانفجروا ضاحكين . بدا ضحكاتهم مثل دلو ماء مسكوب على وجوههم المحترقة بالقيظ . لم يكونوا يملكون غير الضحك ، وهم يتغامزون فيما بينهم حول أسعد ، ويسخرون منه . وقال أحدهم :

_ هل البلد ينقصها مجانين حتى يأتيَ هذا المتخلف عقلياً ؟ .

لكن أسعد كان يركض في هذا الأكسجين المخلوط بالحزن والمتراكم على قطيع البيوت التي تم تسويتها بالأرض غير عابئ إلا بالصراخ الذي يعيد تكراره مع الكلام المكرر ذاته :

_ إن الغزاة الذين قتلوا قطتي قادمون . إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ .

واستمر سائقو الشاحنات في اختراع النكات الساخرة من أسعد، وهم يشربون

الشاي ويدخنون ويطلقون الضحكات في هذا الحر الصارخ .

باءت محاولات العسكر في إيجاد الشيخ بالفشل الذريع ، فهم لم يتمكنوا من إيجاده أو الوصول إلى أية معلومة قد تفيدهم في القبض عليه . لكن قائدهم كان رابط الجأش واثق من أنه سيقبض على الشيخ في وقت ما . وبصراحة لم أكن أعرف ما مصدر ثقته المفرِطة ، لكنني كنتُ أعرف أن جبينه يتوهج بصورة متوحشة تقضم غابات الصدى تحت شمس حارقة . وعاد العسكر أدراجهم دون الحصول على صيدهم الثمين على الرغم من أن هذا الموضوع لم يفارق تفكيرهم .

٦

في الدير كان على عايدة أن تجمع القمامة الموجودة في السلال وتضعها في كيس أسود كبير . فالمهمات في الدَّير موزَّعة ، وكل راهبة تقوم بعمل ما حسب دورها . فواحدة تقوم بجلي الصحون ، وواحدة تقوم بشطف البلاط ، وواحدة تقوم بالغسيل ، وأخرى تنشره .

جمعت عايدة القمامةَ في الكيس الأسود . كان ثقيلاً بعض الشيء ، لذا كانت تعاني من حمله وهي المرأة البعيدة عن الخشونة والعنف . وضعت الكيسَ على باب الدَّير من أجل أن ترميَه أم وهبي في الحاوية البعيدة ، فعمال النظافة في هذا الوقت مشغولون بالأنقاض والأتربة والأوساخ في طرقات هذه البلدة المنكوبة وغير مستعدين لأن يدوروا على المنازل يجمعون القمامة ، فعلى كل بيت أن يتصرف من تلقاء نفسه ويرميَ القمامةَ بنفسه . وقد كانت حاوية القمامة بعيدة جداً عن الدَّير ، بحيث تستغرق المسافة بين الدَّير وأقرب حاوية نصف ساعة على الأقل ، وهذه المسافة ستكون تحت أشعة شمس حارقة لا تَرحم . لذا اتفقت أم وهبي مع سكان المكان على أن يَتركوا أكياس القمامة أمام الأبواب ، وهي ستقوم برميها مجاناً .

وأم وهبي هي امرأة غجرية من النَّوَر الذين يسكنون في أقاصي البلدة، كانت تقوم بجمع القمامة من البيوت مجاناً حيث تقوم بالتفتيش عن فضلات الطعام

والعلب المعدنية أو أي شيء صالح للأكل أو البيع من أجل أن تُعيل زوجها المشلول وأبناءها الصغار .

حملت أم وهبي الكيس الأسود واتخذت ركناً في أحد الأزقة وصارت تفتش في القمامة عن أي شيء صالح . وجدت بقايا طعام وفواكه ، ومرآة مكسورة أَخَذَتْها لعلها تصلحها وتبيعها . وجدت أيضاً ملابس ممزقة ففرحت بها كثيراً كفرح صياد اقتنص حوتاً ، وفكَّرتْ في الملابس إن كانت تصلح لها أو لابنتها بعد تصغيرها . كانت منهمكة في حساب الجدوى الاقتصادية وفق منظورها البسيط ، منظور امرأة تسعى لإطعام زوجها المشلول والأبناء الصغار الذين ينتظرون عودة الأم بفارغ الصبر لعلهم يحصلون على طعام أو أي شيء يفرحهم ، وينسيهم لو للحظة هذا البؤس العارم الذي يجتاحهم بلا هوادة . وأثناء تفتيشها الدؤوب بزغ لمعانٌ صادم من بين بقايا الأطعمة والأشياء البالية. مدت يدها فإذا به صليب أصفر . تناولته بوحشية فائقة وحدَّقت به للحظات وصارت تفكِّر فيما إذا كان من الذهب أم لا . ولو كان من الذهب كم يساوي ثمنه . تركت الكيسَ في الزقاق وكفَّت عن البحث في القمامة ، ونظَّفت الصليبَ من الأوساخ العالقة به . وَضَعَتْهُ في إحدى جيوبها بعد أن تأكدت من أن الجيب ليست مثقوبة . داهمها خاطرٌ سريعٌ يتأجج في داخلها بأن أخذ هذا الصليب يُعتبَر سرقةً من نوع خاص ، وأن عليها أن تعيده إلى الدَّير لأنه من المستحيل أن تقوم إحدى الراهبات برمي صليبها في القمامة . هكذا كانت قناعتها التي لا تقبل التغيير . لكنها طردت هذا الخاطر وقال في نفسها :

ـ إن الراهبات يجدن من يصرف عليهن ، أما أنا فلا أجد من يصرف عليَّ . لو أعدتُه إلى الدَّير لربما مات أبنائي جوعاً . لن أُعيده ، وسأشتري بثمنه لحماً لأسرتي التي لم تذق اللحم منذ ثمانية أشهر .

وانطلقت أم وهبي سعيدةً والصليب في جيبها ، وكلما مشت تحسَّسَتْه لتطمئن

على وجوده ، وذهبت به إلى الخباز اليهودي من أجل تقييمه وشرائه ، فقد اعتادت على بيع كثير من الأشياء له ، فهو أدرى بالتجار والأسواق في العاصمة ، فدائرة معارفه واسعة جداً ، أما هي فلا تفهم حركة السوق أو مكان تواجد التجار . وقد صار الخباز هو الوحيد الذي يشتري منها علب المشروبات الغازية التي تجمعها ، إذ إنه على صلة بأحد تجار الخرداوات في العاصمة ، وهو متخصص بجمع العلب المعدنية . والخباز صار حلقة الوصل بين تجار العاصمة وبين أم وهبي التي لا تعرف أين تقع العاصمة، فكل ما قد تقع يديها عليه تذهب به إلى الخباز الذي يشتريه منها بثمن بخس مستغلاً حاجتها وجهلها .

دخلت أم وهبي المخبز فوجدت يعقوب يجلس واضعاً رجلاً فوق أخرى على كرسي خشبي مهترئ يشبه كراسي المقهى الذي أُبيد نهائياً بعد عملية القصف الجنوني له ، فالطائرات كانت تعلم أن كثيرين من الجنود يتخذون من المقهى استراحةً لهم ، وهذا جعله هدفاً رئيسياً للقصف الجوي . واضطر صاحب المقهى بعد أن خسره أن يُزَوِّج ابنته ذات الخمسة عشر ربيعاً للمرابي العجوز أبي مسعود الذي يدق أبوابَ السبعين ، وهو بذلك يكون قد أكمل دائرة الأربع نساء . فالآن على ذمته أربع نساء يمكن أن تقول إنه اشتراهن بأمواله مستغلاً ضعف الأهل الذي باعوا بناتهم لمن دفع أكثر . ولستُ أدري لماذا تزوج الرابعة مع أنه ضعيف جنسياً . ربما يكون حب التملك قد سيطر على حياته خاصة أنه يلعب بالمال ولا يهتم كيف اكتسبه ولا فيما أنفقه . المهم أنه يظن أنه بوسعه شراء الناس بأموالهم . وفي إحدى المرات _ كان ذلك قبل عشر سنين _ أُعجب بامرأة متزوجة سيطرت على تفكيره، فصار يقضي نهاره وليله يفكر فيها ، حتى إنه ذهب لزوجها وعرض عليه مالاً طائلاً مقابل أن يطلقها ، لكن زوجها كان رجلاً شهماً ورد عليه رداً عنيفاً يومئذ . لا أدري ما الذي أتى بتلك القصة في هذه اللحظة .

عدَّل يعقوب جلسته عندما رأى أم وهبي ، لكنه تعجب لما رآها صفر اليدين ،

إلا أنه توقع أنها تملك شيئاً ما في جيوبها فليس من عادتها أن تأتيَ في مثل هذا الوقت إلا إذا كان لديها شيء للبيع . تشجع لهذا الأمر وقال :

ـ أرجو أن تكوني قد أحضرتِ شيئاً ذا قيمة هذه المرة .

قالت أم وهبي والكلام يتدحرج على شفتيها المشققتين اللتين بَلَّتْهُما بلعابها :

ـ لقد أحضرتُ لكَ صليباً ذهبياً .

جحظت عيناه بشكل هستيري وهيأ نفسَه لامتصاص صعقة المفاجأة ، وقال :

ـ أخرجيه بسرعة ، ماذا تنتظرين ؟ .

أخرجته من جيبها . كان ضخماً وثقيلاً بعض الشيء والقلادة أيضاً كانت طويلة نسبياً . بلع يعقوب ريقه وتناول الصليبَ كمن يتناول صيداً ثميناً وصار يتفحصه ويقلبه ويحدِّق فيه بعين خبيرة ، وقال :

ـ إنه من نحاس رديء لا يساوي شيئاً .

لم تطمئن أم وهبي لهذا الكلام ، وشكَّت في الأمر ، وقررت أن تعرضه على شخص آخر ، وقالت :

ـ إذاً أعطني إياها لا أريد بيعه .

ضحك يعقوب ضحكة صفراء ، وقال :

ـ لقد كنتُ أمزح معك ، إنه ذهب من العيار الثقيل .

ـ إذاً كنتَ تريد أن تسرقني يا يهودي .

ـلقد كنتُ أمزح معك يا امرأة. ألم يعد في هذا الشعب أحدٌ يتحمل المزاح ؟!.

وأردف قائلاً :

ـ وما معنى أن أسرقك وأنت سرقتِ صليباً بهذا الحجم ؟، فلا داعي أن تجعلي من نفسك شريفة، لأننا نحن الاثنين حثالة ولصان ، فلا داعي أن نمثل دور الشرف. أنا أعرف أنك سَرَقْتِهِ ، ولكنني على أية حال سأستر عليك وأشتريه منك.

لم تجد أم وهبي فائدة في إقناعه بأنها وجدَتْه في القمامة لأنه لن يصدقها ، كما أنها اقتنعت بأنه لا حاجة لتمثيل دور الشرف ، فهي تعلم بينها وبين نفسها أن هذا العمل سرقة من نوع آخر . لذا دخلت في مفاوضات السعر مباشرة ، ولم تتكلف عناء الدفاع عن نفسها ، فقالت متحمسة على أمل الحصول على سعر جيد :

_ كم تدفع ؟ .

_ مئة دولار ولن أزيد .

لم تستوعب أم وهبي ما هو الدولار. صحيحٌ أنها تسمع عنه هنا وهناك، ولكنها تعتقد أنه مادة مثل الذهب أو الفضة ، فقالت بكل سذاجة :

_ أريد أوراقاً مالية أمسكها بيديَّ ! .

أطلق يعقوب ضحكة استهزاء سريعة بعد أن اكتشف مدى جهل هذه المرأة البسيطة التي تقف أمامه فقال لها :

_ انسي موضوع الدولار ، سأعطيك بالعملة المحلية مع أنها لا تساوي شيئاً ، فالبلد خارج من الحرب والاقتصاد في الحضيض .

ومد يده وأعطاها بالعملة المحلية ما يعادل ثمانين دولاراً ، لكنها لم تعارِض لأنها لا تفهم كيف تعارِض ، وتناولت المبلغ بكلتا يديها ، وخرجت مسرعةً والفرح يقفز في عينيها كالأرانب المولودة حديثاً بلا بكاء أو ألم .

حدَّق يعقوب في الصليب ، واشتبكت الصور في ذهنه بمنظر الصليب الذي كانت ترتديه الراهبة جودي ، وتذكَّر ذلك الوجه الأُنثوي الموغل في الغموض الفاضح . ويعقوب هذا لم يكن يحترم المرأة مطلقاً ولا حتى أمه . كل امرأة بالنسبة إليه هي آلة للتكاثر ، هي كومة أعضاء تناسلية مُغرِية . كان مصاباً بعقدة نفسية تجاه النساء عموماً فهو يعتقد أنهن شر مُطْلق وكائنات جنسية متوحشة، لذا كان يعاملهن على أنهن بشر درجة ثانية أو كائنات حيوانية شهوانية . هكذا قال لأمه

عندما كان شاباً ولم يخجل منها فقد كان يحتقرها لأنه يعلم أنها تخون أباه مع الرجال الذين كانوا يقصدون بيتهم في الوقت الذي كان أبوه مسافراً . تلك الصور مطبوعة في ذهنه وهو طفل لا حول له ولا قوة يرى الرجال الأغراب داخلين خارجين من البيت بينما هو لا يملك إلا أن يختبئ في غرفته البائسة ليسترق السمع ، ذلك الصوت الأنثوي الضاحك بشكل هستيري والمختلِط بأصوات الرِّجال الذين تفوح من أصواتهم جنون الشهوة والخيانة في لحظة اللاعودة . وهذا جعل منه إنساناً يحتقر النساء بلا استثناء وأولهن أمه الخائنة .

وفي الدَّير كانت جودي تدور في حجرتها كالمجنونة بحثاً عن صليبها . قلبت الغرفةَ رأساً على عقب. أين ذهب ؟ . فتَّشت في كل ما يحيط بها فلم تجده. ازدادت توتراً واكتئاباً . وارتمت على سريرها بعد أن أصابها اليأس الصادم كالجثة المصلوبة . لا بد أنها قد نسيته في مكان ما ، ولكن أين هو هذا المكان . هكذا كانت تفكر في نفسها . ذهبت إلى كاترين ولارا وسألتهما عن صليبها إذا كانتا قد شاهدتاه أم لا ، فأجابتا بالنفي . وصارتا تبحثان في الدَّير عن الصليب بشكل هوسي ، فهنَّ يعلمن حجم الكارثة التي ستقع في هذا المكان لو لم يجدنه .

كانت عايدة تتجسس على الحديث الذي دار بينهنَّ في إحدى الغرف واستمعت إلى كامل القصة . وانطلقت مسرعةً إلى تيريز لِتُعْلمها بالأمر . حدث ذلك قبل أن يخرجن من الغرفة ليبحثن عن الصليب . وما إن سمعت تيريز بهذا الأمر حتى رمت السيجارة من بين أصابعها الخشنة وداستها بقدميها ، وجُنَّ جنونها ، وصارت تتصرف كالممسوسة .

كانت تيريز مُدَخِّنة شرهة ، وهي لا تدخن إلا سجائر من نوع أجنبي، فالأنواع المحلية لا تعترف بها نهائياً . وهذا الدخان الأجنبي كان يصلها في طرود بريدية من شركات أجنبية في أمريكا وأوروبا. وقد كانت الوحيدة في الدَّير التي تدخن ولا تجد حرجاً أن تفعل ذلك أمام الناس ضاربةً عرض الحائط كل الانتقادات التي تعرضت

لها من داخل الدَّير ومن خارجه ، لكنها كانت من نوعية البشر الذين لا يهتمون بكلام الناس مطلقاً . المهم أن تفعل الشيء الذي يدور في رأسها المثقل نتيجة النيكوتين والقطران.

وأن ترميَ السيجارةَ من بين أصابعها فهذا يعني أن هناك كارثة مريعة قد حصلت . فليست من عادتها أن ترميَ السيجارة إلا عند امتصاصها حتى الرمق الأخير . وقبل عدة سنوات جاءها نبأ موت أمها ، لكن تيريز ظلت تُدَخِّن ولم يهتز لها رمش ، وقالت لمن نقل إليها هذا النبأ إنها ستفكر في الأمر بعد أن تنتهيَ من التدخين، وستحضر عندما يحين موعد الدفن. هكذا بكل برودة أعصاب كأن الميت قطة أو صرصار . إنها امرأة قاسية من ولادتها وحتى الآن ، ولا يوجد ما يدل على أنها ستغير طبائعها الشرسة . لذا فإن رمي السيجارة ينبئ عن أمر جلل موضوع في أقصى مدى الفظاعة والصدمة .

خرجت تيريز من غرفتها هائمة على وجهها ، وفي الممر رأت الراهبات الثلاث يفتشن عن الصليب ، فقالت بصوت أجش :

ـ عماذا تفتشن ؟ .

ارتبكت الراهبات لعلمهن بأن تيريز إذا عرفت الأمرَ سوف تحدث مشكلةً لا أول لها ولا آخر . ولم تجب الراهبات ، بل اكتفين بالصمت الفظيع وهن يحدقن في وجوه بعضهن البعض .

وقعت عينا تيريز على صدر جودي الخالي من الصليب ، فقالت لها :

ـ أين صليبك يا جودي ؟ .

احمر وجه جودي وبلعت ريقها بصورة تنبئ عن توترها قبل أن تجيب بكلمات مبعثرة لا رابط بينها والتلعثم يحاصرها من كل الجهات :

ـ إنه في ... في الغرفة ، أقصد كان في ... في الغرفة ، ولكن ..

ثم قرَّرت أن تكون صريحةً في ردها فقالت :

_ بصراحة يا أخت تيريز يبدو أنه ضاع مني .

انتفضت تيريز ونشرت ريشها كالطاووس المكبوت ، وقالت بصوت أقرب إلى الصراخ :

_ ربما قمتِ ببيعه لتطعمي ذلك المجنون أسعد ، فهذا ليس مستبعداً على مراهقة تافهة مثلك تفرط في صليبها الذي يضمن لها الخلاص .

صارت عينا جودي بعدما سمعت هذه الكلمات القاسية كرتين من النحاس المصهور نتيجة شدة الحرارة ، وطار عقلها لما سمعت تلك العبارات الحادة ، فقالت وصوتها منقوع في بركان التمرد والغضب :

_ لم أقم ببيعه أيتها العجوز الحيزبون ، وأسعد لا علاقة له بالموضوع ، وهذا الصليب لا يقدر أن يُخَلِّص نفسَه فكيف سَيُخَلِّصني ؟ . وإن الإله الذي يُصْلَب على خشبة الصليب لا يستحق أن يكون إلهاً لأنه لم يُدافِع عن نفسه فكيف سيدافع عني ؟ . أنا مؤمنة أن السيد المسيح لم يُصْلَبْ ، وهذا هو الحق المطْلق الذي جاء به القرآن والإنجيل الأصلي ، وكل ما سواه مردود . وكلماتي هذه أعظم من كل الأوهام ، وصكوكِ الغفران التي هي شيك بدون رصيد .

أُصيبت الراهبات بالصدمة المدوية التي تنحت في عظامهن أشكال الأعاصير الشرسة . كلهن يحدقن في جلودهن هاربات من جلودهن المصلوبة على خشبة الدهشة . إنه كلام لم يتعودن عليه . ارتجفن مثل زوارق محطَّمة نسيها أحد البحارة على شاطئ الكوليرا . حتى جودي نفسها لم تصدق أن تلك الكلمات قد خرجت منها . إنها أبجدية جديدة تنثر في الأرجاء الطوفان الشامل . هل كانت زلة لسان أم أنها كلمات دُبِّرت بليل ؟ .

كانت تيريز تدور حول رحى أشلائها المبعثَرة . أعضاؤها ترتجف بوضوح يشبه وضوح شاهد قبر مهاجِر إلى الباركنسون . تحوَّل جسدُ تيريز إلى مزرعة كهرباء مسيَّجة بكل أشكال الرعاش ، وقالت بصعوبة كأن الكلمات تُسحَب من بئر غائرة

في أحداق الموتى :

_ أيتها الكافرة الزنديقة الساقطة ! إن هذا ليس كلامك . وإن لم تقولي من أين جئتِ به فسأقتلك مثل الكلاب المتوحشة وأدفنك في أقرب مزبلة .

وهجمت تيريز على جودي ، وأمسكت بشَعْرها تجره بوحشية ، وتلطمها على وجهها، وحاولت جودي الدفاع عن نفسها لكن محاولاتها باءت بالفشل. واشتبكت الراهبتان في معركة عنيفة غير متكافئة بينما تدخلت الراهباتُ لفض الاشتباك وحجز كل واحدة عن الأخرى .

هربت جودي إلى خارج الدَّير سافرة . رأسها مكشوف ، وثيابها عادية ليست ثياب الكهنوت. وفي قدميها نعلان خفيفان. خرجت والبكاءُ يحتلها ويفرض عليها شروطه القاسية . وكلما مشت ازداد انهمار دموعها. توجَّهت إلى الشاطئ ، إنها تغذ الخطى باتجاه تلك الصخرة التي وجدت عليها الكتاب . جلست على الصخرة وزرعت بصرها في الغيوم المتجمعة على رأس البحر كالتاج . تمنَّت في قرارة نفسها لو يأتي صاحب الكتاب على فرس ويتزوجها ويرحلان معاً إلى بقعة في أعالي الموج ليست فيها تيريز أو صليبها الضائع . بدأت دموعها تجف تدريجياً . الرمل الأصفر واتحاد المد والجزر والطيور التي عادت تُحلِّق من جديد بعد أن هجرت المكان يوم حلَّقت الطائراتُ الحربية مكان الطيور . كل العناصر جفَّفت دمعها . لم تستطع مقاومة إغراء اقتحام الموج المتهادي على أنامل الشاطئ . تقدَّمت باتجاه الماء ودخلت البحرَ بكامل ثيابها دون أن تنزع قطعة واحدة ، ثم خرجت منه مبتلة كقطة سقطت من غيمة حمراء إلى رئة بحر مهاجِر أبداً . عاودت الجلوس على الصخرة وكلها حرص على عدم مس الرمل خوفاً من اتساخ ثيابها المبتلة، فإذا التقى الماء مع الرمل كان اللقاء عاصفاً . فكَّرت في التقاء هذه الشطآن الرملية مع الماء ، في عوالم ساعة الاصطدام . وانتبهت إلى أنها التقاء الطين مع الماء. إنه الإنسان التقاء الطين مع الماء في لحظة غائبة عن آبائنا عندما أنجبونا . كل هذه الأفكار تختمر

في ذهنها . وأيضاً صارت تفكِّر في الكلام الذي خرج منها ، هل تقصده فعلاً أم أنه كلام عابر في ساعة غضب ؟ . غيَّرت الموضوعَ بعد أن أقنعت نفسها أنها بحاجة إلى فترة استراحة من الأفكار . استمر نجاحها في تغيير الموضوع مدة بالغة القصر . ولكنها كلما حاولت نسيان ذلك الكلام خرج لها من ثقوب وجهها المتشظي ، من فم البحر، من الغيوم على شرفات الفجر البعيد. رأسها يذوب في حروف تلك الأبجدية الجديدة التي صدمت بها الراهباتِ في الدَّير المنزوي .

وبينما هي مشتبكة مع خواطرها وتأملاتها في الماء والطين والشطآن والأحزان لمحت أسعد يبني قصراً رملياً في ناحية بعيدة عنها . قرَّرت أن تذهب إليه لأنها محتاجة إلى أي أحد تتكلم معه حتى لو كان أسعد الذي يُنظَر إليه على أنه مجنون هذه البلدة، وأنه حصة البلدة من جنون البشر . لكن جودي لم تكن تنظر إليه بذلك المقياس ، بل بمقياس الرأفة به والعطف عليه . إنها تعتقد أنه ضدان التقيا في ساعة نحس بفعل أحزان قديمة عَبَرَت هذا الميناءَ المدمَّر .

ذهبت إليه فإذا به منهمك في تشييد منزل العمر ! . جلست بالقرب منه لكنه ظل مركِّزاً في عمله ، فقالت له :

ـ من سيسكن في هذا القصر يا أسعد ؟ .

نظر أسعد إلى البحر بعينين دامعتين كأنهما في رأس أرملة تنتظر عودة زوجها البحار الذي ابتلعه البحر لكنها تظل تعيش على أمل عودته الكاذب ، ثم نظر إلى جودي وقال :

ـ سأبنيه لتسكن فيه قطتي التي قتلوها مثلما قتلوني .

ـ ومن الذي قتلكَ وقتلها يا أسعد ؟ .

ـ إنهم الغزاة الذين يصنعون بساطيرهم من جلود الناس الطيبين .

وأردف قائلاً :

ـ هل تريدين أن أقول لك نُكْتة اخترعتها من رأسي ؟ .

ردَّت جودي وقد استحوذ عليها الابتسام والفضول :

_ نعم ، قلها بسرعة .

_ كان هناك مدير مخابرات نائم مع عشيقته ، فحضر أحد الضباط وأخبره بأن هناك محاولة لقلب نظام الحكم . فقال مدير المخابرات إنه سيتم ما بدأه ما عشيقته وسيأتي بعد ذلك دون تأخير .

انفجرت جودي ضاحكة من أعماق نخاع عظمها، ولم تستطع إخفاء تعجبها من كلام أسعد ، لكنها تعودت على الأمر فصار حديثه موغلاً في الدهشة بشكل اعتيادي. إنها تعتبره مثل المنجم وعليها أن تكتشفه وتُنقِّب فيه ، لذا كانت تسترسل معه في الكلام لتجعله يُعَبِّر عن كل ما يعتمل في دواخله، وكانت مطمئنة عندما تحادثه لعلمها أنه لن يَنقل كلامها إلى الآخرين ، ويتسبب لها بمشاكل في غنى عنها . لذا أخذ الحوار طابعاً خصوصياً لحاجة جودي الماسة إلى أي شخص يبادلها الحوار حتى لو كان أسعد العائش في التشرد ، والذي يحتقره الناسُ في هذه البلدة ، أقصد ذكريات بلدة هاجرت إلى أعماق الحزن البحري السحيق مثلما هاجر أبناؤها إلى الخارج بحثاً عن فرصة للحياة ، ولكن للأسف منهم من قضى غرقاً بعد أن ابتلعتهم الأمواجُ التي ظنوا أنها ستحملهم إلى النعيم ، وما دروا أن قواربهم التي استخدموها للهجرة غير الشرعية صارت توابيت شرعية لهم ، هذا إن وُجِدَت جثثهم أصلاً . إن أجساد الشباب الغضة تصير طعاماً للأسماك بكل سهولة ودون بيروقراطية . يهربون من الموت البطيء في بلادهم إلى الموت السريع في مياه تفصل بين ذكرياتهم والأغراب أصحاب القبعات المخيفة .

التفت أسعد في كل الجهات كأنه يطمئن على عدم وجود أحد ثم حدَّق في وجه جودي متجنباً النظر إلى عينيها بشكل مباشر ، مع ملاحظته أنها لم تلبس الصليب في عنقها ، ثم قال لها :

_ سأقول لك نكتة أخرى .

تحمست جودي وهزت رأسها كأنها تطلب منه أن يُسرع في قولها ، فقال :

_ لو تزوج بيل كلنتون مونيكا ، ماذا سينجبان ؟ .

وأردف قائلاً :

_ سينجبان صهيونياً صغيراً .

انفجرت جودي ضاحكة أكثر من المرة السابقة ، ولم تستطع أن توقف مسلسل ضحكاتها إلا بعد برهة . وعندما هدأت قال لها أسعد وعيناه منقوعتان في نشيد الريح والرمال :

_ مليون صليب يشرب دمك ، فاكسري الصليبَ الذي عُلِّقْتِ عليه مثلما كسر ابنُ الزُّبير الصليبَ الذي عُلِّق عليه لتكتشفي وجهكِ ! . دموعكِ تسيل على صليبك . أسمعُ صوتها الخشن فوق أسوار الدَّير العالية .

وقام أسعد تاركاً جودي القتيلة دَهْشةً بجانب قصره الرملي ، وغادر المكان وهو يصيح :

_ إن الغزاة الذين قتلوا قطتي قادمون . إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ .

انهمرت كلمات أسعد كالخناجر على رأس جودي . بدت الكلمات أسرع بكثير من جريان ذهنها على صفحة الفهم . إنها تلهث وراء حروفه لتلتقط أكبر قدر من الاستيعاب. بدأت تخاف من محادثة أسعد الذي صار كلامه كالغابة المدهشة إلى حد الخوف . كل حرف من عباراته غابة من الكهرمان الخام الذي لم يُكتشَف بعد. هكذا صار تحس بهذه الأبجدية الجديدة التي تتعلمها لأول مرة بعيداً عن اللغات الأربع التي تتقنها .

_ أسعد ! ارحمني قليلاً ، فأنا لا أتحمل كلماتك الجديدة التي تصعقني بها .

قالت في نفسها .

وبينما كانت الخواطر تدور في ذهنها هجمت موجةٌ ودمرت القصر الرملي ، وبلَّلتْ قَدَميها . أحست أن الطوفان فعلاً قادم . لأول مرة تشعر أن موتها قد يأتي

من إحدى جهات البحر التي أحبته من كل قلبها ، حتى استوطن حبه في أقاصي شرايينها . هبَّت واقفة وابتعدت عن القصر الرملي الذي راح يضمحل شيئاً فشيئاً إثر تتابع الموجات على خاصرة المكان . وفي طريقها كانت تحاول أن تخترع نكتة مثلما فعل أسعد لكي تنتزع من قاع قلبها ضحكة . حاولت مرة ومرتين ففشلت لكنها نجحت في المرة الثالثة حيث ساعدها ذكاؤها الحاد في لملمة خيوط إحدى النكات ، فقالت مخاطبة نفسها في هذه المساحات الملقاة على أفق الجراح :

ـ كان هناك أمير أوروبي يلعب القمار مع عشيقته ، فجاءه مساعده وأخبره بأن الجيش قلب نظام الحكم ، فقال لهم إن الحكم غير المهم ، المهم ماذا حصل لكلبي ؟ .

وضحكت جودي مرة ثالثة بحيث إن من يراها تمشي وحيدة وتضحك يظنها مجنونة ، أو في عقلها مشكلة ما . إنها بحاجة إلى الضحك ، هكذا قرَّرت في نفسها . كل الأحزان هبطت على رأسها كمقصلة متوحشة ينهمر من نصلها أعواد الكبريت المشتعلة .

وفي الدَّير كان صراخ تيريز يقتلع الحيطانَ من جذور الريح . فصراخها ملأ المكان متفجراً في كل الجهات . إنها تنحت على ثياب المكان خطواتها المكهرَبة . لم تستطع أن تجلس . لا يمكنها أن تجلس حتى لو أرادت . نفسها تشتعل ناراً تأكل سعالَ البلاط بفعل الخطوات القاسية الخشنة . تدور كالثكلى التي فقدت ابنها في المعركة وصارت تفتش عنه بين أكوام الضحايا كالمجنونة .

نظرت تيريز إلى كاترين ولارا نظرة تحمل كل معاني الريبة ، وقالت :

ـ الآن سوف تخبراني ما الذي غيَّر جودي بهذا الشكل .

تلعثمت الراهبتان ولم تستطيعا إبداء أي جواب ، لكن لارا تمالكت نفسها وغلبت لسانها المعقود ، وقالت :

ـ نحن لا نعرف أي شيء عن أسرار جودي فهي لا تخبرنا بما يجري معها .

قالت تيريز وجبينها يتفصد قلقاً وأرقاً واكتئاباً فضلاً عن العرق :

_ هل غرفتها مفتوحة ؟ .

وهنا تدخلت عايدة بعد أن عدَّلت وضعية نظارتها السميكة التي بدت كأنها احتضار الأسماك في أقاصي الضوء الفُسفوري النابع من عظام الماء الثقيل، وقالت :

_ إن غرفتها مفتوحة .

رمت هذه الكلماتِ وكأنها تخفي سعادة باطنية بهذا الأمر الجلل الذي حدث في الدَّير وأحال سكونه القبوري إلى رعشة متمردة .

ركضت تيريز إلى الغرفة وبدأت تفتش في كل عنصر من عناصرها . قلبت السرير واللحاف رأساً على عقب . رفعت السجادة وبحثت تحتها عن أي شيء . المهم أنها تبحث . بحثت في خزانة ملابسها ورمتها على الأرض بعد انتهاء البحث . فتَّشت تحت السرير. اكتشفت علبةَ المكياج في أحد الأدراج، فقالت مخاطبة نفسها:

_ علبة مكياج ؟! .

وأردفت قائلة بسخرية بعد أن رمتها على الأرض :

_ لم أعد أعرف هل هذا دير راهبات أم مسرح عارضات الأزياء ! .

توجَّهت إلى الرف الذي عليه الكتب . قرأت عناوين الكتب عنواناً عنواناً : الإنجيل ، التوراة ، شرح معاني العهد القديم والجديد ، وكتباً كثيرة بلغات غير العربية . لكن الذي استوقفها كتاب " رسائل الإمام الشهيد حسن البنا " . أمسكته بكلتا يديها ، وقالت للراهبات الواقفات عند الباب كأنهن ينتظرن أوامر عسكرية من جهة عليا :

_ إذاً هذا هو الكتاب الذي غيَّر عقيدة جودي ؟ . من أين جاءت به ؟ .

في الحقيقة كان الكتاب مكتوباً بلغة مؤدَّبة ، ويعرض العقائد بأسلوب سلس

دون شتائم ، ولكن جودي بفعل الضغط الذي تعرضت له ، حوَّلت خطابها إلى خطاب هجومي عنيف .

وفتحت تيريز الكتابَ فوقعت عيناها على اسم " زياد خضر"، فقالت بسخرية:

_ ومن أين خرج لنا هذا التافه الآخر زياد خضر ؟ .. هل تعرفن أي شيء عن هذا الشخص ؟ .

هزَّت الراهبات رؤوسهن بالنفي . أما تيريز فقامت بإلقاء هذا الكتاب باتجاه عايدة فلم تتمكن من إمساكه فارتطم بنظارتها الساذجة ووقع الكتاب والنظارة على الأرض ، فلم تعد ترى إلا غبشاً ، وصارت تتحسس الأرضَ باحثةً عن الكتاب والنظارة. فلما رأت تيريز هذا المنظر ازداد استياؤها وتأففت بصوت عال ، وقالت:

_ ساعدن هذه العمياء في إيجاد نظارتها ، ولْيُحْرَق هذا الكتاب فوراً ، ولا أريد أن رأى كتباً إسلامية ما دمتُ في هذا الدَّير .. هل هذا مفهوم ؟ .

هزَّت الراهبات رؤوسهن للمرة الثانية ولكن هذه المرة بالإيجاب . فقد كُنَّ لا يجرؤن على الكلام وتيريز في فورة الغضب تلك ، لذا اكتفين بهز رؤوسهن .

كانت الغرفة فوضى عارمة مقلوبة رأساً على عقب. الأشياء مبعثرة وملقاة على الأرض ، بحيث يظن من يشاهد هذا المنظر أن لصاً دخل المكان وبعثر كل الأشياء بحثاً عن غنيمة . الملابس على الأرض ، والكتب على الأرض . وبصراحة ظننتُ للوهلة الأولى أنها لن ترميَ الإنجيل والتوراة على الأرض لكنها فعلتْ ، وهذا ما يُحَيِّرني .

وفي الوقت نفسه كانت جودي تفكِّر أن تشتريَ خبزاً من مخبز اليهودي الوحيد في هذا المكان لعل تيريز تنسى الموضوع حينما ترى اهتمام جودي بإحضار الحاجيات إلى الدَّير . هذا بالضبط ما كانت تفكر به جودي رغم قرفها من ذلك اليهودي الوقح ، ولكن لا خيار أمامها في الوقت الراهن .

ومضت إلى المخبز وهي تتمنى أن لا تصل أبداً . استقبلها اليهودي بابتسامته

الصفراء المعهودة ، وأول شيء لاحظه خلو صدرها من الصليب، فاستنتج في قرارة نفسه أن الصليب الذي اشتراه من أم وهبي هو صليب جودي بلا أدنى شك .

قال يعقوب مستهزئاً :

_ أهلاً بالقديسة الطاهرة جودي .

_ دعك من هذا الكلام .. أريد خبزاً بهذا المبلغ .

ومدَّت يدها لتناوله المال ، لكنه لم يأخذه كعادته ، وقال بخبث :

_ عندي شيء لك أهم من الخبز ! .

كانت جودي تعرف أن هذا اليهودي كثير اللغو ، فلم تعره اهتماماً ، وقالت بإصرار :

_ لا أريد هذا الشيء المهم .. تَرَكْتُه لك .. والآن أعطني خبزاً .

أخرج يعقوب الصليب من جيبه ، وصار يؤرجحه قائلاً :

_ هل يُذكِّرك هذا بشيء ما ؟ .

بزغت المفاجأة في عقل جودي بشكل صارخ . إنها مصدومة غير قادرة على الكلام . ((كيف وصل الصليبُ إلى يد هذا اليهودي التافه ؟)) . تساءلت في نفسها . وتمالكت نفسها واستجمعت عضلات لسانها قائلةً :

_ أيها السارق ! كيف سرقتَ صليبي ؟ .

_ لستُ سارقاً ، لكن هذا الصليب وصل إلي عن طريق أحد اللصوص ، وقد كنتُ أشعر أنه لكِ ، لذا خبأتُه ليصير أحلى هدية أقدمها لك دليلاً على صدق قصة حبنا ! .

ولما سمعتْ هذا الكلام طار عقلها ، فقالت :

_ ما الذي تهذي به أيها الأبله ؟ .. واحدة مثلي تحب واحداً حقيراً مثلك ؟ .. أعطني الصليب قبل أن ألم عليك الناس .

_ لقد دفعتُ فيه دم قلبي ، ولن أعطيَك إياه إلا إذا سمحتِ لي أن أُعَلِّقه على

صدرك .

صُعِقت جودي عندما سمعت هذا الكلام الوقح ، ولم تستطع تمالك نفسها فبصقت في وجه اليهودي ، وقالت :

_ صحيحٌ أنك كلب حقير ساقط لا شرف لك .

وانصرفت جودي والأرض تدور بها ودموعها تنحت أسماء الحزن في عينيها اللتين استوطنهما موسم البكاء . كأن اليوم بالنسبة لجودي هو موسم البكاء ، فدموعها لم تكد تجف حتى انهمرت من جديد . أما يعقوب فمسح البصقة بطرف كمه والابتسامة لا تغادر محياه .

كان يريد أن يحرق قلبها بهذا الكلام ليفرغ شحنات ساديته . تعمد أن يخدش حياءها ليبدوَ هو السيد الذي يملك أعضاء جاريته ويتحكم بشهوته وشهوتها. هكذا بالضبط كان يفكر . إنه آخر رجل على هذه الأرض يحترم المرأة . ولقد قال لأحد زبائنه ذات يوم إنه يرى تفاصيل حياته من خلال احتقار المرأة ، وإنه يود لو يمضغ جسدَها كالعلكة ثم يبصقه للكلاب الضالة . إنه مؤسس السادية في هذه البلدة المنكوبة .

كانت جودي تمشي والدموع تتساقط من عينيها كشلال في أقاصي جسد الدهشة . وصلت إلى الدَّير ولا تعرفُ كيف وصلت . واقتحمت بابَه مثل قائد مهزوم أُغلقت كل الأبواب أمامه إلا باب بيته الذي صار قبراً مفتوحاً على كل الشرايين والأحزان . كانت الراهبات يُحَدِّقْن في وجه جودي كأنهن شواهد قبور منسية . وقد التحفن الصمت الرهيب ، وبدا المشهد كمسرحية مطبوخة مسبقاً . وحينما رأت جودي هذا الوجوم آثرت عدم إلقاء التحية لاعتقادها بأن أحداً لن يجيبها خوفاً من نقمة تيريز . هكذا كانت تعتقد .

ويا لها من مفاجأة صاعقة حين رأت غرفتها مقلوبة رأساً على عقب . وهذه الفوضى لم تحدث أيام الحرب ، لكنها تحدث الآن في حرب أكثر شراسة .

امتصت جودي الصدمة سريعاً لأن قواها خائرة ولا تقوى على الجدال والعراك . إن كثرة جروحها قد أفقدتها الإحساس بالجرح . إنها تحمل على ظهرها قروناً من التعب . ارتمت على سريرها الفوضوي وغرقت في النوم سريعاً .

٧

كانت ديالا تتناول طعام الإفطار في شقتها المتواضعة في الساعة العاشرة والربع. فهي تعيش وحيدة في هذا المكان . كان الفطور كأنه قارورة سم ودَّت لو تتجرعه ليقضيَ عليها بسرعة وترتاح من حياة الاكتئاب التي تعيشها . هكذا تدور الخواطر في ذهنها . وأثناء تناولها للطعام وقع بصرها على إحدى البراويز المغبرَّة على الحائط البعيد. إنها صورة كارل ماركس ! . وماذا يفعل كارل ماركس هنا ؟! . إنه برواز أهداه لها هاني قبل سنة تقريباً ، وقال لها ساعتئذ :

ـ إنه أفضل شيء أقدمه لك في عيد الحب .

ولم تكن ديالا تعرف مَن هذا الشخص ذو اللحية الكثيفة ، فقالت له بكل سذاجة :

ـ ولماذا أهديتني صورة جَدِّك ؟! .

انفجر هاني ضاحكاً حينما سمع ذلك الكلام ، وقال :

ـ إنها ليست صورة جدِّي ، بل صورة كارل ماركس زعيم حزبنا وأعظم فيلسوف في التاريخ ... وقد كان بإمكاني أن أشتريَ لكِ شيئاً لكن هذه الصورة أعظم هدية .

وفي واقع الأمر لم يكن هاني مقتنعاً بهذه الصورة كهدية . وإنما أراد توفير ثمن هدية ، فبرقت في ذهنه فكرة هذه الصورة التي أعطاه إياها الأمين العام للحزب . وكان قد رماها في قبو خمارة والده مع زجاجات الخمر المكسورة. وكان الغبار قد أكل تلك الصورة ، واتخذتها الفئرانُ ملعباً لها . وقد قام بتنظيفها وإهدائها لصديقته ليبدوَ مثقفاً حزبياً ومفكراً سياسياً .

نظرت ديالا إلى الصورة باشمئزاز ، وقالت كأنها تخاطب كارل ماركس :

ـ إنك حقير ، لأنك لو لم تكن حقيراً لما وضعك هاني الكلب في برواز. تركتُ للكلاب أمثالكم عيد الحب .

وألقت صحن الملوخية على الصورة فانكسر زجاج البرواز،واصطبغت الصورة بالملوخية ، بحيث صارت اللحية كأنها تقطر ملوخية .

والعجيب أن الملوخية كانت ضمن إفطار ديالا ، فهي الوجبة الرئيسية في عشاء يوم أمس . وقد تبقى جزءٌ منها كان موضوعاً في الثلاجة ، فتكاسلت ديالا أن تعيد تسخينه فأحضرته من الثلاجة بارداً ليصير وجبةَ الإفطار الرئيسية .

وبعد أن تناولت إفطارها أحضرت ورقةً وقلماً وشرعت تكتب استقالتها . كانت العبارة الأولى في أعلى الصفحة " بسم الله الرحمن الرحيم " . كأن يدها خطَّت هذه العبارة لوحدها . يد تتحرك في زحمة الفراغ . إنها لا تعلم كيف كتبت هذه العبارة مع أنها كانت تعتبر نفسها خليطاً من الأديان والإلحاد ، تعتبر نفسها مسلمة مع المسلمين ونصرانية مع النصارى ويهودية مع اليهود وماركسية مع الماركسيين . إنها ضائعة في هذا الوجود بلا قلب . تمشي هائمة على وجهها ومستقبلها أضحى وراءها . تَرَكَّز نظرها على لفظ الجلالة فشعرت برعدة مدوية استولت عليها . انهمرت الدموع من عينيها بحركة لا إرادية . صرخت في هذا المدى اللانهائي من القشعريرة :

ـ رَبِّ تَدَخَّلْ لإنقاذي .. أرجوك لا تتركني لوحدي .. أنا أحتاج إليك ، ثم نطقت الشهادتين والدموع تسيل على وجهها فيضاناتٍ .

لقد مضى وقت طويل على آخر دعاء دعت به . لو لم تمنعني يا أبي من ارتداء الحجاب لكنتُ الآن في عالَم آخر لا يوجد فيه صاحب المحطة ولا هاني ولا الخمور ولا السهر ولا الضياع . هذه المعاني تتردد في ذهنها كالومض الذهبي الحارق . تريد أن ترميَ ضعفها على كاهل أي أحد . المهم أن تلقيَ العبء الثقيل

عن ظهرها ولا يهم من يحمله . إنها تعيش حالة نفسية صعبة بعد الفعل الذي اقترفته مع هاني، أو هاني الكلب حسب تسمية ديالا . لم تنم ليلة البارحة جيداً، فقد قضت الليل مفكرة في موضوع الاستقالة ، استقالتها من المحطة التلفزيونية . فالاكتئاب والقرف والملل، كل هذه الأشياء أحاطت بها في يوم نحس مستمر . لقد تعبتْ من تحمل تصرفات صاحب المحطة السافلة وتحرشاته الجنسية بها. تريد أن يأتيَ عليها يوم لا تجد نفسها مرغمة على الخضوع لموجة التنازلات من أجل لقمة الخبز . تريد أن تتحرر من الرق الذي عاد بأثواب وأقنعة جديدة .

أوقفت سيارة تاكسي وطلبت من السائق إيصالها إلى إلى المحطة التلفزيونية . وعندما دخلت المحطة التلفزيونية رأت المصور رشيد الذي قال لها :

_ لماذا تأخرتِ يا ديالا ، لقد انزعج مدير المحطة وثارت ثائرته .

لم تجبه ديالا ، وإنما استمرت في المشي كأنها ما سمعت شيئاً . إنه تعرف طريقها بدقة . تعرف ماذا تريد . لأول مرة تحس أنها تعرف ماذا تريد . إن هدفها لا يبعد عن حلمها بالانعتاق سوى مسيرة ثوانٍ بسيطة. باب مكتب صاحب المحطة . ستضع أمامه الاستقالة وتنصرف لتصير حرة . كم وددتُ لو أكون حرة ! . لا أريد إغراء مالياً ، لا أريد أموالكم . سأبحثُ عن عمل آخر والله رزاق. كان لفظ الجلالة يهزها هزاً لكنه سرعان ما يزيدها طمأنينة لم تتعود عليها .

قرعت البابَ فجاءها صوتُ صاحب المحطة من الداخل :

_ تَفَضَّلْ .

دخلت ديالا فرأت صاحب المحطة وراء مكتبه يجلس على الكرسي الهزاز ويضع رجليه على المكتب . كان حذاؤه مواجهاً لديالا بصورة تعكس قلة أدب . لكن الأدب موضة قديمة عند صاحب المحطة لذا ظل على جلسته تلك لم يغيرها. استقرت ديالا أمامه كما تقف التلميذة الخائفة من العقاب أمام أستاذها الذي يتحكم في علاماتها ويقرر نجاحها أو رسوبها . هذا الخاطر سيطر عليها لبرهة من

الزمن .

قال صاحب المحطة مستهزئاً :

_ لماذا جئت مبكرةً هذه المرة ؟ .

ونظر إلى ساعته فإذا هي الحادية عشرة والنصف .

تقدمت ديالا بخطى وئيدة وأخرجت من جيبها ورقة الاستقالة ووضعتها قريباً من يد صاحب المحطة وبعيداً عن حذائه اللامع . تناول الورقةَ دون أن يغير جلسته، وأول ما وقعت عليها عيناه عبارة " بسم الله الرحمن الرحيم " فابتسم ابتسامة صفراء وقال بكل استهزاء :

_ منذ متى وأنت تضعين البسملة على أوراقك يا فضيلة الشيخة ؟! .

وراح يقرأ الورقة كلمة كلمة ، وما إن انتهى من قراءتها حتى قال :

_ فكِّري يا ديالا بموضوع الاستقالة جيداً.هذا يعني أنك ستصبحين في الشارع بدون دخل مادي . وبالنسبة إلي ليس عندي مشكلة ، واعتبريني موافقاً على الاستقالة . وسأحضر عشرين مذيعة ومراسلة بمواصفات إغراء عالية . أنا أشتري أجساد المذيعات والمراسلات بأموالي . كلهن للبيع وأكثر من الهم على القلب . والآن انتهت المقابلة ، مع ألف سلامة .

أحست ديالا أنها خسرت اللقاء بصورة صاعقة وأن نتيجتها صفرٌ رغم انعتاقها من رق هذه المحطة حسبما كانت تشعر . لكن حجم الإهانات التي هبطت على جمجمتها تفوق قدرتها على الاستيعاب والمجادَلة، لذا انسحبت بهدوء وأغلقت الباب وراءها كقطة مبلولة خرجت من المستنقع للتو . وبينما هي خارجة من هذا المكان راقبها المصورُ الذي كان يرافقها دون أن ينبس ببنت شفة ، فهي لم ترد عليه في المرة الماضية ، فآثر أن يحتميَ بالصمت العميق واكتفى بمتابعة خطواتها وهي تغادر هذه البقعة الغارقة في ملح الدموع .

إنها تجر خطواتها كحصان مُتعَب يجر عربةً ثقيلة وراءه ويحمل أشباح تاريخ

أسرته المعلَّقة على أعواد المشانق . هدفها التالي هو خمارة الأرمني لعلها تلتقي بهاني ليساعدها في البحث عن عمل . وصلت إلى الخمارة وولجت إليها فالتقت بالأرمني العجوز هاكوب الذي استقبلها بابتسامة عريضة ساذجة بعض الشيء قائلاً :

_ أهلاً وسهلاً يا ست ديالا ، لماذا غبتِ عنا كل هذه الفترة ؟ .

_ ها أنا ذا عدتُ .. هل هاني موجود ؟ .

_ إنه في الداخل .. سأخبره بقدومك حالاً .

ومضى الخمار الأرمني إلى الداخل ليخبر ابنه بقدوم ديالا . كان هاني مستلقياً على السرير واضعاً رجلاً على رجل ومروحة السقف تدور بأقصى سرعة .

قال الأب :

_ إن ديالا في الخارج تريد أن تراك .

_ قل لها إنني غير موجود أو نائم .. تَصَرَّفْ يا أبي ، فأنا لا أريد أن أراها .

_ ولكنني قلتُ لها إنكَ في الداخل .

وتأفف هاني لما سمع هذا الكلام وأخبر والده بأنه لا يريد أن يراها، وترك مهمة اختراع حجة لوالده الذي أضحى حائراً بين الاثنين. صحيحٌ أن هاكوب معتاد على الكذب لكن هذه المرة ستبدو صورته سيئة للغاية أمام ديالا ، فالتراجع عن الكلام له وقع مؤلم بالنسبة للرجال سواءٌ كانوا محترمين أو غير محترمين .

خرج هاكوب من الغرفة الداخلية ، وابتسم نصف ابتسامة ، وقال :

_ اعذريني يا ديالا فقد وجدتُ هاني نائماً ، وكنتُ أظن أنه مستيقظ ، فاعذريني .

إنها تعلم في قرارة نفسها أن كلام هاكوب كذب، وأنه هاني لا يريد أن يراها. لكنها أرادت مواجهة هاني لو للحظة ، فأخذت قرارها بأن تقتحم عزلته بمفردها ، فمضت إلى الداخل وهاكوب ينادي عليها ولكن دون جدوى. رأت هاني مستيقظاً

وجسمه أشبه بجسم المخدَّر . التقت عيناهما في لحظة نحس آثمة ، وقالت ديالا :

_ لماذا تتهرب مني يا هاني ؟ أنسيت ما كان بيننا ؟ .

رد هاني وهو يتصنع الغفلة والسذاجة :

_ وماذا كان بيننا ؟ .

ضحكت ديالا كأنها تستهزئ به ، وقالت :

_ أريد أن أقول لك كلمتين فقط : إنك وغد .

وخرجت ديالا من هذا المكان الآثم مسرعة وهي تصارع رغبة جامحة في البكاء اللانهائي . أما هاني فصار يكلم نفسه قائلاً :

_ لنفترض أنني وغد ، وهذا افتراض صحيح ! ، لن أكون أول وغد على هذه الأرض ولا آخر وغد. وكلمة وغد لم تعد تزعجني، بل تريحني من ثقل الكوابيس التي تحتلني ! .

كان هاني في أسوأ مراحل الانهيار الداخلي. لقد مات الإنسان الذي في داخله، وشرايينه صارت وحوشاً تتغطى باللامبالاة المقنَّعة . لقد صار وغداً حقيقياً باعترافه، والاعتراف سيد الأدلة . كل أشياء تلك الحجرة الضيقة خناجر في خاصرته ، ودبابيس تتساقط على جمجمة المكان الموحش وهذه الجدرات المتوحشة .

عادت ديالا إلى شقتها التي بدت كشعلة منطفئة في أقاصي الاكتئاب . أسرعت نحو هدف معين لكنها لم تعثر على مبتغاها . كانت تبحث عن مضاد الاكتئاب ، وأخيراً وجدته إلى جانب سريرها . تناولت ثلاث حبات دفعة واحدة وتجرعت كوباً من الماء كان موضوعاً إلى جانب الدواء ومغطى بصحن صغير . ذهبت إلى أوراقها لتجهز سيرتها الذاتية التي تحتاج إليها في سعيها نحو إيجاد عمل جديد . هي الآن بدون مصدر دخل . ورصيدها البنكي صار هباءً منثوراً بعد

أن هبطت العملة المحلية إلى الحضيض بفعل الحرب . وكلما نسيتِ الموضوعَ عادت وتذكرَتْه ولامت نفسها أن وثقت بالعملة المحلية . لكنها ما زالت تملك مبلغاً من المال تقاضته كرشوة من أحد رجال الأعمال لقاء أن تجريَ معه حديثاً تلفزيونياً يرفع أسهمه في السوق ويبرزه كرجل أعمال ذي مكانة. أظن أن المبلغ كان ثلاثة آلاف دولار . ذهبت إلى المكان الذي تخبئ فيه هذا المبلغ واستخرجته وحضنته لأنه الأمل المادي الوحيد الذي بقي لديها في عزلتها الوحشية ووحدتها الكارثية . قرَّرت أن تخبئ هذا المبلغ لأيامها السوداء وما أكثرها وأن لا تصرف منه شيئاً إلا للضرورة القصوى ، وأن عليها البحث فوراً عن عمل بدون رضوخ للتحرشات الجنسية . جهَّزت سيرتها الذاتية وخرجت من بيتها وصارت تدور باحثةً عن عمل . وبعد ساعات طويلة من البحث وجدت عملاً عند طبيب نسائية وتوليد كان هو الآخر يبحث عن سكرتيرة ترتب جدول أعماله ، فالسكرتيرة السابقة تركت العملَ للتو بسبب قلة المردود المادي ، هذا ما قالته . وكان الطبيب مستعداً لقبول أية واحدة في هذا الظرف الحرج لترتب مواعيده ، لذا لم يلتفت إلى سيرتها الذاتية . أما ديالا فوافقت بدون تفكير فالعثور على عمل في غضون ساعات يعتبر إنجازاً تاريخياً بالنسبة للعاطلين عن العمل ، وبالنسبة للراتب الشهري فوافقت عليه بلا تردد رغم أنه يعادل خُمس ما كانت تتقاضاه من المحطة التلفزيونية لكنها اشترطت على الطبيب أن يدفع لها بالدولار فتم الموافقة ووقَّعت العقدَ سعيدةً بعملها الجديد غير مصدقة أنها خرجت من دائرة البطالة . وأيضاً كان الطبيب سعيداً لأنه وجد سكرتيرة تقبل بهذا الراتب المتدني ، وبدأت العمل في تلك اللحظة. وقد كان لديها إلمام طفيف بهذه المهنة من كثرة ما زارت الأطباء النفسيين وجلست في قاعة الانتظار تراقب ما تفعله السكرتيرات من الرد على الهاتف وأخذ المواعيد وتنظيم دخول المرضى .

٨

كان الشيخ سليمان يقرأ في الكتاب الذي يؤلفه زياد " الرد على أرسطو " بعد أن استأذن زياداً . أما زياد فكان ينشر الغسيلَ على الحبال ، ولما فرغ من عمله عاد إلى غرفته حيث وجد الشيخَ مستغرقاً في قراءته فلم يشأ أن يقطع عليه قراءته . توقف الشيخ عن القراءة ، وقال :

ـ إنه كتاب عظيم يا فيلسوف زياد ، هل ألَّفته وحدك ؟ .

ـ نعم يا شيخ ، وعلى أية حال فهذا الكتاب ما زال ناقصاً بحاجة إلى عدة فصول ، وأتوقع أن يصل عدد صفحاته إلى ستمائة صفحة . أما لقب فيلسوف فهو أكبر مني ، ولن أُصبح فيلسوفاً إلا إذا صنعتُ تلاميذ يتفوقون عليَّ ، فهذه أكبر نظرياتي الفلسفية .

ـ إنه كتاب ضخم ومهم ، لكنك تحتاج دار نشر تقبل أن تنشره .

ـ هذه هي المشكلة في كل الموضوع ، فأمة اقرأ لا تقرأ ، ودور النشر تستغل الكاتب حتى النخاع ، وهي تأخذ من المؤلف مالاً ولا تعطيه ، لكن الأمر يستحق العناء والمحاولة .

قال الشيخ مغيِّراً الموضوع :

ـ قل لي يا زياد لماذا انضممتَ لجماعة الإخوان المسلمين .

ـ بدايةً يا شيخ يجب أن تعرف أني كافرٌ بالديمقراطية وكافر بالدستور ، ولا دستور إلا القرآن والسنة، لكننا في الجماعة نشارك في الانتخابات رغم أن الحكومة تزوِّرها لتأتيَ بالمرتزقة من الأعراب الرعاع الذي يخدمونها لقاء المال ، ونشارك في البرلمان المهزلة لئلا نترك المجال مفتوحاً للصوص الحكومة كي يسرقوا الشعب دون رقيب أو حساب . هذا كل ما في الأمر .

ـ هناك سؤال شخصي ما زال يرن في ذهني ، وهو لماذا لم تتزوج حتى الآن ؟ .

ابتسم زياد ، وقال :

_ بصراحة يا شيخ أجمل حب أنا خسرتُه ، ولستُ مستعداً أن أدخل تجربة احتمال فشلها أضعاف احتمال نجاحها . والمشكلة أن هناك عشرات النساء في رأسي ، وقد أضعتُ وقتي في الاختيار بينهن ، ومن يرد كل شيء يخسر كل شيء . كلهن ركضن ورائي، وكنتُ شريفاً في الحب والحرب . ولو أردتُ الخيانة لكنتُ الآن أشرب الشمبانيا مع أميرات أوروبا . أنا أكثر شخص ركضت وراءه النساءُ ، وأكثر شخص أضاع من بين يديه النساءَ . والمشكلة أن قلبي ليس معي ، إنه مع نساء دخلن في الشفق ولم يخرجن بعد ، فلم أعد أعرف مصير قلبي . إن المرأة التي أحبها بعنف أبتعد عنها نهائياً . أنا مُخْلِص لأشباح النساء اللواتي عَبَرْن في حياتي وطَوَيْنَ قلبي كسجادة الصلاة . وكل امرأة عبرت في ذاكرتي دمَّرت حياتي عن غير قصد ، ورحلتْ تاركةً كل آلام النزيف المنهمر من كل أجزائي. لكن المرأة الوحيدة التي مس جِلدُها جِلدي هي أمي، وإنني أعترف بأنني لا أشعر بالطمأنينة إلا مع أمي، ولا أتخيل نفسي قادراً على العيش مع امرأة غيرها . ما زال صوتها وهي توقظني لصلاة الفجر يرن في نخاع عظمي . هي الآن تحت التراب، رحمها الله ، وقد اختفى آثار قبرها تماماً بعد القصف الهستيري العنيف على المقبرة ، ولستُ أدري لماذا قصفوا تلك المقبرة أثناء الحرب . أنا لستُ متشائماً أو سوداوياً لكن زواجي قد يعيق حياتي الجهادية الثورية ، لذلك كنتُ أدعو عقب كل صلاة : اللهم حَرِّمْ جسدي على نار الدَّارين ونساءِ الدنيا . أضف إلى هذا الآية القرآنية الشريفة : ﴿ سَيِّدَاً وَحَصُوراً ﴾ ، والحصور كما تعلم يا سيدي الشيخ هو الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك ، فقد مدح اللهُ سيدنا يحيى ﷺ لأنه لم يتزوج مع قدرته على ذلك ، كما عُطِفَت لفظة " حصوراً " على " سيداً " كأن عدم إتيان النساء مع القدرة على ذلك قرين السيادة والشرف. ومع هذا فأنا لستُ ضد الزواج إذا كان متوافقاً قلباً وقالباً مع الشريعة. وبالطبع فلا يوجد امرأة تنتظرك حتى المالانهاية. إن لم تتقدم سوف يتقدم غيرك ، وسوف ترى حلمك الوحيد في أحضان قلب آخر

أكثر جرأة منك .

لم يستطع الشيخ إخفاء إعجابه بهذا التفصيل الدقيق الذي قام بشرحه وتأصيله زياد ، وأدرك أنه أمام رَجُل متبحر ويعرف ما يقول ، لذا لم يُعَلِّقْ على ما سمعه والتحف بالصمت الباهر .

وفي الشارع كانت الصغيرة خولة تلعب كعادتها . ثيابها متسخة ، والغبار يحتل جسمها المغطى بثياب بسيطة اشترتها لها أمها في العيد قبل الماضي . وبينما هي منهمكة في اللعب توقفت فجأة كأن شيئاً في داخلها ألح عليها بالوقوف . إنه إحساس غامض لم تجد له تعليلاً . سرَّحت نظرها باتجاه جهة تتكاثر كأحلام الدبابيس الشمسية . رأت رجلاً ببزة عسكرية قادماً من أقاصي جرح الجهات . تجمدت البنت في موقعها الذي صار كأنه قبرها الكلسي الذي لن تخرج من دائرة نفوذه . كلما اقترب ذلك الجندي العائد من القتال تقلَّصت أعضاء البنت الصغيرة حجراً حجراً . بسطاره محتل من قبل الغبار ، والقبعة التي على رأسه كأنها تفاحة ذابلة في حديقة لم تجد أميرة تزورها أو تقطف الثمار الناضجة فاحتلها الذبول . حقيبته على ظهره مثل جبال جليد لا نهائية تلتهم خاصرةَ الموج . إنه يقترب لكن وجهه ما زال بعيداً عن مدارك البنت . تفاصيل الوجه غائبة لكنها تبزغ شيئاً فشيئاً مثل براعم نبات مجهول الهوية أو مجرد من جنسيته . ازداد الجندي اقتراباً وازدادت خفقات قلب الصغيرة بصورة زلزالية .

ـ إنه أبي ! .

صاحت البنت في هذا الفضاء . لكن الأطفال ظلوا منشغلين في اللعب ذاهلين عن صراخها. وبفعل الصدمة لم يخطر على بال الصغيرة أن تذهب لترتميَ في أحضان أبيها . شعرت بخوف المفاجأة التي هبطت كالصاعقة ، فلم تتحمل هذه الصدمة ، وركضت البنت إلى بيتها كالمجنونة . قرعت الباب بشدة وبعد برهة فتحت لها أمها قائلةً :

_ لماذا تطرقين البابَ هكذا ، هل جُننتِ ؟ . إن جدك نائم في الداخل .

_ أبي ، إنه أبي .

لم تفهم الأم ما معنى هذا الكلام ، فقالت :

_ وما شأن أبيك بالموضوع ؟! .

_ لقد عاد أبي ، لقد عاد .

_ هل أنت متأكدة ؟ .

_ لقد رأيتُه ، لقد عاد أبي .

طار عقل الأم من الفرحة ، وطلبت من ابنتها إخبار عمها زياد بهذا النبأ . وأسرعت الأم إلى الداخل كالممسوسة لتخبر أهل الدار بمجيء زوجها العائد . أيقظت عمها بعنف غير مقصود وصوت متفجر عال لتخبره بالنبأ :

_ استيقظ يا عمي ، لقد عاد زياد .. استيقظ .

فتح عينيه مذهولاً كأنه غائب عن هذا العالَم، وهو لا يدري هل هو في حلم أم أنه مستيقظ ، وقال :

_ هل أنا مستيقظ أم أحلم ؟ .

_ إنك مستيقظ يا عمي ، لقد عاد بلال من الجيش .

وعندما سمعت فاطمة هذه الضجة أسرعت ظناً منها أن أباها قد حصل له مكروه . أقبلت بوجه نصف ملوَّن نتيجة القلق والاضطراب على والدها ، لكن الطمأنينة تسرَّبت إليها حينما رأت والدها مستيقظاً بصحة جيدة ، وقبل أن تتفوه بأية كلمة باغتها أبوها بالكلام قائلاً :

_ لقد عاد بلال يا فاطمة ، عاد أخوك من الجيش .

اغرورقت عينا فاطمة بالدمع وكادت تجهش بالبكاء لولا أن أمسكت نفسها . وبدت مشاعرها للوهلة الأولى حيادية لأن المفاجأة جعلت منها قطعة خشب راسبة في قعر مجرة مسافرة إلى الغموض .

قالت فاطمة :

_ تعالي يا فايزة لِنُبَدِّل ثيابنا ، فليس جيداً أن يرانا بلال بثياب المنزل البالية .

استحسنت فايزة الفكرة ، وذهبتا مسرعتين لإرتداء أجمل ما عندهما . وبالطبع كان أجمل ما عندهما ثياباً اشتراها لهما بلال في العيد ،كان ذلك قبل أربع سنوات .

أما الصغيرة خولة فكانت تأكل الدرج بأسنانها . هكذا خُيِّل إلي من سرعتها الجنونية . طرقت البابَ طرقاً عنيفاً بكلتا يديها ، فارتبك الشيخ قليلاً وقال مخاطباً زياداً بصوت خفيض جداً يكاد يكون صمتاً من نوع آخر :

_ إنها المخابرات .

ارتبك زياد هو الآخر ، وطلب من الشيخ أن يختبأ تحت السرير ففعل الشيخ . ارتمى على الأرض ، ودس نفسه بصعوبة تحت السرير . وبصراحة لقد اتخذ زياد هذا القرار بسرعة واستجاب له الشيخ بسرعة دون تفكير عميق أو تخطيط .

قال زياد :

_ مَن بالباب ؟ .

_ أنا خولة يا عمي .

تنفس زياد الصعداء وطلب من الشيخ الخروج من تحت السرير ، فالأمر لا علاقة له بالمخابرات. خرج الشيخ وهو ينفض الغبار الكثيف والأوساخ التي علقت بثيابه . أما زياد فبدا عازماً على توبيخ الصغيرة بسبب طريقتها المرعِبة والمزعِجة في قرع الباب والتي جعلت قلبيهما يقفزان من مكانهما . فتح الباب وصرخ في وجه الصغيرة :

_ لماذا تقرعين الباب هكذا ، هل أنتِ مجنونة ؟ .

أثَّرت هذه الكلمات في نفسية الصغيرة ، فتهادى الدمع في الأحداق الصغيرة دون أن ينهمر . أشفق زياد على ابنة أخيه ، وقال :

_ أنا آسف يا خولة ، ولكنك زرعتِ الرعب في قلبي .

وكان زياد حذراً في استعمال المفرد وليس المثنى ، فقد قال قلبي ، ولم يقل قَلْبَيْنَا خوفاً من أن تشك الصغيرة بوجود أحد غير زياد في الغرفة. وستكون بالفعل مصيبة عظيمة إذا انكشف سر اختباء الشيخ في تلك الغرفة .

قال زياد بعد أن اعتذر لابنة أخيه :

_ ما الموضوع يا خولة ؟ .

انتصرت خولة على رغبتها العارمة في البكاء ، وقالت :

_ لقد عاد أبي من الجيش .

انفجر زياد ضاحكاً من الفرح بصورة هستيرية . وانطلق حافي القدمين يجري كشخص هارب من وحوش الغاب . وخولة تحاول عبثاً أن تلحق به . وقد اكتشف في منتصف الطريق أنه حافي القدمين ، لكنه قرَّر أن يكمل مشواره وأن لا يعود ، فالأمر من وجهة نظره لا يحتمل التراجع . أما الشيخ فكان في الداخل مصاباً بالريبة نتيجة عدم فهم الموضوع ، فهو لم يستمع إلى الحوار الذي دار بين الصغيرة وعمها . ولم يملك إلا أن يغلق البابَ وينتظر قدوم زياد ليشرح له ما يحدث .

ولم يكد بلال يصل إلى باب بيته حتى اشتبكت عيناه مع عيون أخيه زياد الحافي. توسط بينهما صمت رهيب كصمت بحارة ذاهبين إلى الطوفان وفي عيونهم ذكريات زوجاتهم وأبنائهم . أما خولة فكانت شبه مختبئة خلف عمها زياد تسترق النظر إلى أبيها كأنها خائفة منه ، أو كأنها أمام شخص غريب يرصد خطواتها ليقتنصها . هكذا بدت الأمور . لكن زياد فجَّر هذا الصمت المقيت بقفزة عابرة لأربع درجات واستقر به المقام في أحضان أخيه ، وصرخ بأعلى صوته :

_ أخي بلال ، حمداً لله على السلامة يا حبيبي .

ودخل الاثنان في عِناق حاسم معزولَيْن عن العالَم المحيط بهما . إنهما نورسان دخلا في عزلة البحر البعيد عن أصابع الرمل . صار الجسدان جسداً واحداً مغلَّفاً

بذكريات الطفولة أيام كانا يذهبان مع أبيهما لصلاة الجمعة ويستمران في اللعب في المسجد وعيون المصلين تحاصرهم من كل الجهات . كانا طفلين صغيرين لا يفهمان معنى الصلاة ، وما إن يريا السجاد المفروش في هذا المدى المشرِق حتى يطيرا مثل سمكتين تركتا البحر إلى الأبد واستوطنتا الفضاءَ الشاسع . وعلى الرغم من تنبيه أبيهما لهما قبل الدخول إلى المسجد بضرورة الهدوء والتأدب إلا أنهما كانا يشعران بأنهما وردتان سابحتان في ملكوت الله خالق هذا المدى متحررتان من أتربة الروحِ وعناصر المذنَّبات الراحلة على الدوام . ذكريات الأزقة الفقيرة حيث العجائز يجلسن أمام أبواب بيوتهن وحيدات ، أذهانهن خالية إلا من التفكير بأبنائهن الذين هاجروا إلى أمريكا . لعبُ كرة القدم ، والحقيقة أنها لم تكن كرة قدم بالمعنى السائد لأنهما لم يكونا يملكان ثمن كرة قدم ، وإنما هي مجموعة من الجوارب البالية يجمعانها من هنا وهناك ويُكَوِّرانها على شكل كرة ، وينطلقان مع أطفال الحارة يلعبون وهم يظنون أنهم لن يفترقوا أبداً . وما دروا أن كل واحد منهم سيذهب في طريق ، وتصبح ضحكاتهم وثيابهم المتسخة جراء اللعب وأهدافهم في مرمى الخصم جزءاً من الذكريات الجريحة التي لا تعود .

دخل زياد في عزلة البكاء اللازوردي الملتهِب، وصار يبكي بحرقة عنيفة ، فقال له بلال :

_ لماذا تبكي ؟ . إن الرجال لا يبكون .

وما إن أنهى بلال كلامه حتى دخل هو الآخر في البكاء بحرقة أكبر من حرقة بكاء أخيه . كانت الذكريات تمتص دموعهما حتى الرمق الأخير . أما خولة فلما شاهدت منظر البكاء استسلمتْ للبكاء بصوت عال ، وكأن هذا اللقاء الذي يُفترَض به أن يكون عرساً صار عيداً للدموع . انفض العِناق بسبب بكاء الصغيرة. نظر إليها أبوها بعينين حالمتين نخرتهما الدموع :

_ تعالي يا خولة .

أحست خولة أنها أمام طوفان من الذكريات وآلام البعاد ، لكنها برغم هذا انطلقت كالسهم إلى أحضان أبيها ، واختبأت بين ذراعيه كحمامة تُغمِد أحلامها في عشها الحالم البعيد عن أيدي الصيادين . إنها يمامة تسكن في عشقها اللاسع وتتمنى أن لا تفارق تلك الأحضان الدافئة . قبَّلها أبوها وحَمَلها وألقى بها عالياً ثم التقطها . تناثرت دموعها في الفضاء وهي تضحك من كل قلبها . ألقاها مرتين أو ثلاث مرات والتقطها ، وهي تزداد ضحكاً وبهجة . صاروا يُجَفِّفون دموعهم قبل الدخول إلى البيت . والعجيب أن أحداً لم يخرج لاستقبالهم ، ولكن التعجب سوف يزول إذا علمت أن العجوز كان يُرَتِّب الغرفة لكي يجدها بلال في أحسن هيئة . أما المرأتان فكانتا مشغولتين في ارتداء أفضل ما لديهما ، وهما يتناوبتان على الوقوف أمام المرآة لتبدوَ الهيئة في أفضل حال . وهذا الذي أدى إلى عدم خروج أحد من البيت لاستقبال الجندي العائد من الحرب .

قُرِع الجرس فتأججت حالة الطوارئ في البيت الذي صار أشبه بخلية نحل رغم قلة السكان. مضى الوالد إلى فتح الباب . وما إن فتحه حتى التقت نظراته بنظرات ابنه في لحظة اصطدام عنيفة . ألقى بلال بنفسه في أحضان أبيه ، وتركا الصمت يقول تعاليم الشوق نيابةً عنهما ، أما هما فالتحفا بالذكريات الساكتة دون أن ينبسا ببنت شفة . وصار الوالد يتحسس وجه ابنه كأنه يريد أن يطمئن على صحته ، ويتأكد من عودة ابنه ، وأن هذا حقيقة واقعة وليس حلماً . وعاد الوالد إلى لغته أخيراً وهو يصارع ملح دموعه ببقايا أشواقه اليابسة مثل عروقه المتحجرة ، وقال بنبرة الرافض للدمع :

_ أهلاً وسهلاً بك في بيتك يا بلال .

_ كيف حالك يا أبي ؟ وكيف صحتك ؟ .

_ أنا بخير ، ولا ينقصنا إلا وجودك معنا . والحمد لله أن رجعت سالماً .

وأردف قائلاً بعد أن لاحظ دموعاً يابسة في عينيه :

_ ادخلْ سَلِّمْ على زوجتك وأختك ، ودعك من الدموع ، فنحن في عرس ولسنا في مأتم .

ومضى بلال إلى الداخل في حين أن الأب لم يتمالك نفسه فغرق في بكاء شرس لكنه حاول جاهداً أن يُخرِس صوتَ الدموع لئلا يحس به بلال .

خرجت المرأتان من الغرفة وهما في أحسن هيئة . كانت رائحة العطر تفوح من زوجته . وبالتأكيد فهو عطر محلي الصنع يفي بالغرض وليس أجنبياً، فهي غير قادرة على شراء العطور الأجنبية . دخل الزوجان في العِناق ، والمرأة تبكي في أحضان زوجها لكي تتم جدارية البكائيات في هذا الموسم الذي يبدو وكأنه موسم البكاء الأكيد . وتحاشى الزوجان أن يُقَبِّلا بعضهما البعض بسبب وجود أخته . وبعد العِناق قالت لزوجها :

_ حمداً لله على السلامة ، لقد اشتقنا إليك يا بلال .

واختارت فايزة لفظة الجمع " اشتقنا " ولم تختر لفظة " اشتقتُ " مع أنها كانت تود لو اختارت اللفظة بالمفرَد ، لكنها خجلت من وجود فاطمة التي يبدو أن وجودها كان سبباً في إضفاء البرودة على اللقاء والخروج من حميمية القبلات والاحتضان العنيف. كان قلبه يضحك لأنه عاد إلى شم رائحة زوجته ، ففي المعركة لن تشم رائحة زوجتك التي تحبها . ما أصعب أن تدخل في القتال عارياً من رائحة زوجتك وذكريات عائلتك . هذه الخواطر داهمته سريعاً وفرضت عليه حصاراً لذيذاً كان يود لو يدوم أطول وقت ممكن .

وعانق فاطمة ببرودة خفية لم تلاحظها أخته ، وربما ذلك راجع إلى أنه استنزف مخزون المشاعر الذي لديه بعد حفلة العِناق والأحضان الدافئة التي امتصت مشاعره حتى الرمق الأخير . ولكن على أية حال كان العِناق يفي بالغرض ، ولم ينس بلال أن يسأل أخته عن أحوالها وأحوال خطيبها . واختلطت المشاعر في نفسية فاطمة حينما تذكرت أن خطيبها لم يبعث لها رسائل منذ مدة طويلة ، فقالت

لأخيها كإجابة عن استفساره :

_ الحمد لله ، أنا في أحسن حال ، وبالنسبة لخطيبي أنس فقد انقطعت رسائله منذ مدة طويلة ، لكنني أشعر أنه في أحسن حال هو الآخر .

قال بلال مخففاً عن أخته :

_ لا تقلقي، كلها أيام وستشاهدين خطيبك واقفاً أمامك ، وسوف تَمَلِّين منه من كثرة ما ستشاهدينه .

_ مستحيل أن أَمَلَّ من أنس .

وداهمتها ممالكُ البكاء فانسحبت مسرعةً إلى حجرتها. أراد أخوها أن يلحق بها ليخفف عنها ، لكن زوجته اعترضته قائلةً :

_ دعها تبكي ، فهي تحب خطيبها بعنف ، والحب لا يكون حباً إلا إذا غسلته الدموعُ البريئة .

تعجَّب بلال من كلامها الفلسفي الشاعري ، وقال مازحاً :

_ يبدو أنك صرتِ شاعرةً في فترة غيابي . أنا أُقاتِل على الجبهة ، وأنتِ تكتبين القصائد ! .

_ لا تُضَخِّم المسألة . فأنا لستُ شاعرة ولكن لدي مجموعة خواطر ستعجبك كتبتُها خصيصاً لك .

_ سوف أقرأها الآن .

_ ليس الآن ولكن بعد أن تستحم وترتاح من التعب وتُغَيِّر ملابسك المتسخة .

ودخل بلال غرفته وهو ينتعل بسطاره القذر ، ولم ترد زوجته أن تطلب منه خلع ذلك البسطار لأنه لا تريد أن تستقبله بالأوامر والتعليمات ، لذا تركته على راحته ، يتصرف وفق الطريقة التي يحبها . كم مضى على مغادرته هذه الغرفة التي كان يفتقدها طوال المدة التي قضاها على الجبهة ؟ . هنا يغيب الزمان في وحشة

المكان ويستقيل مكان الألم من زمان الوحدة . هؤلاء العساكر لا يقيسون أعمارهم بالسنوات بل بالطلقات والقنابل والرتب العسكرية ، فالزمن عندهم ليس حفلة ذكريات صامتة بل معركة لا يملكون إلا أن يخوضوها . إنه يستنشق رائحة المكان الذاهب إلى تداعيات الحطام والخراب. رائحة خشب السرير الكالح. مذاق تموجات الخزانة القديمة المتكسِّرة . الأشكال الملوَّنة على السجاد البالي . دهان الحيطان المقشَّرة . آثار حذائه الخشن على السجاد الذي تعبت زوجته من كثرة ما تُنَظِّفه .

إنه يبتلع ذكريات روائح الأشياء وأشكالها ومذاقها ويُخَزِّنها في جمجمته طوابير من الأحزان الشقيقة. كم كان بوده لو يستطيع تجديد هذا المكان المثقَل بالفاقة والحرمان . يريد أن يدهن الحيطان بلون رومانسي أكثر ينسيه روائح البارود وأشكال المدافع وقذائف الطائرات والخنادق المغبرَّة . يشتهي إحضار خزانة جديدة في ذكرى زواجهما. ولكن متى ذكرى زواجهما ؟ . لقد نسيها ! . نعم نسيها . هو نفسه لا يُصَدِّق ذلك . صعقته المفاجأةُ ، ولم يكن يتخيل في يوم من الأيام أن ذكرى زواجهما ستذهب إلى أرشيف الذاكرة المنسية تماماً كما تذهب مُخلَّفات الجيش إلى المستودعات المهجورة، وتذهب المعلومات السرية إلى الأرشيف حيث الغبار يتزلج على سطوح الملفات المتآكلة .

لقد انتصر عليكَ النسيان يا بلال، أيها المقاتِل على كل الجبهات في الحروب الفوضوية التي لا معنى لها ، حروب يقتل فيها الأخُ أخاه ، لقد خسرتَ المعركتين : معركة الذاكرة الحديدية ومعركة الظلال اليابسة . تكالبت عليه هذه الخواطر واقتحمت جسده المنقوع في تواريخ البارود والرصاص والذخيرة الحية والخنادق والراتب الشهري . وصار يردد في ذهنه عبارة: لقد خسرتَ المعركتين ، كأنه يريد أن يُلَخِّص رحلته إلى اللاعودة، ففي الحقيقة هو لم يرجع ، وإنما بقي في المعركة تحت القصف الهستيري الشرس . والذي رجع منه هو شبحه ليُضاف إلى أشباح

هـذا الميناء المهجـور . سـيكون شـبحاً مُرَقَّمـاً ، حيـث الـدمع والعَـرَق والبنـادق والبساطير والثياب الخشنة والرتب العسكرية التي لا تحمي من الموت ولا تدل الأحياء على مكان قبرك ، إن كان لك قبر أصلاً .

كانت زوجته تُجَهِّز ثيابه الجديدة ، أما هو فصار ينزع ملابسه . حاولت زوجته مساعدته في خلع ملابسه لكنه رفض ذلك بإصرار ، مما أثار تعجب زوجته التي لم تقف كثيراً عند هذا الأمر ، ورفض كذلك أن يترك الرَّشاش . حمله معه إلى داخل الحمَّام برفقة الثياب الجديدة . تعجَّبت زوجته أيما تعجب من إصراره على أخذ الرَّشاش معه أثناء استحمامه ، لكنها أقنعت نفسها بأنه راجع من المعركة ، وربما لم يتخلص بعد من عادات القتال وطقوسه .

دخل بلال الحمَّام مثلما يدخل الفاتحون ذكرياتِ أشجار الغابات الشاهدة الوحيدة على موت أشياء الجندي . وضع الرَّشاش قريباً منه في وضع يمكنه من مشاهدته طوال فترة الاستحمام ، ووضع ثيابه الجديدة قريباً من الرَّشاش . خلع بسطاره الذي ترك آثاراً تشبه آثار دب قطبي جريح هائم على وجهه في الغابات . اقتحم عزلةَ الماء الذي كان ينزل على جِلده كالقذائف . إنه يشعر بذلك ، ومهما حاولتُ وصف شعوره فلن أنجح . أحس أنه في معركة جديدة وعليه أن يُثبِت وجوده . يتصارع مع الماء والصابون بعنف بالغ . هكذا بدا المشهد معركة جديدة أو استراحة محارِب تَسبق الموتَ الأكيد . على أية حال ما زال يعتبر الاستحمام معركةً جديدة ، وقرَّر أن يخوضها وحيداً .

إنه يكشط الخلايا الميتة بعنف بالغ يترك آثار احمرار على جِلده. فكَّر لو يكشط كل جسده لأنه صار ميتاً كامل المزايا حسب تفكيره . وفي زحمة عراكه مع الماء والصابون شعر أنه يخسر معركته وأن الكفة تميل لصالح خصمه . فكَّر بإحضار الرَّشاش لكنه أعرض عن تلك الفكرة خوفاً عليه إذا مسَّه الماء . لقد صار غريب الأطوار حقاً ، فهذه الخواطر يفكِّر فيها بجدية منقطعة النظير . فإحضار

الرَّشاش كانت فكرة حقيقية يزرعها في صدره ، ولم تكن خاطراً عابراً يزول مع آثار النسيان. كان يحس أن الرَّشاش هو المنقِذ له والأمل المتواري خلف غابات الحزن والبارود والموت ، لذا صارت علاقته بسلاحه علاقة هستيرية ، وما دخوله الحمَّام بالسلاح إلا صورة لمدى الرعب الذي يشعر به ، ومدى الوساوس التي تداهمه من كل الجهات وتُحكِم حصارها عليه . إنه دخل في هستيريا مرضية ووسواس قهري يدفعه لمعانقة سلاحه في كل الحالات وإبقائه قريباً منه ليشعر بالطمأنينة ، حتى لو كانت تلك طمأنينة كاذبة .

أنهى الاستحمام وارتدى ثيابه الجديدة . حمل الرَّشاش معه ، وخرج من تلك المعركة غير عالِم هل هو منتصر أم مهزوم . المهم أن يكون سلاحه بحوزته . وقد ترك المشهد خلفه مثيراً للقرف ، فالأوساخ السوداء التي كانت تحتل جِلده طوال فترة الحرب ارتسمت في هذه اللوحة الكئيبة . وبسطاره الذي يخترق هواءَ المكان يزيد المشهد بؤساً وقذارة . وملابسه العسكرية المنقوعة في تاريخ طويل من العَرَق والخلايا الميتة والأوساخ هي الأخرى تزيد المكان وحشةً . إن على زوجته مهمة ثقيلة في تنظيف المكان ، وهي التي قضت فترةً طويلة في تنظيفه سابقاً استعداداً لقدوم زوجها في أية لحظة . إنه الانتظار الشرس ، وقد ذهب أدراج الرياح مع كل هذه الأوساخ التي يعج بها المكان السوداوي واقعياً وذهنياً .

خرج بلال للاجتماع بأسرته حاملاً الرشاش معه . كان الطعام ينتظره على الطاولة ذات الأرجل القصيرة . جلس على الأرض ، ووضع الرشاش إلى جانبه . واستعد لدخول معركة الطعام بعد معركة الماء والصابون . تعجَّب الجميع من إصراره على الاحتفاظ بسلاحه في هذا المكان ، فقال له أبوه :

_ لماذا تحمل معك الرَّشاش أينما تذهب ، اتركه في غرفتك لكي تستمتع بالطعام .

_ الأعداء قد يأتون في أية لحظة ، قد يقفزون من النافذة ، أو يقتحمون

الباب، أو ينزلون من السقف . يجب أن أظل منتبهاً .

حاول الجميع كتمان ضحكاتهم المجلجلة في دواخلهم ، فهذا الكلام بالنسبة إليهم غير منطقي ومثير للسخرية والضحك ، حتى إن أهل الدار ظنوه يمزح للوهلة الأولى ، لكن طريقة كلامه تدل على أنه في أعلى درجات الجدية والوعي .

وغاص في الطعام بعد التسمية . منظره وهو يأكل يثير الشفقة ، فمن يراه يقول إنه عائش في سنوات ضوئية لا نهائية من المجاعات والحرمان . وقد كنتُ أتوقع أن الجيش يعتني بصحة الجنود وغذائهم . وهذا الخاطر داهم والدَه ، فقال مخاطباً ابنه :

_ يبدو أنهم لم يكونوا يُطعمونكم في الجيش .

_ نحن الجنود نموت جائعين من أجل أن يشبع القادة النائمون في غرف العمليات، إننا مجرد جنود لا قيمة لنا ، نُقاتِل في حرب لا تعنينا ، لكي يجنيَ الأرباحَ الأغنياءُ .

وأردف قائلاً :

_ صَدِّقْني يا أبي ، وصَدِّقُوني يا جماعة، لقد كنا نقاتِل في المعركة وكأننا صائمون نحلم برؤية الطعام أو الماء، في حين أن القادة النائمين في غرف العمليات كان يأتيهم أشهى أنواع الطعام في المروحيات ، وهم لا شأن لهم بالقتال . نحن الذين نموت مثل الكلاب الجائعة ، ولا أحد يسأل عنا . المهم أن يظل رئيس الدولة نائماً مع زوجاته أو عشيقاته في القصر الجمهوري، وأن يظل مسؤولو الدولة في قصورهم ومزارعهم.

أثار هذا الكلام عاصفة غبارية مظلمة من الاستياء والحزن . تناثر في أرجاء أرواحهم شعور بأن هذا المقبرة اللانهائية التي تسميها وسائل الإعلام التابعة للحكومة وطناً ما هي إلا مشروع استثماري لكي تسرق الحكومةُ الشعبَ . ساد إحساس بالرعب في الأرجاء ، إحساس ينفيك ويخرجك من نفسك ليشعرك بأنك

شخص غير مرغوب فيه في بيتك الذي لبناته من عظامك النخرة . كان الجميع باستثناء بلال الذي يغرق في الطعام إلى شحمة أذنيه يغوصون في مأساة فظيعة . هذا الوطن الذي يدافعون عنه صار مرزعة أبقار لمسؤولي الحكومة ، فالفقراء الذين يقاتِلون ليظل الأغنياء في قصورهم ومنتجعاتهم السياحية خارج البلاد . فما إن بدأت الحرب حتى هَرَب الأغنياء إلى أمريكا وأوروبا بعد أن هَرَّبوا أرصدتهم إلى الخارج قبل مدة ، وجَهَّزوا أمورهم للعيش هناك بعد أن تناهى إلى مسامعهم بأن الحرب على الأبواب ، فكلهم على علاقات وثيقة بصناع القرار في الدولة الذين تصلهم المعلومات بدقة ، أما الفقراء مثل عائلة خضر الزاوي فهم وقود الحرب المنسيون ، وعليهم تدور رحى الحرب ، على أجسادهم النحيلة وعيونهم الغائرة في أكوام قش مندثرة . هذه الأحاسيس زُرِعت في رؤوسهم في ساعة نحس مستمرة ، كأن هذا الميناء المهجور ألقى في رؤوسهم كلهم هذه الكومة من الخواطر . يريدون أن يقولوا ما يحسون به لكنهم تركوا مهمة القول لعيونهم الخرساء المحدِّقة في عيون بعضهم البعض. نثر بلال كل هذه الخواطر الصاعقة في جماجمهم ، وغاص في الطعام وحيداً طريداً منفياً بين شفرات الزمان وخناجر المكان . أما زوجته فايزة فبعد أن شبعت من رؤيته نسبياً وتجوَّلت في مأساة الجميع التي نثرها زوجُها كأشياء الطوفان تذكَّرت أن تذهب لتنظيف الحمَّام بعد استحمام زوجها ، فانسحبت بهدوء دون أن تشعر أحداً . فالجميع كانوا مشغولين بهواجسهم وأحزانهم ومستقبلهم الذي مضى.

اقتحمت فايزة وحشة الحمَّام القذر . كانت الأوساخ مختلطة مع فقاعات الصابون المبعثرة في المكان . ((أتمنى لو تُنَظِّفَ المكان بعد الاستحمام يا بلال)) ، قالت في نفسها . لكنها تراجعت بعد أن اخترعت عذراً لزوجها ، فهو عائد للتو من الجيش ، ولا بد أنه مُتعَب لدرجة لا تسمح له بتنظيف المكان . هكذا ابتكرت عذراً له ، لكنها تذكرتْ أنه لم يُنَظِّف المكان بعد الاستحمام منذ تزوَّجا ،

وأنه يترك لها مهمة التنظيف . ((نحن النساء نعيش في بيوتنا خادمات لا أكثر ولا أقل))، قالت في نفسها . وانطلقت لتنظيف المكان بعد أن شمَّرت عن ساعديها ، ورفعت ثيابها إلى حد الركبتين ، وأيقنت أن ثيابها الجديدة في خطر . وفي الحقيقة لم تكن ثيابها جديدة بالمفهوم المتعارف عليه ، لكنها أفضل الموجود ، لذا فقد كانت حريصة على عدم اتساخها . إنها تنظف المكان برفق ودون حماس أو تهور .

فرغ بلال من الأكل . نظر إلى أخيه زياد قائلاً :

_ كيف حال دراستك الجامعية ؟ ألا تريد أن تتخرج لتساعد أباك ؟ .

_ الحمد لله ، الدراسة على أحسن حال. وأتوقع في الأيام المقبلة أن أجد وظيفة مع الدراسة، فأنا موعود بعمل في العاصمة. سأدرس وأشتغل في نفس الوقت مثلما كنتُ أفعل قبل الحرب .

في واقع الأمر لم تكن الدراسة على أحسن حال ، فأستاذه الليبرالي العلماني يحتكر تدريس إحدى المواد الدراسية، وقد اتخذ موقفاً من زياد ، فلا أمل له بالنجاح عند ذلك الدكتور . وبالنسبة للعمل المنشود فهناك اتصالات بينه وبين مفكِّرين قرَّروا إنشاء مجلة تُعنَى بالفلسفة الإسلامية، ويريدونه للعمل معهم . وبالمناسبة فزياد معتاد على العمل والدراسة في آن معاً ، فقبل الحرب كان يعمل في سوبر ماركت بدوام مسائي. فالفلسفة في هذه البلاد لا تُطعِم خبزاً . وقد قدَّمت له جماعة الإخوان المسلمين مساعدات مالية لعلمها بوضعه المعيشي الصعب ، لكنه رفض تلك المساعدات لأنه لم يُرِد أن يبدوَ انضمامه للجماعة من أجل تحقيق مردود مالي أو ما شابه ، وانطلق إلى التفتيش وحيداً عن مصدر للرزق بعيداً عن دعم الجماعة المتاح له .

قالت فاطمة والحماسة تلسع جبهتها :

_ أخبرنا عن يومياتك في الحرب وأهم القصص التي حدثت معك .

كانت ترمي من وراء سؤالها إلى العيش في مجتمع الحرب الذي تقرأ عنه في

الكتب والروايات التي كانت تستعيرها من المكتبة العامة في البلدة قبل أن تبيعها الحكومةُ لأحد رجال الأعمال الذي قام بتحويلها إلى مطعم سياحي مستغلاً موقع البلدة . أرادت فاطمة أن تحصل على خبرة الحرب والمعاناة والحكايات المثيرة التي لا تنتهي ، وتُنسَج حول الجنود والحرب والتضحيات . لكن والدها قطع عليها الطريق وشطب كل ما كانت ترمي إليه بجرة قلم قائلاً :

_ دعك منها يا بلال، هؤلاء البنات لا هم عندهن سوى القصص والحكايات.

ثم وجَّه كلامه لابنته قائلاً :

_ أخوك راجع من المعركة مُتعَباً ، وغير قادر على الكلام والقصص . وهذه الحرب لا نريد أن نتذكرها ولا أن نرويَ قصصها . الله لا يعيدها .

ثم التفت إلى ابنه بلال قائلاً :

_ بعد الأكل اذهب ونم لكي يرتاح جسمك من هذا التعب المقرِف .

قال بلال بعد أن فرغ تماماً من الأكل :

_ اعذروني يا جماعة فأنا بصراحة محتاج إلى النوم لمدة قرون كي أستعيد نشاطي.

وهبَّ واقفاً حاملاً الرَّشاش معه . لم يشأ والده أن يتحدث معه بخصوص الرشاش وضرورة وضعه في مكان منعزِل وأن لا يحمله معه أينما ذهب . لم يرد الوالد أن يضغط عليه خاصة بعدما اصطدم بإصرار ابنه الغريب على الاحتفاظ بسلاحه . توجه بلال إلى غرفة نومه وارتمى على السرير مثل كيس الطحين الغامض الذي نسيه صاحبه في محطة القطارات المهجورة ، ووضع سلاحه إلى جانبه حاضناً إياه . وبعد فترة بالغة القصر بدأ الشخير يغزو ذرات الأكسجين المخنوقة في المكان. وزوجته المسكينة أَتَمَّت تنظيفَ الحمَّام على أحسن وجه، وما إن خرجت منه حتى وقعت عيناها على زوجها المتكوِّم كجثة السُّبات . أشفقت عليه واغرورقت عيناها بالدمع الخفيف ، وذهبت إليه لتضع على جسمه غطاء قطنياً خفيفاً جاءها

كهدية يوم زواجها . لم تعد تذكر مصدره بالضبط، لكن نزيف الذكريات انهمر عليها لحظة تغطيتها لزوجها المثقَل بالذكريات والوساوس والتعب . اصطدمت عيناها بمنظر الرَّشاش النائم مع زوجها والذي يحتل مكانها ، فتساءلت في نفسها بتعجب :

ــ هل ستظل ورائي ورائي أينما أذهب ؟ .

وبالطبع كانت تخاطب قطعة السلاح التي تحتل مكانها بدون خجل أو اعتذار . شعرت للوهلة الأولى أن احتفاظ زوجها بالسلاح أخذ منحى هستيرياً لا يُطاق ، فمن غير المعقول أن يأخذه معه أينما ذهب . هكذا كانت تفكر . لقد نشبت عداوة شرسة بينها وبين قطعة السلاح تلك . هل يُعقَل أنها تغار من قطعة السلاح ؟. لستُ أدري بالضبط لكن منظر السلاح وهو في أحضان زوجها لا يشي بالارتياح أو الاسترخاء أو الهدنة مع عناصر جسمها وذكريات روحها المخنوقة جراء هذا المنظر.

٩

كانت مريانا تسترق السمع من وراء الباب . شعرت أن هناك حدثاً ما قد حصل في بيت العجوز خضر، فالضجة التي سمعَتْها وصوت بلال وزياد قبل دخولهما البيت كانت كفيلة بوخز الفضول القاتل في رأسها . وهي قد ميَّزت صوت زياد أما صوت بلال فتناهى إلى مسامعها غموضاً يكتنفه الضجيج العابث ، ولم تستطع التعرف على صاحب الصوت ، لكنها رجَّحت أن يكون صوت بلال ذلك الجندي العائد من احتمالات اللاعودة وضوضاء الحلم القسري المخدوش. أما زوجها الذي كان ممدداً على الأريكة البالية فكان ينادي عليها بين الفينة والأخرى :

ــ يا امرأة ! اتركي هذه العادة السيئة ، وتعالي حُكِّي لي ظهري .

لكن زوجته لم تستطع أن تفارق عادتها الأثيرة . أقبلت على زوجها وفي عينيها تتناسل نباتات الفضول وأحراش الدهشة ، وقالت بعد أن نفشت ريشها كنعامة على

وشك أن تُذْبَح :

ـ أظن أن بلالاً عاد من الحرب .

أغرق يعقوب نفسه أكثر وأكثر في الأريكة التالفة ، وبدأ يلعب بأصابع قدميه المحنَّطتين داخل جوارب ممزقة ذات رائحة قاتلة ، ثم قال والغباء يرتسم سيوفاً على وجهه :

ـ ومن بلال هذا ؟ .

ازدادت مريانا قرباً منه ، لكنها ندمت على ذلك فيما بعد لأن رائحة الجوارب كانت تسلخها كالشاة المنبوذة والمطرودة من القطيع . غير أنها لم تكن تملك خياراً سوى هذا ، فالفضول الشرس الذي يسيطر على جوارحها غلب رائحةَ الجوارب الكريهة ، وقالت بثبات رغم الرائحة التي تعصف بأي شخص يقترب منها :

ـ يا رَجُل ، رَكِّزْ قليلاً ، بلال ابن جارنا خضر الزاوي .

ـ وأين كان ؟ .

تأففت زوجته بحدة بالغة ، فكلام زوجها يدل على أنه في واد آخر وغير مُرَكِّز بالمرة لما تقوله امرأته . انتابتها نوبة استياء عنيفة ، وقالت بحدة :

ـ يا رَجُل ، لقد ضيَّعت عقلَك كثرةُ الشرب ، فأرجوك استيقظ قليلاً .

عدَّل يعقوب جلسته بشكل يدل على أنه مستعد هذه المرة لفهم الموضوع كاملاً ، وأنصت لزوجته بكل جوارحه المتيقظة .

قالت زوجته :

ـ بلال ابن جارنا خضر جندي في الجيش ، وأظنه عاد من الحرب .

أجاب يعقوب بعد أن انطبعت على جدران ذهنه البنوك السمينة :

ـ وهل تظنين أنه حصل على أموال كثيرة من الحرب ؟ . فلا بد أن هناك أسرى بكامل عتادهم ، وهذا العتاد يبيعه الجنود ويحصلون على أضعاف رواتبهم .

أو ربما يكون قد تاجر بالأسلحة ، مما جعله مليونيراً . أو ربما استولى على مخلَّفات الجيش المنسية وباعها في السوق السوداء ، مما جعله غنياً .

نظرت مريانا باستخفاف إلى فم زوجها الذي يعج بالزبد جراء كلامه ، وعيونه التي تزداد جحوظاً كأن المال ينسكب في ماء عيونه جبالاً من الذهب والفضة ، وقالت باستهزاء :

_ الجنود يموتون في المعركة ، وأنتَ تخترع أرصدة وأموالاً لهم . يا رَجُل ! كُفَّ عن عبادة المال ولو للحظة .

_ ما أدراك أنتِ بهذه الأمور ؟! . أنا أعرف هؤلاء النوعية ، لا بد أنه أحضر حقائب ممتلئة بالمال . وسأقطع يدي إن لم يكن صار مليونيراً بسبب الحرب .

أدركت زوجته أنها أضاعت وقتها بالكامل مع زوجها الذي يقدس المال أكثر من تقديس أجداده للعجل . فهو في واد وهي في واد آخر ، وتعجَّبت كثيراً كيف أنهما عاشا معاً طوال هذه السنوات مع أنهما لا روابط مشتركة بينهما . كل شيء يتحول في رأسه إلى مال . فهؤلاء الجنود بالكاد كانوا يجدون الطعام في المعركة ، ومع هذا حَوَّلهم يعقوب بكلمة سحرية من فمه الذي صار مملكة زبد إلى مليونيرات ورجال أعمال . وحمداً لله أن بلالاً لم يطلع على هذا الحوار ، لأنه ربما أُصيب بذبحة صدرية إذا علم أن الناس ينظرون إليه كتاجر حرب ، وهو الذي كان قاب قوسين أو أدنى من الموت الحتمي دفاعاً عن الوهم المرصَّع بالأوسمة الصدئة حيث رحلة اللاعودة .

قالت مريانا بعد أن امتصت قرفها من كلام زوجها :

_ ما رأيك أن نذهب إليه مهنئين بعودته سالماً ؟. سيكون العيب علينا إن لم نزر جارنا بهذه المناسبة .

فتح زوجها عينيه على المصراعين ، وقال :

_ وهل تتوقعين أن يعطيَنا جزءاً من الغنائم التي أحضرها معه ؟ .

وصل قرفُ مريانا من زوجها إلى ذروة الهذيان والضيق من هذا النقاش العقيم، فانسحبت من الحوار كأن زوجها غير موجود ، وذهبت إلى المطبخ لتساعد ابنتها في جلي الصحون ، في حين أن زوجها عاد للاستلقاء على الأريكة ، وصاح بأعلى صوته :

_ قولي لابنتك العمياء أن تعمل لي شاياً بالليمون .

وعاد إلى اللعب بأصابع قدميه المشنوقتين على منصة الجوارب الممزقة ذات الرائحة الكريهة .

سمعت راحيل كلام والدها الجارح وامتصت حروفَه كما تمتص النارُ ذراتِ الأكسجين في الماء . بصراحة لقد اعتادت على هذا الكلام الذي تسمعه من أبيها بين الفينة والأخرى ، فلم يعد يؤثر فيها . إنها جثة متحركة ، هكذا كانت تنظر إلى نفسها . صارت شبحاً ترفرف أعلامُه القديمة على مراكب الصيد التي لا تعود. لقد كُسِرت من الداخل فهي ميتة تماماً ، وما تبقى منها أعضاء لحمية مجرَّدة تسبح في العدم المطْلَق . يداها مجذافان يُحَوِّمان على مساحات الماء والصابون المصلوبة على تفاصيل الصحون . وعيناها مقبورتان في روائح سائل الجلي الجديد الذي أحضره أبوها في المرة الماضية .

استقر المقام بمريانا في المطبخ إلى جانب ابنتها ، ففي هذا البيت الذي يظن صاحبه أنه اشترى زوجته بأمواله ، لا بد أن يصير الجو العام كسوق النخاسة لا أكثر ولا أقل . وبالفعل فقد كان كذلك . إذ إن يعقوب ما زال يعتقد منذ زواجه حتى اليوم أنه اشترى زوجته بالمال ، رغم أنه كان فقيراً وهي غنية . وقد يبدو الوضع متناقضاً لكن هذا الشعور ما زال يأسر حياته طولاً وعرضاً . وليلة عرسه قال له والده :

_ اسمع ، هذه المرأة صارت مُلْكك ، أنتَ اشتريتَها بمالك ، وعليك أن تضربها ليلة الدخلة لكي تعلم أنها تزوجتْ رجلاً ! .

ما زالت هذه الكلمات محفورة في ذاكرته رغم مرور السنين ، ومع أن والده توفي قبل أكثر من خمس عشر سنة ، إلا أن صوته ما انفك يرن في أذنيه ، وهو يردد هذه الوصية التي حولت يعقوب إلى جلاد في سجنٍ كُلُّ من فيه محكومون بالمؤبد .

وبعد أن تذكر يعقوب كلام أبيه ابتسم ابتسامة خفيفة فيها كل معاني الاستهزاء ، وقال في نفسه :

_ أخزاك الله يا أبي ! ، لقد ضَيَّعْتَ حياتي بهذه الوصية الغبية والتي للأسف نَفَّذْتُها بالحرف الواحد . الآن فقط عرفتُ لماذا كانت أمي تكرهك وتخونك .

كانت حفلة جلي الصحون في ذروتها . شمَّرت الأم عن ساعديها العريضتَيْن ، وبدأت تساعد ابنتها ، وهي تقول لها :

_ لا تغضبي من كلام أبيك لأنه يُخَرِّف لا يعرف ما يقول . غداً سوف يموت ونرتاح أنا وأنتِ منه .

ولم تكد الأم تُنهي كلماتها حتى سقط من يد راحيل صحن فانكسر ، فكلام الأم أفقدها التركيزَ وسكب في ذهنها معاني الخوف والرعب من المستقبل . أُمٌّ تتمنى الموت لزوجها لكي ترتاح هي وابنتها . إنه وضع غريب بالنسبة لراحيل زرع أنيابه في جلدها الرقيق المصاب بالقشعريرة والخوف من كل الأشياء المحيطة .

هجم صوت انكسار الصحن على أُذن يعقوب كوحش منسي في أدغال الكوليرا ، فصرخ بأعلى صوته :

_ اكسروا مزيداً من الصحون ، دَمِّروا المطبخَ كله ، فأنتِ وابنتك العمياء تجدان حِمَاراً يُحضر لكما الأشياء ، ويصرف عليكما .

وأردف قائلاً :

_ أين الشاي بالليمون يا سيدة الصحون المكسورة ؟! .

صار المطبخ مأتماً حقيقياً. المرأتان حفارتا قبور. الصحون شواهد قبور.

والأيدي المنقوعة في سائل الجلي رفوش ومعاول . إن المطبخ نقطة عميقة في جسد الزمان المتدثِّر بالحرمان والألم . إنه الغرق الحتمي وطوفان الحزن يجتاح نخاعَ المكان المتكوِّم في أقاصي الرغبة المتوحشة والحزن الخشن .

وفي زحمة اللقاء مع الجندي الغائب كان زياد قد نسي الشيخَ في الغرفة وحيداً ، وما إن تذكر حتى أسرع إليه، كأن عينيه تأكلان بلاط الدرج المخدوش بكل عنف. والشيخ كان في الغرفة يقرأ في الكتاب الذي ألَّفه زياد في محاولة منه لإطفاء الوساوس والخيالات المتعلقة بغياب زياد المفاجئ دون أن يتفوه بكلمة واحدة . إن قراءة الشيخ كانت بمثابة إعلان حرب على القلق الذي يعصف بذاته وبالحيطان التي تقترب منه شيئاً فشيئاً .

قرع زياد البابَ قائلاً :

_ افتح يا شيخ ، أنا زياد .

وضع الشيخُ الكتاب جانباً ، وفتح البابَ ، وتهللت أساريره بعد أن رأى زياداً، ودخل الاثنان ، حيث قام زياد بشرح الموقف بالتفصيل ، مما زرع السكينة في قلب الشيخ، وبدَّد كل وساوسه التي كانت تنخر في عظام قفصه الصدري. وكل عناصر المكان رجعت إلى طبيعتها . الحيطان غطست في الحنين ، والسقف صار ينزف هدوءاً وطمأنينة .

١٠

كانت ديالا منهمكة في ترتيب المواعيد. مواعيد تلو مواعيد، كل حياتها دخلت في عزلة الأرقام . لاحظت ديالا من خلال فترة عملها الوجيزة أن الغالبية الساحقة من النساء اللواتي يأتين لهذه العيادة هُنَّ من الشابات غير المتزوجات . وهذا الأمر لطالما أرَّقها وحجب عنها النوم لساعات طويلة، وأدخلها في دوائر الريبة والتفكير . وكلما قضت على وساوسها عادت الوساوس أقوى من ذي قبل .

كانت الشابات اللواتي يأتين إلى هذه العيادة من طبقات اجتماعية مختلفة . في

عيونهن حفلات زفاف البجع القتيل ، وفي أصواتهن تهرول القطط المنبوذة . تلمح في صوت كل واحدة منهن ذبول الأزقة النائية أو برك السباحة المختلطة . وعلى الرغم من مجيئهن من أحياء متفاوتة ، راقية وبائسة ، إلا أن نبرة الانكسار الشاسع تتهادى في أصواتهن كالمعاول في أكف حفاري القبور الذين تركوا نساءهم في ليلة الدخلة وجاؤوا يحفرون القبور للموتى ناسين الموتى الذين لا يزالون يمشون في الشوارع .

كان الطبيب عبد السلام الدومي أرشيفَ ذئب يرضع من الأنقاض الجسدية ، لكنه أفضل ذئب يتقمص زي الحمل الوديع . وهو بالمناسبة الأمين العام للحزب الشيوعي . وللأسف فقد كان هذا الدكتور يجري عمليات ترقيع غشاء البكارة للنساء اللواتي فقدن بكارتهن سواء كُنَّ مُذْنبات أو غير مذنبات . أحياناً يعطي موعداً مؤجَّلاً للعملية ، وفي أحيان أخرى يجري العملية فوراً ، وكل ذلك حسب تقديره الشخصي وجدول مواعيده . إنه يجري تلك العمليات في العيادة بعد أن يُحكم إغلاق الأبواب . فكل الأدوات التي يحتاجها لإتمام العملية موجودة لديه ، والأسعار تتفاوت حسب المستوى الاجتماعي للمرأة التي تود إجراء العملية ، ولكن يمكن القول إن الأسعار تبدأ من خمسمائة دولار أمريكي وتصل في بعض الأحيان إلى ثلاثة آلاف دولار . وللطبيب طريقته الخاصة في تحديد السعر ، فهو يسأل عن نوع سيارة الزبونة ، ويحدد السعر وفق ذلك . والدكتور عبد السلام يُعتبَر أكبر مستورد لأغشية البكارة الصناعية الصينية الصنع في البلاد، فهو لا يكتفي باستخدامها في عيادته ، بل يوزع أيضاً على الأطباء الذين يجرون تلك العمليات ، وهو يبيع بسعر الجملة في غالب الأحيان . وكل واحدة ترغب بإجراء تلك العملية المشبوهة يُخَدِّرها تخديراً كاملاً بحيث تصبح غير عالمة بما يحدث لها ، ويقوم هو بمضاجعتها وهي تحت سطوة التخدير الكامل مستخدماً الواقي الذكري ، ثم يجري تلك العملية . وعلى الرغم من أن وزارة الصحة مطلعة على الأمر إلا أنها تتستر

عليه لأن الحزب الشيوعي له كلمة في البرلمان ، والحكومة تتستر على أفعال هذا الدكتور وباقي الأفعال المشبوهة للمتنفِّذين في الحزب من أجل أن يصوت النوابُ المنتخَبون عن الحزب الشيوعي لصالح مشاريع الحكومة الهادفة لسرقة الشعب وزيادة الضرائب .

أما ديالا فهي غير عالمة بالأمر نهائياً ، إنها كالعمياء في وسط حفلة تنكرية صامتة. وفي لحظة نحس مستمرة تختلط فيها أشلاء النساء بالنيازك التي تزور الأرض كلما ارتسمت على شفاه الريح مشنقةٌ كانت ديالا تراجع ملفات المريضات ، أو على الأقل هكذا هو الظاهر ، فالمرأة الذي تأتي للعيادة يُفترَض بها أنها مريضة ، هذا هو المفروض . وبالمناسبة فالدكتور لا يقلقه أن تعرف ديالا بالموضوع ، فقد تعرف في أية لحظة ، وماذا بعد ؟ . ماذا تستطيع أن تفعل ؟ . هل ستخبر وزارة الصحة بذلك أو أية جهة حكومية ؟ . إن الحكومة أول من يعلم وآخر من يتدخل .

وعلى كرسي منبوذ قرب النافذة التي تطل على ملعب كرة قدم يلعب فيه الأطفال كانت تجلس إحدى المراجِعات واضعة يدها على خدها ، وهي تراقب حركات الأطفال الذي يركضون صاخبين ، ويركلون الكرة بكل ما أُوتوا من قوة. على رأسها أكوام الهموم المرعِبة وانكسارات تاريخ الأحزان السحيق . وكان الدور دورها فنادت عليها ديالا ولكن دون جدوى . أعادت النداء بصوت أعلى من ذي قبل فانتبهت هذه المراجِعة التي تحمل على ظهرها كل أحزان عصور ما قبل الظلام .

قالت لها ديالا :

_ تفضلي ، دورك قد حان .

ردَّت بصوت خفيض ذابل :

_ شكراً .

وسارت نحو باب غرفة الدكتور التي ارتسمت في مخيلتها أخشابَ مذبح غامض نخرها حزنُ كل الغابات المحترقة . إنها تجر خطواتها كما لو كانت شجرة كسيحة تجر جدائلَ الصاعقة ، أو غزالة قاتلة ومقتولة في آن معاً تجر الانهياراتِ الثلجية وراءها وتذهب إلى نهايات الوهم الذي يبدأ من احتراق خشب الأكواخ الحقيرة . هل ستدخلين أم لا ؟ . قرعتِ البابَ بأطراف أصابعها المضمحلة وأظافرها الضئيلة ، فجاءها صوت الدكتور مثل ضجيج الكوليرا العميق :

ـ تفضل ، الباب مفتوح .

دخلت وفي جبينها تتناسل قطعان السل، وتقدمت نحو مكتب الدكتور، وبقيت واقفة كالتلميذة التي لم تقم بواجباتها المدرسية في مكتب المديرة. كانت عينا الطبيب تلمعان بصورة هستيرية .

ـ إنها فريسة جديدة تُمَثِّل دور البراءة بإتقان ، لكن الذئب لا يقدر أن يكون بريئاً .

ارتسمت هذه الكلمات على أمواج ذهنه دون أن يتفوه بها .

قال لها وأعصابه مزروعة في مستودع ثلاجات في أوج عملها :

ـ تفضلي بالجلوس .

جلست على الكرسي العميق الذي هو يُشبه الأريكة . أحست بجسدها يغطس في نعومة جِلد الكرسي . ترافق هذه الإحساس مع إحساس عارم بأنها تغرق وتغرق في بحور لا سواحل لها ، بحور تكاثرت فيها سفن الغزاة الذين أحضروا معهم مستكشِفين لا حصر لهم . إنها تغرق وتغرق ، هكذا يتكدس شعورها السَّيفي ، وفي زحمة إحساسها بالغرق ، قال الدكتور بهدوء تام :

ـ تفضلي يا أُختي ، ما هو وضعك الصحي ؟ .

تلعثمت وبدا الاحمرار يغزو وجنتيها دون رحمة ، لكنها استجمعت قواها بعد مسلسل خجل وارتباك غير قصير ، وقالت بصوت أقرب إلى الهمس المسموع :

ـ بصراحة يا دكتور ... أنا فتاة عزباء لكنني فقدتُ بكارتي في لحظة ضعف ، وعرفتُ من إحدى صديقاتي أنك تجري عمليات إرجاع البكارة ، وبصراحة يا دكتور أنا لا أملك المال لإجراء هذه العملية .

ارتدى الدكتور ثياب الحمل الوديع بحرفية عالية، وهز رأسه بتثاقل ليشعرها بأنه يتعاطف معها ، وقال :

ـ لا تقلقي يا ابنتي ، فالمال آخر شيء أفكر فيه ، وسوف أجري العملية بدون مقابل لئلا تظني أن الخير انقطع من هذا العالَم .

وحدَّق في المرأة الجالسة أمامه قائلاً في نفسه :

ـ إلى متى سأتحمل قرف هؤلاء الفقراء ؟ . لقد أضعنا كثيراً من الدولارات بسبب الكرم الذي لا أعرف كيف جاءني .

كان تعهد الدكتور بإجراء العملية بلا مقابل بالغ الغرابة ، فهو لم يتعود على الكرم والعمل مجاناً ، لكنها كانت زلة لسان كارثية بالنسبة إليه ، ولولا جلوس المرأة أمامه لأكل أصابعه من شدة الندم على تفريطه بمئات الدولارات، بيد أنه أقنع نفسه بأنه سَيُعَوِّض المبلغ في العمليات القادمة .

قال الدكتور :

ـ تفضلي يا ابنتي إلى الغرفة التي سنجري فيها العملية .

ـ بهذه السرعة ؟! .

ـ أنا أحب أن أساعد الناس بسرعة ودون تأخير ! .

مضت المرأة إلى الداخل في حين قام الدكتور بإغلاق الأبواب . وانطلقت قدماه تجرفان الأرض وتمتصان البلاط . قام بتخديرها بشكل كامل ، وبعد أن سقطت في اللاشعور أخذ منها كل ما يمكن للرجل أن يأخذه من المرأة، وأجرى العملية ببرودة أعصاب فظيعة ، وتم المطلوب بكل هدوء .

١١

وفي أعماق المساء السحيقة قرب الهدوء المخيف ، كان بلال غاطساً في أمواج النوم ومنقوعاً في وديان السبات . إنه يحتل مساحة السرير هو وسلاحه ، فطريقة نومه العبثية مستولية على مساحة السرير . دخلت زوجته الغرفة منهكة بعد يوم شاق على جميع المستويات استنزفها حتى الرمق الأخير . فتحتْ خزانةَ ملابسها ، وتجولَّت ببصرها على ثيابها . أمسكت قميص نومها الأحمر الشفاف الذي اشترته قبل الحرب بعد أن اقترضت ثمنه من إحدى صديقاتها. أرادت أن تتزين لزوجها الغاطس في عالَم آخر ، ولكن الفرحة لم تكتمل . فما إن اشترته لتنال رضا زوجها حتى نشبت الحرب وذهب زوجها إلى الجبهة . وظلت متمسكة بالأمل ، بأنه سيعود يوماً ما وتلبسه أمامه. وها قد عاد لكنه غطس في وادي النوم، فلا فائدة من ارتدائه في هذا الوقت . أعادته إلى الخزانة وقد حاصرها شعور الجنود المهزومين . لقد هُزِمت مرة ثانية ، وأخفقت في إنجاز مشروعها . اختارت ملابس قديمة للنوم موجودة لديها منذ زواجها . ذهبت لتنام على السرير لكنها لم تجد لها مكاناً، فزوجها النائم تنتشر أعضاؤه في كل مكان . قررت أن تنام على الأرض بعد أن حاصرتها المتاعب من كل الجهات . وبالطبع فهي ليست في يومها ، ومن لم يكن في يومه فلا بد أن يعانيَ . بسطت الفِراشَ على الأرض ، ووضعت وسادة خشنة بعض الشيء لأنها لم تجد غيرها ، وأحضرت لِحَافاً خفيفاً ، وغطست هي الأخرى في السبات العميق الحاسم ، في حين أن ابنتها كانت تنام في غرفة عمتها .

توغل بلال في كابوس فظيع ، فقد رأى في منامه كأنه في أرض المعركة ، والطائرات تقصف كل ما تراه . أصوات المدافع والرصاص في كل مكان . رائحة البارود تنبعث من نخاع العظم ، من قلب التراب . إنه مُحاصَر في عزلة العجاج . الجميع ضد الجميع، والكل يطلق النار على الكل. جثث الجنود ملقاة على الأرض، ويتم تفتيش القتلى ، ويؤخذ منهم كل شيء ذي قيمة ، فالجنود يتم

تجريدهم من ساعات اليد ، ومن ملابسهم وأسلحتهم ، وبساطيرهم ، ولا يُترَكون إلا بملابسهم الداخلية .

تفجر العَرَق من جبينه كأن بئر عَرَق تم اكتشافه في رأسه ، وسال على خدوده كاللهب . بدأ العرق يتساقط على الوسادة. إن المعركة حمي وطيسها كأنها موضوعة في مقلاة على نار الخنادق والأخاديد .

خرج من دائرة المنام ودخل في هستيريا الواقع. امتدت يده إلى الرَّشاش النائم في حضنه . أحكم سطوته على الزناد ، وصعد من نومه كالمجنون ، وبدأ يطلق النار حقيقةً لا مناماً على الحائط المقابل له . إن الرصاص المتلاحق نخر الحائط بصورة عنيفة ، والصوت العالي المتدفق كالطوفان جعل أهل العمارة يستيقظون فزعين ذاهلين عن أنفسهم . والذي تلقى الصدمة الكبرى زوجته النائمة في نفس الغرفة فقد استيقظت وشَعْرها منفوش كنخاع الهذيان الحتمي ، ووجهها دخل في كومة ألوان ، فقد كان أسود مخلوطاً بالصفرة ، كأن الأنين يتفجر من خدودها . أما القشعريرة فسيطرت عليها ، بحيث لم تستطع الوقوف ، وتسمرت في فراشها ، والرجفة ابتلعتها حتى الثمالة . لم تكن تعرف ماذا حصل ، ظنَّت للوهلة الأولى أن الحرب قد عادت ، وأن هذا صوت القصف مثلما كان أيام الحرب الماضية . ألقت نظراتها في تفاصيل المكان ، فلمحت زوجها على السرير يمسك الرَّشاش . الرشاش يلمع في هذا المدى المفتوح على الضياع ، والمضاء بلون اللمبة الصغيرة . لأول مرة تخاف من زوجها وترتعب من قسمات وجهه المنزوية خلف لمعة الرَّشاش الغريبة . رأته وحشاً مُفزِعاً لدرجة أنها خافت أن تذهب إليه ، أو أن تقوم من فراشها ، ولم تملك في تلك الساعة الرهيبة إلا أن تستسلم لفيضانات النحيب الذي صوته كأنه أزيز الرَّصاص . إنها تبكي وتبكي ، وزوجها ذاهلٌ عنها كأنه في عالَم آخر ، يحدِّق في آثار الرصاص على الحائط . وفي زحمة العدم وازدحام الفراغ بالأضداد أخذ أهل الدار يقرعون الباب بشدة ، العجوز خضر وابنته فاطمة

والصغيرة خولة ،كلهم يقرعون الباب في آن واحد بشكل مُرعِب ، وفاطمة تصرخ وتبكي :

_ افتحوا يا جماعة ، افتحوا . ماذا حدث ؟ .

كان الوجوم في داخل الغرفة يسيطر على كل شيء ، والصراخ في خارجها يسيطر على كل شيء . مسح بلال العرق عن جبينه لكنه كان منقوعاً في العرق ، فثيابه مبتلة كأنها مغسولة للتو ، وجسمه ينتفض كالنورس المربوط على سكة حديد مزدحمة .

نهضت زوجته وهي تتلفت حولها خائفة من كل شيء . في ساعة النحس هذه كل شيء ضد كل شيء . أسرعت إلى القبض على مفتاح الباب المزروع في جسد الباب . يده ترتعش كأن أصابعها مزرعة باركنسون وغابات قشعريرة . أدارت المفتاح ، والخوف يمتص لمعان أظافرها. لحظة فتحها للباب كانت من أصعب لحظات حياتها على الإطلاق، هكذا يتحول المفتاح إلى المنقِذ. وأخيراً استطاعت فتح الباب.

وما إن فُتِح الباب حتى ألقت بنفسها في أحضان فاطمة، وحضنتْ ابنتها التي كانت تحدِّق في وجوه أهلها كأنها غريبة سقطت في منفى وحيد ، أو سجينة هبطت في زنزانة انفرادية . لم تكن البنت تفهم ما الذي يجري ، ولم تتقن في تلك الساعة غير البكاء .

دخل العجوز خضر إلى الغرفة ، وأشعل النور ، فرأى ابنه متسمِّراً على السرير حاضناً رشاشه في حالة يرثى لها ، فلون وجه بلال في تلك اللحظة كلون وجه حفار قبور مخصَّصة للجن،ولمعانُ عيونه كالومض في عيون ذئب يطلع من ضباب الذاكرة.

اقترب العجوز من ابنه ، وصار يمسح العرق عن جبينه ، وقال :

_ بسم الله الرحمن الرحيم. اسم الله عليك يا ابني . ماذا حدث معك يا

بلال؟.

أدرك بلال أن ما رآه كان كابوساً لا حقيقة له على أرض الواقع، وأدرك حجم الكارثة التي اقترفها بعد أن رآى آثار الرصاص على الحائط . وفي لحظة أدق من سيف الحلم انفجر بلال باكياً ، وارتمى في أحضان أبيه كالطفل الذي عاد من جنازة أمه ، ولم يجد حضناً دافئاً غير حضن أبيه . وفي زحمة الدموع وتكاثر الشهيق الحارق بدأ العجوز يبكي هو الآخر . إنه مشهد رهيب بالغ الصعوبة ، وبعد أن رُسِم على أرض الواقع دخلت فاطمة وفايزة والصغيرة خولة في البكاء متأثِّرات بالمشهد . لقد تحول المنزل إلى غابة دموع في لحظة واحدة ، غابة تمحو كل تواريخ الحلم ، لكنها غير قادرة على محو آثار الرصاص المغروسة في رئة الحائط كالضياع .

قال العجوز خضر لابنته فاطمة :

_ أحضري كوب ماء لأخيك بسرعة .

ركضت فاطمة باتجاه المطبخ كالهاربة من وحوش غابات الحلم ، وأحضرت كوب ماء . وكلما اقتربت من رؤية وجه أخيها ازداد خوفها وتسارع دقات قلبها المضمحل . أمسك العجوز خضر كوب الماء ، وقرَّبه من فم ابنه الذي راح يلتهم الماء التهاماً كأنه قضى حياته في الصحاري، ولم ير ماءً قبل هذه اللحظة . شرب الماء كله حتى آخر قطرة ، فقال له أبوه :

_ قل الحمد لله يا بلال .

قال بلال وقد أسند رأسه إلى الوسادة بعد أن ثبَّتها على رأس السرير الخشبية :

_ الحمد لله رب العالمين .

فقد كان في زحمة هدأة جسده المرتعش ناسياً موقعَ فمه،وشبه غائب عن الوعي.

قال له أبوه :

_ ماذا حصل يا بلال ؟ .

أطرق بلال برهة كأنه ينتشل ذكرياته من قعر بئر مفتوحة من الجهتين ، وبدأ يسرد المنام الذي رآه بالتفصيل ، وكيف أنه تفاعل مع الأحداث بصورة عفوية . أخذ أبوه يُهَوِّن عليه ، وقال مخاطباً نساء الدار :

_ اذهبن للنوم في غرفة فاطمة ، وأنا سأنام مع بلال هذه الليلة .

ولم تكد المرأتان والطفلة يذهبن إلى النوم حتى قُرِع جرس الباب قرعاً متواصلاً، فقال الأب :

_ اذهبن إلى النوم ، وأنا سأفتح الباب .

كان زياد هو القادم من طوايا العتمة ، وهو في حالة مزرية ، أشعث الرأس ، حافي القدمين ، ثيابه مبتلة . وكان قد سمع إطلاق النار المتواصل فظن أن الحرب اندلعت من جديد ، وقرَّر الاطمئنان على أهله ، إلا أن ثيابه كانت على حبل الغسيل مبتلة . وهذا ما جعله يتأخر بعض الشيء .

قال الأب :

_ أغلق الباب ، وتعال إلى غرفة أخيك ، سوف ننام عنده هذه الليلة .

أدرك زياد أن خطباً كارثياً قد حصل، وما إن دخل زياد الغرفة حتى هجم على أخيه معانِقاً إياه ليطمئن على صحته ، وبعد العِناق اللازوردي فهم القصة كاملةً ، فأخذ يواسي أخاه ويخفف عنه . وأخبرهما بأنه سيذهب لإغلاق باب غرفته على السطح وسيأتي إليهما فوراً . وبالفعل ذهب وأخبر الشيخ الذي كان قلقاً على غيابه بأنه سينام هذه المرة في بيت أهله ، فلا مبرر للقلق .

كانت مريانا قد سمعت إطلاق النار يرن في أذنيها فقامت من نومها فزعة ، وقد ظنت أن الحرب قد عادت ، أما زوجها فظل مستغرقاً في النوم السحيق فلم يسمع شيئاً . أخذت مريانا توقظه قائلة :

_ يعقوب ، استيقظ يا يعقوب . استيقظ، يبدو أن الحرب قد عادت. استيقظ

يا رجل .

فتح يعقوب إحدى عينيه اللتين غلَّفهما القذى وهو في حالة نصف نائم ونصف مستيقظ ، وقال :

_ ماذا حصل ؟ .

_ سمعتُ إطلاق نار ، يبدو أن الحرب قد عادت .

_ عادت أم لم تعد ، ما شأني أنا ؟ . غداً سنموت ونرتاح من هذه الحياة ، والآن أريد أن أنام .

تضايقت لما سمعتْ هذا الكلام ، وما زاد حنقها عودة زوجها إلى النوم بكل بساطة، وكأن موضوع الحرب صار روتينياً من فرط ما مرت به البلاد من حروب. قامت من نومها لتطمئن على ابنتها ، وارتدت شيئاً تستر به جسمها .

كانت راحيل قد سمعت صوت الرصاص فاستيقظت فزعة والخوف يشنقها في ميدان فارغ غارق في أعماق الوحدة والوحشة . إنها وحيدة في ضوضاء العمى ، ومنزوية في أعماق الانطفاء الشامل . إنها لا ترى شيئاً ببصرها ، وبصيرتُها كومة قش على مسلات الأعاصير . اقتحمت عزلة عينيها المطفأتين في زحمة هذا الضجيج الأعمى .

فتحت مريانا الباب دون أن تطرقه ، وقالت :

_ راحيل ، هل أنت مستيقظة ؟ .

جاء صوت ركيك من أعماق الرمال المنبوذة اختزله ضبابُ الروح المرتعش :

_ نعم .

وأردفت قائلة :

_ هل اندلعت الحرب ؟ .

هرعت الأم نحو ابنتها ، وحضنتها فشعرت بالرجفة تسري في جسد ابنتها ، فقالت :

ـ لا تقلقي يا راحيل ، فهذا صوت عابر جاء من هنا أو هناك. والحرب ذهبت ولن تعود .

ونامت الأم في تلك الليلة في غرفة ابنتها بعد أن امتصتا جرعةً كبيرة من الطمأنينة بسبب غياب صوت الرصاص نهائياً ، وعودة الهدوء العارم إلى رئة هذا الليل . وأدركتا أن صوت الرصاص كان حادثاً عابراً بسبب سرعة غيابه عن جسد الليل ، واختفائه في هذا الظلام العميق . فلو كانت هناك حرب لاستمرت أصوات الأسلحة بصورة أطول بكثير مما حصل .

١٢

وصل القس الجديد دانيال أنهانيوس وهو يوناني الأصل إلى هذه البلدة ، فقد تم تعيينه كراعي كنيسة . وصل مرهقاً من أثر السفر والعرق يمضغ زِيَّه الكهنوتي الذي يأكل جسدَه النحيل جداً ، فرأى في طريقه خمارة الأرمني ، فظن أنها مطعم لا أكثر ولا أقل . فهذه الخمارة ليس عليها لافتة تُوَضِّح أنها خمارة . ورأى القس من خلال الزجاج المعتم أناساً جالسين حول الطاولات، فاعتقد أن هذا مطعم. وبعد التحديق لمح أطياف بشر يجلسون حول الطاولات ، فالزجاج كان يميل للسَّواد ، ويمنع الرؤية بوضوح . ودخل في لحظة نحس عارمة ، ومن شدة التعب جلس على إحدى الطاولات القريبة من الباب دون أن يُحَدِّق في الحضور . ولو حدَّق لرأى زجاجات الخمر تجتاح خشب الطاولات بشكل كارثي . رأى الأرمني ذلك القس بزيه الكهنوتي فتعجب كثيراً ، فما الذي يفعله القس في هذا المكان ؟ ، أما الزبائن فكانوا غاطسين في عوالم أخرى من السُّكْر والهذيان ، إنهم يجلسون حول الطاولات غير شاعرين بمن يدخل ومن يخرج .

عدَّل الأرمني صليبه بعد أن كان مائلاً بعض الشيء ، واقترب من القس بخطى غير واثقة ، وقال :

ـ بماذا أخدمك يا سَيِّدي ؟ .

انتبه القس إلى منظر الصليب على صدر الأرمني ، وفي ذات الوقت شم رائحة فم الأرمني الكريهة ، فأُصيب بالاشمئزاز والقرف من الرائحة الكريهة القادمة من ذلك الفم ، فأشاح بوجهه عن الأرمني ، وقال :

_ أريد عشاءً ، قليلاً من لحم الخنزير أو لحم الضأن ، وصحن سلطة ، وبعض المقبِّلات ، وكوب شاي .

أُصيب الأرمني بالوجوم ، فهو لا يُقَدِّم أي شيء مما ذُكِر ، وقال في نفسه :

_ يبدو أن في الأمر سوء تفاهم .

وقال الأرمني :

_ ولكن هذا المكان ليس مطعماً .

_ وما هو إذاً ؟ .

_ إنه خمارة ! .

انتفض القس كالملسوع ، وهب واقفاً ، والارتباك والدهشة تنتفان لحيته المصبوغة بالسواد لكي يبدوَ في مرحلة الشباب مع أنه تجاوز الخمسين بقليل ، وصار يجيل بصره في المكان خوفاً من أن يراه أحد ما ، وتصبح فضيحة مدوية ، لكن السكارى المتناثرين في المكان المعتم لم يكونوا عالمين بما يجري ، فكل واحد منهم يُحَدِّق في زجاجة الخمر كما لو كانت زوجته التي تخونه مع ابن الجيران أو صورة أرملة جندي هرب من المعركة . وقال بعد هذه الانتفاضات السريعة :

_ ولكنني لم أدخل خمارة في كل حياتي .

قال الأرمني مبتسماً ابتسامة خفيفة فضحت منظرَ أسنانه الصفراء :

_ ولكنك دخلتَها الآن ! .

وأردف الأرمني قائلاً بسخرية لاذعة محاوِلاً استفزاز القس والعبث به :

_ يا سَيِّدي القس ، كل هؤلاء الذين تراهم في الخمارة أبناء عائلات محترمة

من شتى الطبقات . إنني أُحقِّق الوحدةَ الوطنية وتلاحم قوى الشَّعب في هذه الخمارة بعد أن عجز الساسة عن ذلك ! ، فالفقير على طاولة واحدة مع الغني ، والعالِم مع الجاهل ، والنظيف مع القذر . وبهذا يتحد أبناء الوطن ، وهكذا نكون في غنى عن مشاريع الحكومة التي تسرق الشعب ! ، فالعلاقة بين الشعب والحكومة مثل علاقة الرَّجل مع زوجته التي تخونه أمام عينيه ، وتظل تمضغ العلكة بكل وقاحة .

كان القس يعرف أن هذا الخمَّار يعبث بالكلمات عمداً ، لكنه صار يفكِّر فيما يسمع بشكل عميق ، كأنه سُحِرَ بهذا السخرية اللاذعة ، وصدَّق الأكذوبة ، ووقع في الوهم معتنقاً إياه .

ولمعت عينا الأرمني ، وتداخل الاحمرار الدموي مع بياض بؤبؤ العينين ، وقال :

_ ماذا لو أطفأتَ عطشك بزجاجة نبيذ فرنسي معتَّق كان يوماً ما عنباً جزائرياً؟ . لن تخسر شيئاً ، اشرب واسكر ومتِّع نفسك ، واعترف أمام نفسك بالخطيئة ، ألا يأتي الناس ليعترفوا أمامك بذنوبهم لأنهم يعتقدون أنك تملك سُلطة غفران الذنوب ؟! ، فاسكر واغفر لنفسك هذا الذنب . فهذه البلاد لا تحب المستيقظين، إنها تعشق السكارى والمساطيل. وما الذي فعله المستيقظون في بلادنا ؟.

إن الحي والميت لهما نفس المكانة في هذا الوطن المقبرة .

إن القس يدرك أن كلام الخمَّار سخيف للغاية وغير مقنع ، لكن هذه الشبهات تسرَّبت إلى تفاصيل جسده ، مما جعله يجلس على الطاولة بعد أن هم بالمغادرة ، وقال :

_ أحضر لي زجاجتي نبيذ لا زجاجة واحدة .

_ هذا هو الكلام ، وثِقْ يا سَيِّدي القس بأنك لن تكون أول سكير في هذا

العالَم ولا آخر سكير ، فالذين يقودون بلادنا سِكّيرون . فدولتنا تقتل أصحابَ العقول المستيقظة ، إنها تريد كائنات بلا أدمغة ليسهل حكمهم كالأغنام التي صار مستقبلها وراءها. لقد فشل المستيقظون في تحرير فلسطين ، وربما يحرِّرها السكارى .. مَن يَدري ؟! .

كان القس لأول مرة في حياته يسمع كلاماً من هذا النوع . بدا الكلام ظلاً للرعب السحيق ، حيث ينقلك الوهم من جرح مفتوح على كل الاحتمالات إلى احتمال مفتوح على كل الجراح. إن الطاولة التي يجلس عليها صارت مقبرة زجاجية ترصده جراحاً لكل السنابل المنطفئة .

استقرت زجاجتا النبيذ على الطاولة . رسم الصليب على صدره مثلما فعلت أنَّا كارنينا قبل أن تنتحر ، وطلب المغفرة قائلاً :

ـ ليغفر لي يسوع .

وشرب الأولى حتى آخر قطرة، وقفز إلى الثانية بشبق هستيري كشهوة صحراء ترضع من اللبؤة . لأول مرة يريد أن ينسى كل ما حوله ، أن يعيش في عوالم بدون انتظار الراتب آخر الشهر، أو دفع الضرائب المتكاثرة كالجوارب الشتائية . ظن أن بإمكانه صناعة عالمه الخاص خارج نفوذ رجال المخابرات ومومسات البلاد ولصوص الحكومة . هكذا كان يُفكِّر ، ولستُ أدري كيف سقط في هذه الحفرة ، وهو نفسه لا يدري كيف سقط . ومن يوقع نفسه في هذه الحفرة فلا يَتوقع مرور شخص ما لينقذه ، فالذي لا ينقذ نفسه لن ينقذه الآخرون مهما استغاث طالباً المساعدة .

في تلك الليلة حيث يتجول النحس بين الطاولات، ويلتصق على ألواح صدور البشر الدائرين في أفلاك زحمة الفراغ العدمي . وصل القس إلى ذروة السُّكر والانطفاء الشرس ، بحيث لم يعد قادراً على المشي ، وصار يتفوه بكلمات غير منطقية .

جاء الخمَّار إلى الطاولة المنحوسة ، واتخذ وضعية محدَّدة من أجل أن يجر القس الذي فقد قواه العقلية تماماً . أدخله إلى الغرفة الصغيرة حيث السرير الذي كان يستريح عليه هاني ، ورمى القسَّ على السرير ، ورفع قدميه عن الأرض . غرق في سبات الأعاصير ، وبدأ الشخير يغزو أركان الغرفة المضمحلة .

وفي جبهة الخمَّار انتحرت سنابل الخريف الذي يتشمس في الذبول الكَوْني ، وتعالت صفرة وديان قلبه الميت ، ففكَّر في سرقة القس الذي لن يُقاوِم لأنه فاقد لقواه العقلية والجسدية . ابتسم الخمَّار بخبث ، وألقى يديه في جيوب القس ، وقام بتمشيط منطقة العمليات بشكل كامل ، وأخذ كل المال الذي كان في الجيوب . عد المبلغَ فوجده مئة وأربعة وخمسين دولاراً ، فقال باستهزاء مخاطباً القس الذي غدا كالجثة الهامدة بلا حراك :

_ سامحني يا سَيِّدي القس ، فقد انتهى الإخلاص والشرف في هذا العالَم ، وصار صعباً على الإنسان أن يجد صديقاً مخلصاً ! .

وقُرب الخمَّارة ، وفي أحد الأزقة البائسة حيث الروائح الكريهة ، روائح النفايات والمجاري الفائضة ، وعيون القطط الهزيلة التي لا تجد شيئاً لتأكله ، والمخلوقات الآخذة في الانقراض ، كان أسعد يمشي وحيداً إلى اللاهدف ، فإذا لم تعرف وجهتك صار المشي وجهتك اللانهائية . صار يخاطب نوافذ الأبنية ذات الزجاج المتكسِّر ، والحيطان الكالحة . وقد كان يسمع الأحاديث الجنسية والضحكات بين الأزواج في غرف النوم ، فخجل من نفسه ، وصار مهاجراً من زقاق إلى زقاق ، وما زلتُ أسمع كلامه الذي كان ينثره على أجساد البيوت بعد أن لم يجد أحداً يكلمه :

_ ذهبتْ حياتي مثلما يذهب كل شيء إلى اللاشيء . من كثرة جروحي لم أعد أشعر بالجرح ، وصرتُ أستغرب إذا كنتُ يوماً غير مجروح . يا أيها الحزن المتدفق كالسيول من ألواح صدري من حيطان غرفتي من الأرصفة الكالحة من اليود البحري

. يا أيها الألم الطالع من حفر المجاري ، من جثث الفتيات المغتصبات من دم القطط الشاسع على الإسفلت بعد أن دهستها سيارات المرسيدس للأرستقراطيات. لو كان عندي زوجة لاختبأتُ في أجفانها وقرأتُ تعاليمَ الضباب على أضواء السيارات . ما زلت أُقاتِل ،كل النساء اللواتي أحببتهن باعهن أهلهن للأمراء ورجال الأعمال وضباط المخابرات ، وصرتُ مهرِّجاً لا أكثر . أنا المنبوذ الذي لا تحبني إلا القطط الشريدة والكلاب الضالة قبل أن يُطْلَق عليها الرصاص . إذا أعجبتك امرأةٌ فأحببها ، وإذا أُعجبتَ بامرأة متزوجة فأحبها هي وزوجها معاً .

وكانت إحدى النساء قريبة من شرفة بيتها الوضيعة فسمعت هذا الكلام لكنها لم تفهم شيئاً ، وأقنعت نفسها بأن هذا كلام مجانين ، وليس غريباً أن يصدر من واحد كأسعد الذي صار في هذه البقعة المنسية أكثر شهرة من رئيس الدولة ، وطلبت من إحدى بناتها أن تحضر ماءً لتسكبه عليه . وبالفعل خرجت إلى الشرفة بقميص النوم وبرفقتها ابنتها وسكبت على رأسه الماء البارد بقسوة منقطعة النظير قائلة :

ـ اذهب من هنا أيها المجنون ، ابحث لك عن الزرائب لتنام فيها .

لم ينتفض أسعد كأن شيئاً لم يكن ، واكتفى بالقول بصوت عال :

ـ أجارتَنا إنا غريبان ههنا وكُلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ .

وبالطبع لم تفهم المرأة شيئاً ، في حين أن ابنتها قالت والمفاجأة تقتلعها :

ـ إن هذا بيت شِعر لامرئ القيس ، إنهم يُدَرِّسوننا إياه في المدرسة .

ـ هذا كلام مجانين ، لا امرؤ القيس ولا بطيخ ! .

وتابع أسعد كلامه قائلاً :

ـ يا جارتي ، أنا لستُ رَجُل أعمال تنتظرينه خلف زجاج سيارات المرسيدس ، أنا انتصارُ المعارك الحاسمة وأعواد المشانق وأحلام الشحاذين وذكريات البنات المغتصَبات في سراييفو ورواندا وسان بطرسبرغ .

كانت هذه المرأة الأمية لا تعرف من الحياة غير ممارسة الجنس ، فهي لم تذهب إلى مدرسة في حياتها ، حتى مَدْرسة ابنتها لا تعرف أين تقع ، وتزوَّجت وهي في الرابعة عشرة، شأنها شأن الكثيرات في هذه البلدة المحذوفة من خارطة الحلم .وهناك نساء عقولهن في شهواتهن الجامحة ، لا مكان للثقافة في حياتهن ، المهم أن تشبع شهوتها مع زوجها، وتنجب له أولاداً ليفتخر بهم في الأعراس والمآتم . أما إن أنجبت إناثاً فالويل لها من كلام زوجها ، وكلام جاراتها اللواتي لسن في وضع أفضل منها . وفي هذا المكان تُسْحَق المرأة مثلما يُسْحَق الرَّجل . الكل يركض في الفراغ ، فلو سألتَ هذه المرأة أو زوجها عن الإمام الغزالي أو المتنبي أو أحمد شوقي لما عرفوا من هؤلاء الأشخاص ، وربما ظنوا أنهم سائقو سيارات الأجرة أو وزراء في الحكومة ! .

وفي صباح اليوم التالي كانت الشمس تعانق الطيور المهاجرة . استيقظ القس والانبهار يملأ زوايا تجاعيد وجهه .

ـ أين أنا ؟ .

سأل نفسه . لكنه بدا وكأنه يسأل الحيطان في هذه الغرفة الغريبة . كل شيء هنا يبدو غريباً وخارجاً عن المألوف . نهض وخرج من هذه الغرفة الضيقة ، فانفتحت عيناه بكامل استدارتهما على الطاولات . كان الخمَّار يُرَتِّب زجاجات الخمر على الرفوف الخشبية، وما يثير تعجبي أن الخمر لم تنقطع من هذه الحانة طوال فترة الحرب ، وهذا الأمر ما زال يُحَيِّرني بشدة منقطعة النظير .

صار القس يتذكر تدريجياً ما حصل معه البارحة . مر الأمر مثل الحلم ، بل مثل الكابوس . لم يُصَدِّق أنه ارتكب هذه الخطيئة . واقترب من الخمَّار الذي أظهر لامبالاة مقصودة . ولما رأى القس المشهدَ بهذا الاستخفاف وعدم الاكتراث قرَّر المغادرة دون أن يُكَلِّم الخمَّار . ولم يكد القس يصل الباب حتى سمع صوت الخمَّار وهو يقول :

ـ سَيِّدي القس ، أنتَ لم تدفع لي البارحة ثمن ما شَرِبْتَه ، ولكنني سامحتك من أجل يسوع المخلِّص ! .

كان الخمَّار وقحاً للغاية في كلامه، فهو أصلاً لا يؤمن بفكرة الإله المصلوب المخلِّص ، ويعتقد أن هذه العقائد متناقضة مع المنطق يتم ترويجها بين البسطاء الذين يسهل الضحك عليهم ، لكنه أراد أن يغيظ القسَّ ، ويُمَثِّل دورَ العارف بالمعتقدات الإنجيلية ليبدوَ مثقفاً ، وليس خمَّاراً فحسب .

أحس القس بالإحراج والإهانة، وشعر كأنه أسير مهزوم في المعركة أشفق القائد المنتصر عليه فخلى سبيله . خرج من الخمَّارة وهو يجر أذيال الخسارة كالعاشق الفاشل ، أو كالزوج الذي يحب زوجته ويعلم أنها تخونه، فلا هو قادر على فراقها ، ولا هو قادر على منعها من الخيانة .

كان القس يعرف موقع الكنيسة بدقة ، فقد زارها قبل ثمان سنوات برفقة وفد كنسي أوروبي لبحث زيادة عدد الكنائس في هذه المنطقة . وفي أثناء طريقه تحسَّس جيوبه فلم يجد المال . عاود الكرَّة ، وأدخل يديه في جيوبه فأدرك أن ماله قد سُرِق منه ، وأيقن أن ذلك الخمَّار له يد في الموضوع . فعندما دخل الخمَّارة كان بحوزته المبلغ كاملاً ، وبعد خروجه منها لم يجد ذلك المبلغ . وعلى الرغم من يقينه التام بسرقة الأرمني له، إلا أنه قرَّر عدم العودة لأنه قرف من ذلك المكان ، واستغنى عن ماله ، ولم يطالب به بتاتاً .

وصل القس إلى موقع الكنيسة والدَّير ، وقرَّر أن يزور الدَّير ليُعرِّف الراهبات على هويته بوصفه راعياً جديداً للكنيسة . طرق الباب ففتحت له الراهبة عايدة قائلةً :

ـ نعم ، أية خدمة ؟! .

اشمأز القس من رؤية نظارات الراهبة السميكة التي تعكس انطباعاً بالاكتئاب والسذاجة ، واشمأز أكثر من هذا الاستقبال الجاف ،كأنها لم تلاحظ زيه

الكهنوتي .

وقال في نفسه :

_ ألا يوجد راهبة أفضل من هذه لتستقبلني ، راهبة شقراء شابة ممتلئة بدلاً من هذه الجثة الواقفة أمامها كشاهد القبر .

إن عايدة موغلة في البساطة والسذاجة في آن معاً ، وهي طيبة القلب لا تعرف الحقد ، كل مستقبلها وراءها ، لا تاريخ لها سوى الحزن المقطَّر على حواف نظارتها السميكة التي رافقتها منذ شبابها حتى الآن ، وكلما انكسرتْ أَصْلَحَتْها دون أن تفكر بشراء واحدة جديدة . إن منظرها يُقَطِّع القلب ، فلا أحد يسأل عنها في هذا المكان ، فأهلها قد أهملوها نهائياً كأنها كانت عبئاً على أكتافهم ، وسرعان ما ألقوه في حفر الدموع السحيقة .

عدَّلت عايدة وضعية نظارتها، وركَّزت النظر في ثياب القس الكهنوتية، فأيقنت أن هذا الشخص رجل دين. ارتعبت من رؤيته، وخالجها شعور بالرهبة ، فهي أصلاً غير واثقة بنفسها في الظروف العادية ، فما بالك إذا كان الظرف غريباً كرؤية رجل دين بزيه الكهنوتي ؟!. وهي غير معتادة على رؤية الرجال ، فالدَّير صار قبرها الجوال في صحاري الروح .

قالت والارتباك يقضم أجزاء صوتها :

_ تَفَضَّلْ يا سَيِّدي القس إلى الداخل .

_ بدايةً دعيني أُعرِّفك بنفسي ، أنا جاركم القس دانيال أنهانيوس راعي الكنيسة الجديد .

لم تعرف ماذا تفعل في ذلك الموقف سوى السماح بإدخاله إلى الدَّير دون تنبيه الراهبات اللواتي قد يكن في وضع غير لائق . وما إن دخل الدَّير حتى وقعت عيناه على تيريز وهي في ملابس رقيقة . كان المشهد كارثياً من جميع النواحي ، وبدت عيناه كجمرتين على حبال غسيل قرميد الوداع ، وسرى في خدوده الاحمرار

العنيف ، فأسرعت تيريز للاختباء في الغرفة التي تتواجد فيها الراهبات ، وهي تشتم عايدة في نفسها لأن سمحت بدخول رجل دون أن تُنَبِّه الراهبات لكي يأخذن الاحتياطات ويظهرن بمظهر لائق .

أحس القس بفداحة الموقف ومقدار الإحراج الهستيري ، واقتنع بأن هذه الراهبة لا تتقن التصرف، فانسحب بهدوء، وخرج من الدَّير ، وأغلق الباب وراءه. وفي أثناء ذلك كانت تيريز تخبر الراهبات بوجود رجل في الدَّير ، فعم الارتباك في أوساط الراهبات ، والمشكلة أن زي الرهبنة الخاص بتيريز كان في الغرفة الأخرى ، وهي الآن في ملابس النوم، فالوضع بالغ السوء لدرجة شرسة جداً بالنسبة للجميع. وبينما كانت الراهبات يغرقن في القلق والحيرة والرهبة دخلت عليهن عايدة بابتسامتها الحمقاء ، وقالت :

ـ لقد خرج القس .

تنفست الراهباتُ الصعداء ، وبدأن يُوَبِّخْن عايدة بصورة قاسية ، ومسحن الأرضَ بكرامتها أو ما تبقى من كرامتها ، فكيف سمحت بدخول رجل غريب إلى مكان لا يوجد فيه إلا النساء الخارجات للتو من النوم ، وهن يضعن على أجسادهن ملابس رقيقة للغاية . تأثرت عايدة بهذا التوبيخ الجماعي الذي انهمر عليها كأعواد الكبريت المتساقطة من أجنحة المروحيات العسكرية ، وبدأت تبكي بحرقة بالغة منتهاها. انسحبت تيريز من المكان دون أن تنبس ببنت شفة ، في حين أن باقي الراهبات أخذن يخففن عنها ، ويعتذرن لها ، ويطلبن منها أن تكف عن البكاء . وبالفعل توقف بكاء عايدة .

وخرجن كلهن لإعداد طعام الإفطار بعد أن غَيَّرْنَ ثيابهن. تَجَمَّعْنَ حول المائدة، وشبَّكت تيريز أصابع يديها ، وقالت بصوت عال :

ـ بسم الرب يسوع ، أبانا الذي في السماوات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء ، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم

، واغفر لنا ذنوبنا، كما غفرنا نحن للمذنبين إلينا ، ولا تدخلنا في تجربة ، لكن نجنا من الشرير .

وبدأ التهام الطعام بعد هذه المقدمة التي ترددها تيريز على مائدة الطعام . لكن جودي لم تكن ترددها ، فقد أصبحت لا تعترف بالمسيح ربَّاً لها من كثرة المطالعات التي قامت بها ، مع احترامها له ومحبتها إياه ، فالمخلوق الذي يذهب لقضاء الحاجة ويحمل الأوساخ في جسمه لا يمكن له أن يكون إلهاً. هذا ما تقوله في نفسها . لكنها أيضاً لم تعتنق ديانةً أخرى . فهي الآن تبني أفكارها وفق عقائد متضادة ، كل جزء فيها ينفي ما يقابله . وهي تعلم أن وضعها بالغ التعقيد والتصادم .

وفي أثناء الطعام قالت تيريز وقد تكوَّم الطعام في فمها حيث كانت بطيئة المضغ، وتستعمل طقم أسنان بعد سقوط عدد كبير من أسنانها :

_ من هذا الرَّجل الذي أدخلته إلى الدَّير ؟ .

فهمت عايدة أن الكلام مُوَجَّه إليها ، فقالت :

_ إنه القس دانيال أنهانيوس راعي الكنيسة الجديد .

ظهرت اللامبالاة على وجه تيريز ، وقطَّبت حاجبيها، وقالت بلهجة استنكارية:

_ الآن تذكروا أن يرسلوا راعياً لهذه الكنيسة المهجورة بعد أن أكلها الغبار والقاذورات ، ولم يعد يدخلها إلا الجرذان ؟! .

وأردفت قائلة :

_ لن يستطيع القس أن يقوم بتنظيف هذه الكنيسة لوحده، وسوف يرجع إلينا ليطلب مساعدتنا في التنظيف ، هكذا نعيش خادمات ونموت خادمات .

وكان توقع تيريز صحيحاً، فبعد أن فتح القس باب الكنيسة شم رائحة سيئة خانقة . وعندما توغل في هذا المدى الهستيري رأى المنظر كارثياً ، فالغبار يبدو كأنه ناطحات سحاب على المقاعد وصور الجدران، والصلبان الضخمة بدت بلا

لون من كثرة الغبار، والأوساخ على الأرض، وقطعان الفئران تقفز على المقاعد سعيدة، ثم أخذت في الهجرة إلى مخابئها بعدما أحست بحركة القس .

أسرع القس بالخروج والسعال يمزّق حنجرته قائلاً في نفسه :

_ لا بد أن الرَّب غاضب عليَّ إذ أحضرني إلى هذه الكنيسة .

وكما قالت تيريز فإن القس عاد إلى الدَّير ليطلب المساعدة . همَّت عايدة بفتح الباب لكن تيريز أوقفتها ، وقالت :

_ أنا سأفتح الباب لأعرف كيف أتعامل مع هذا القس .

وبالفعل فتحت تيريز البابَ فالتقت عيناها بعيون القس الذي ظهرت على سحنته ممالك الاكتئاب وعوالم القرف والضيق بعد أن رأى الأوساخ في الكنيسة . وتفاجأ القس بملامح تيريز القاسية التي جعلت منها التجاعيد امرأة خشبية صارمة ودميمة ، فقال بنبرة خائفة بعض الشيء :

_ أنا جاركم القس دانيال أنهانيوس راعي الكنيسة الجديد .

_ أهلاً وسهلاً أيها القس ، بماذا أخدمك ؟ .

_ بصراحة أنا خجلان منكن لأني أريد مساعدتكن في تنظيف الكنيسة بيت الرَّب ، فهذا الأمر لا أقدر عليه وحدي . وبصراحة أنا آسف أنني أطلب منكن ذلك ، ولكن للضرورة أحكام .

قالت تيريز وقد ظهر على وجهها الاشمئزاز :

_ بصراحة يا حضرة القس ، إن التنظيف ليس من وظيفتنا ، ولكنْ بوصفنا أخوات يسوع وخادمات الرَّب ، فسوف نساعدك في تنظيف الكنيسة ، وسنحضر بعض نصف ساعة .

تهلَّلت أسارير القس وشكر الراهبة بكل كلمات الشكر التي خطرت على باله، وانصرف بعد أن انحنى لها . وفي طريق عودته إلى الكنيسة كان جريحاً في قلبه بسبب ما أبدته من عجرفة من وجهة نظره ، حتى إنها لم تدعه إلى الدخول ، وظل

الحديث بينهما على الباب ، وهذا الأمر أثَّر سلباً في نفسيته ومشاعره .

عادت تيريز لتخبر الراهبات بالأمر ، وقد استقبلن النبأ بمزيد من الإحباط والاكتئاب ، وقالت لارا :

_ يا أخت تيريز ، لماذا لم تعتذري له عن التنظيف ؟ .

_ يا جاهلة ، لو اعتذرتُ له فسوف يُخبر المجلس الكنسي الأعلى ، مما قد يؤدي إلى حرماننا من المكافآت المالية .

وهنا تدخلت عايدة قائلة :

_ أحسنتِ يا أخت تيريز ، فالمكافآت المالية تستحق التضحية والعناء .

وهنا تدخَّلت كاترين قائلةً :

_ سنظل خادمات طوال حياتنا، ونظل ممسحة على أقدام الوهم . أنوثتنا تضيع مجاناً ، ولا أحد يسأل عنا إلا إذا كان يريد منا أن نخدمه .

هي كلمات صاعقة تنهمر على أكتاف تلك الآنسات اللواتي ينتظرن في محطة القطارات الفارغة قدوم تجاعيد الغابات المحترقة. ولم تقم أية راهبة بالتعليق على هذا الكلام لأنهن يشعرن بوخز فظيع في مسامات جلودهن الجافة ، وخز بركاني ينبع من أنوثتهن المستلَبة ، ودموعهن المخفية عن سجاجيد المكان . أما جودي فلاذت بالصمت المرعِب، ولم تُعَلِّق على الموضوع سلباً أو إيجاباً ، فهي قد وصلت إلى ذروة القرف ونهايات الحلم الهش ، فلم تعد الأشياء المحيطة بها تعني لها شيئاً .

قالت تيريز بلهجة حادة :

_ لن أتراجع في كلامي، فلتُجَهِّز كل واحدة منكن نفسها لكي نذهب لمساعدة هذا القس الذي لم يأت إلا ليُدَمِّر حياتنا ، ويزيدها قرفاً ومشقة .

وبعد أن جهَّزن أنفسهن وحملن معدات العمل ذهبن إلى الكنيسة التي كانت في وضع هستيري بامتياز ، ففي تلك اللحظة أدركن حجم الكارثة ، فالروائح

الكريهة تنبعث من كل شيء ، من الرسومات الحائطية ، من زجاج النوافذ، من شقوق الجدران ، من المقاعد التي صارت مزرعة فئران وأغبرة لا نهائية. تَسَلَّحْنَ بالاكتئاب وبدأن العمل في ساعة نحس مستمر . وأيضاً كان القس يُنَظِّف المكان، واستمر العمل بلا كلل ، لكن الجميع كان يتأفف في دواخله دون أن ينبس ببنت شفة .

١٣

كانت حالة بلال تزداد صعوبة بصورة مقلقة ، فقد قضى الليل في التقيؤ والذهاب إلى المرحاض . ازداد انهمار العرق من كل زوايا جسده المفكَّك ، ورفض أن يترك سلاحه. ظل حاضناً له طوال الليل الذي لم يستطع أن ينام فيه . وقد قضى أهل البيت ليلتهم في الأرق والتفكير والانهيارات التي يقاتلونها بما تبقى من دماء في أجساد أحزانهم. وحدها خولة هي التي نامت في تلك الليلة الطويلة جداً . بدا الليل كأنه قطعة من العذاب الذي لا ينتهي . العجوز خضر وابنه زياد بقيا ساهرَيْن يتناوبان على الاعتناء ببلال ، لكن زياداً طلب من أبيه أن يرتاح لأنه سيعتني بأخيه. أما فاطمة وفايزة فتذرعان المكان ذهاباً وجيئة دون أن يُغمَض لهما جفن . وصار بلال يسمع صوت الرصاص يرن في أُذنيه ، ويشاهد صور المعركة على الحائط كأنه شاشة سينما عملاقة. إنه يرى الأمكنة التي سقط فيها رفاق السلاح . وصار يركض في الغرفة كأنه يريد أن يُسعف أحداً ما . وأخذ يُكَلِّم نفسه بصوت عال قائلاً :

_ سوف أقتل هؤلاء الأعداء . لن أسمح لهم أن يمروا على جثتي . سأقتلهم واحداً واحداً . أطلقي أيتها المدفعية كل ما جعبتك ، تعالي يا طائراتنا لتقصفي الأعداء . في رأسي أصوات الرصاص والقنابل ، وأصدقائي يتساقطون واحداً تلو الآخر .

ثم نظر إلى أبيه وأخيه اللذين اكتفيا بالمشاهدة وهما غير مُصَدِّقَيْن ما يحدث ، وقال :

_ سوف أذهب إلى إنقاذ الجرحى ، ودفن جثث الجنود ، وسأعود فوراً ، فإن سأل عني القائد فأخبراه أنني لم أهرب من المعركة .

وخرج من الغرفة ، وصار يركض في مدارات البيت ، وأهل الدار يركضون وراءه ليُمسكوا به ويُخفِّفوا عنه . وحاول الخروج من البيت لكنه وجد الباب مغلقاً . قفز عليه أخوه زياد ، وأمسكه ، وأجلسه على الأرض ثم بدأ يُخفِّف عنه ، ويتلو عليه آيات قرآنية ، فهدأ واستقرت نفسه ، ثم قال بهدوء :

_ لكنني لن أترك الأعداء ينتصرون علينا ، سوف أطلق عليهم النار .

وهم بإطلاق النار من سلاحه، فقفز عليه زياد، ومنعه من فعل ذلك . وللأسف فالأمور اتخذت منحى كارثياً ، فصار من الصعب السيطرة على الوضع . وحمداً لله فقد هدأت نفسية بلال بعض الشيء بعدما عاود أخوه قراءة القرآن عليه . لقد استسلم للنوم ، وقبل أن يستسلم لسلطان النوم حضن الرَّشاش ، كأنهما صارا جزءاً واحداً في جسد منهك حتى الوخز .

قال العجوز :

_ يجب أن نأخذه للمستشفى لكي يعالجه الأطباء .

عارض زياد هذه الفكرة ، وقال :

_ يا أبي إن مشكلة بلال نفسية ، وليست جسدية ، فأنا أقترح أن نأخذه إلى طبيب نفسي .

انتفض العجوز كأنه قد تلقى دلواً من الماء البارد ، وقال مستنكراً :

_ طبيب نفسي ؟! ، وماذا سيقول عنا الجيران ؟ .

_ دعك من الناس يا أبي ، المهم صحة بلال الذي يضيع من بين أيدينا تدريجياً ، واطمئن فلن يعرف الناس بقصة الطبيب النفسي .

استقبل العجوز الفكرة بكثير من عدم الارتياح ، لكنه كان مجبراً على الرضوخ لها . وبعد أن تجرعها سعالاً وصديداً في ذهنه قال :

_ وهل تعرف طبيباً نفسياً جيداً ؟ .

_ أعرف أهم طبيب نفسي في البلاد كلها ، الدكتور عبد الرحيم جوهر ، وهو صديق عزيز لي .

_ لكنه قد يأخذ مالاً كثيراً لعلاج حالة أخيك ، ونحن كما تعلم لا نملك مبالغ ضخمة .

دارت هذه المناقشة في حضور فاطمة وفايزة اللتين ظلتا واقفتين تراقبان مسار الحوار بكل تلهف . وعندما وصل الأمر إلى مسألة المال قالت فايزة :

_ أنا مستعدة أن أبيع كل ما أملك من ذَهَب وملابس وغيرها من أجل علاج زوجي .

ضحك العجوز ضحكة امتزجت فيها السخرية بالمرارة العاصفة ، وقال :

_ وهل تسمين هذا الخاتم والسلسلة ذهباً ؟ .

وتدخلت فاطمة قائلة :

_ أنا وفايزة سندفع كل ما نملك مقابل أن يُعالَج بلال .

وفي تلك اللحظة قال زياد :

_ يا جماعة ، دعونا لا نستبق الأحداث ، مسألة المال محلولة وليست مشكلة ، فأنا أملك جزءاً لا بأس به ، وسأتدبر أموري . المال يأتي ويذهب ، المهم أن ننقذ بلالاً الذي دمَّرته الحروبُ العبثية التي اخترعتها حكومتنا الغبية بلا معنى .

وأردف قائلاً :

_ سأصعد إلى غرفتي، وأرتدي ثيابي ، وسأُحضر معي مبلغاً من المال ، ثم نذهب إلى الطبيب .

صعد زياد إلى الغرفة . طرق الباب فلم يجبه أحد ، أعاد الكرَّة ، لكن محاولته باءت بالفشل . أمسك مقبض الباب وحرَّكه فإذا الباب يُفْتَح ، فهو لم يكن مغلقاً بالمفتاح . فتَّش كل أجزاء الغرفة فلم يلمح أثراً للشيخ ، لكنه عثر على ورقة

موضوعة على السرير وفوقها مئة دولار أمريكي . أمسكها وراح يقرأ ما فيها :

((بسم الله الرحمن الرحيم ، أخي زياد ، أنا آسف لأنني تركتُ الغرفة دون أن أُعْلِمك . أرجوك لا تبحث عني ، فأنا في مكان ما تحت شمس بلادنا التي تعترف بنا. لقد ضاقت الأرض علينا واتَّسعت لحكوماتنا القاتلة ولصوص الوطن والمومسات . ربما نلتقي يا زياد في ظروف أفضل من هذه . واعلم بأن الأرواح جنود مجنَّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . لكننا نعاهد اللهَ أن نظل جنوداً أوفياء ضد أعداء الدَّاخل والخارج . كما أود أن أشكرك على كرم الضيافة الذي قابلتني به ، وأنا آسف لأني كنتُ عبئاً ثقيلاً عليك . وقد تركتُ لك مبلغاً متواضعاً عبارة عن مئة دولار كهدية من أخ مخلِص ، لعلمي أنك بحاجة إليه . وقد كان بودي أن أترك لك المبلغ بالعملة المحلية وليس بعملة الغزاة الأمريكان ، ولكن حكومتنا ضيَّعت البلاد بسياساتها الرعناء . وأخيراً أقول لك :

أخي صبراً على ألم الفراق   كلانا للنوى والشوق باقِ

إذا انفصلت هياكلنا وبالت   فروحي نحو روحك في عناقِ

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أخوك سليمان ثويني)) .

ولم يكد زياد ينهي قراءة الرسالة حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وكاد يجهش بالبكاء ، لكنه تمالك نفسه ، وقال كأنه يخاطب الحِبر الذي كُتِبت به الرسالة :

_ السلام عليك يا سَيِّدي الشيخ ، يوم وُلِدْتَ ويوم تموت ، ويوم تُبْعَث حياً .

أمسك ورقة المئة دولار ، ثم ارتدى ثيابه، ونزل إلى قاع الأحزان ، حيث تتزلج الانهيارات على بقايا جسد أخيه . أيقظوا بلالاً فنهض كالمصروع الذي تنخر قفصَه الصدري خريفُ الألم وشتاءاتُ الماضي السحيق . أخبروه بأن عليه أن يرتديَ ثيابه لكي يذهب إلى الطبيب . عارض الأمر في البداية قائلاً إنه بصحة جيدة ولا يحتاج إلى طبيب ، لكن إصرار أهله أقنعه بضرورة الذهاب . قادته زوجته إلى غرفة النوم وساعدته في تغيير ملابسه ، وقد بقي متمسكاً بسلاحه رافضاً تركه .

قال العجوز :

ـ يا بلال ، ضع سلاحك مع زوجتك ، وهي سَتُخَبِّئه لك لئلا يأخذه الأعداء، فلا يليق أن نذهب بالسلاح إلى الطبيب . ماذا سيقول عنا ؟ .

رد بلال بكل إصرار وحزم :

ـ لن أتركه هنا . افرض أن الأعداء تعرَّضوا لي في الشارع ، كيف سأُدافِع عني وعنكم ؟ .

وهنا تدخل زياد قائلاً :

ـ اتركه يا أبي يفعل ما يشاء . المهم أن نلف الرَّشاش بقطعة قماش أو كيس لئلا يفزع الناس من رؤيته .

راقت هذه الفكرة لبلال. وبالفعل فقد أحضرت فايزة قطعة قماش قديمة كانت لديها ، ووضعت الرَّشاشَ فيها ، وقامت بِطَوْيِهَا ، ووضعتها في كيس نظيف من أكياس القمامة لم يُسْتَخْدَم بعد .

وقالت فايزة :

ـ سوف آتي معكم .

ومثل هذا الكلام قالت فاطمة . لكن العجوز قال بحدة :

ـ أين تذهبان ؟ . هل تظنان المسألة عُرْساً أم حفلة عند الجيران ؟ . ابقيا في المنزل لحين عودتنا .

قالت فايزة :

ـ وهل سأترك زوجي يذهب بدوني ؟ . أنا زوجته ، ويجب أن أعلم ما وضعه الصحي .

فقال زياد :

ـ يا أم خولة ، المسألة لا تحتمل . وبصراحة فالحق معك ، ولكننا سنذهب لنستشير الطبيب حول وضعه الصحي ، ولا نريد أن تتسع المسألة ونُضخِّمها .

فاستعيني بالله واصبري، وأنتِ امرأة مؤمنة ، وثقي بأن هذا المرض عابر .

رضخت فايزة لهذا الكلام المنطقي من وجهة نظرها ، خصوصاً أنه جاء من شخص متعلِّم في هذه العائلة ، ولم يأت مثلاً من العجوز الذي لا يملك مثل هذا المنطق الهادئ في الحوار .

وخرج الرجال الثلاثة من البيت ، وبقيت النساء يذرفن الزرنيخَ كإسطبلات الحزن الذي يتكدَّس على ظهور الأحصنة المحقونة بالعار . كان بلال يمشي بصعوبة ، يحدِّق في كل شيء يحيط حوله ، ينظر إلى الأشياء بعينين منفيَّتين عن هذا الوجود . يمسك الرَّشاش المختبئ بكل عنف ، ويجيل بصره في الأزقة والشوارع الموحلة والإسفلت المخلوع كأنه يبحث عن فريسة يصطادها . مشوا عابرين هذا الدمار الرهيب إلى أن وصلوا إلى الشارع الرئيسي ، وانتظروا سيارة تاكسي . جاءت سيارة فأوقفها زياد بإشارة من يده . توقفت بجانبهم . وأول ما انتبه إليه السائق هو ذلك الشيء الموضوع في كيس كبير، فقال والسيجارة على طرف فمه :

ـ احذروا أن يمزِّق هذا الشيءُ فَرْشَ السيارة ، فقد تم تجديده مؤخَّراً . وإن رأى صاحب السيارة الفَرْشَ مخدوشاً فسوف يقتلني فوراً .

قال زياد :

ـ لا تخف ، فهذا الشيء لا يُؤثِّر على الفَرْش .

واستقل الجميع السيارة . صعد العجوز إلى الكرسي الذي بمحاذاة السائق ، أما بلال وزياد فركبا في الخلف ، جاعلين الرَّشاش في أحضانهما دون أن يمس الفرش .

نزلوا من السيارة بعد أن قام زياد بالدفع . كانت عيادة الطبيب في الطابق الثالث من عمارة فخمة في المركز التجاري في العاصمة . ركبوا في المصعد الذي أوصلهم إلى العيادة . دخل الجميع إلى العيادة ، وجلسوا في قاعة الانتظار . لم

تكن هناك سكرتيرة لأن الدكتور عبد الرحيم جوهر كان إسلامياً فلم ترق له فكرة إحضار سكرتيرة ، الأمر الذي قد يثير شبهات كثيرة وخلوة ومخالفات شرعية في غنى عنها . هكذا كان ينظر للأمر .

والدكتور عبد الرحيم جوهر شاب في الثامنة والثلاثين، يحمل شهادة الدكتوراة من جامعة كامبردج، وهو عضو سابق في حزب التحرير المحظور ، أصدر ما يزيد عن ستة كتب . وبسبب إتقانه للإنجليزية وتخرجه من جامعة عريقة عالمياً اضطلع بدور تجنيد الشباب الأوروبي المسلم في صفوف الحزب . وقد اصطدم أكثر من مرة مع المخابرات البريطانية ، لكنه كان مدعواً من إحدى أميرات أوروبا التي كانت تحبه ، وتتدخل لإنقاذه من براثن النظام الأمني. ووالده هو الشيخ طارق جوهر الأمين العام لحزب التحرير الذي كان العقل المدبِّر للانقلاب العسكري الفاشل في هذا البلد ، وقد اغتالته الحكومةُ في بروكسل عام ١٩٩٥م بعد أربع سنوات من الرَّصد والمراقبة . لقد قامت بتفخيخ سيارته ، وتم تفجيرها بواسطة جهاز تحكم عن بعد . وما زلتُ أذكر آخر حوار أجرته إحدى المحطات الأجنبية مع الشيخ طارق جوهر، أذكره كلمة كلمة رغم مرور كل هذه السنوات ، فقال سأله المذيع :

_ هل تعترف بالأنظمة الحاكمة ؟ .

ابتسم الشيخ طارق ، وقال :

_ أنا لا أعترف بأي نظام حاكم على سطح كوكب الأرض في الوقت الراهن. ولا أعترف بأي خليفة سوى الخلفاء السبعة : أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعثمان ذو النورين ، وعلي المرتضى ، والحسن السِّبط ، وعمر بن عبد العزيز ، والمهدي المنتظر . أما غير هؤلاء فلا أعترف بهم ، ولن أبايعهم طوال حياتي . لكنهم إن قتلوني فبإمكانهم أن يحصلوا على البيعة من جثتي ، ولكن قبل ذلك عليهم أن يفصلوا رأسي عن جسدي .

تعجَّب المذيع من هذا الكلام الناري الصادر عن رجل عجوز نسبياً . وقد كان ذلك الحوار الملتهب آخر حوار أدلى به الشيخ طارق قبل اغتياله . أما ابنه الدكتور عبد الرحيم فقد انخرط في الحزب منذ شبابه ، لكنه اختلف معه مؤخراً ، مما جعله يقدِّم استقالته من الحزب .

ذهب زياد إلى سكرتير الدكتور ، وهو شاب نحيل ملتحي في منتصف العشرينات ، وقال له :

ـ لو سمحتَ ، نريد أن ندخل على الدكتور في أسرع وقت لأن معنا حالة إنسانية صعبة .

رد الشاب بلطف وصوت منخفض :

ـ هل لديكم موعد مسبق ؟ .

ـ بصراحة لا ، ولكن قل للدكتور إن زياد خضر الزاوي ينتظر في الخارج .

كان بلال يحدِّق في وجوه الجالسين على مقاعد الانتظار الذين يشبهون الحزانى المزروعين في مقاعد محطات القطار حتى إشعار آخر، ولم يكونوا كثيري العدد ، فهم لا يتجاوزون الخمسة أشخاص. فكَّر للوهلة الأولى أن هؤلاء الأشخاص قد يكونون من الأعداء ، وأن عليه إطلاق النار عليهم خوفاً من أن يقتلوه ، لكنه تراجع عندما رأى الانكسار اللانهائي يرتسم على وجوههم الموغلة في اضمحلال نهايات الضوء . عيونهم غائرة ، وأبصارهم محنية باتجاه البلاط الملمَّع . محالٌ أن يكون هؤلاء من الأعداء. هذه القناعة التي وصل إليها بلال في نهاية الأمر .

دخل السكرتير على الطبيب قائلاً :

ـ عذراً يا دكتور ، هناك شخص اسمه زياد خضر الزاوي يريد الدخول عليك.

تساءل الدكتور وقد برقت عيناه بشدة :

ـ زياد خضر موجود في العيادة ؟ ... أدخله فوراً .

وما إن هم السكرتير بالمغادرة حتى استوقفه الطبيبُ قائلاً :

ـ انتظر ، لا نريد أن نأخذ أدوار الناس الذين ينتظرون .. كم عدد المراجعين في الخارج ؟ .

ـ تقريباً خمسة مراجعين .

ـ إذاً ، رَحِّبْ بالأخ زياد ، وأخبره أن يتكرَّم وينتظرني حتى أنتهيَ من هؤلاء المراجعين .

كان الدكتور عبد الرحيم تقياً ، فلم يشأ أن يأخذ دور الناس الآخرين الذين جاؤوا قبل زياد على الرغم من معرفته الوثيقة بزياد والصداقة المتينة بينهما . فقد اشتركا في تحرير مجلة " ثورة الإسلام " ، وهي مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والإنجليزية ، إلا أن الحكومة أوقفتها بعد تدخل الإدارة الأمريكية التي اتهمت المجلة بالتطرف ودعم الإرهاب . والحكومة رضخت كالعادة بعد أن هدَّدت الإدارة الأمريكية بوقف المساعدات المقدَّمة للبلاد. كما أنهما عضوان في جماعة " تثوير"، وهي جماعة أدبية من الشعراء الشباب تهتم بالحداثة الشِّعرية من منظور عربي إسلامي، وهي متخصصة بقصيدة النثر ، وكانت تصدر مجلة شهرية تحمل نفس اسم الجماعة ، وقد أنجبت شعراء مشهورين لهم إسهامات واضحة مثل : بكر عبد الرشيد الذي تُرْجِمت أعماله لعشر لغات وأخذ جوائز عالمية ، وسامح المنصوري الذي باع من ديوانه الأول أربعين ألف نسخة ، وحسن دهام الذي صار فيما بعد أستاذاً محاضراً في الأدب العربي في جامعة برنستون ، وغيرهم . وقد كان زياد هو أصغر المجموعة على الإطلاق ، وقد انضم إلى الجماعة وهو في السادسة عشرة . واستمرت الجماعة ثلاث سنوات قبل أن تصبح جزءاً من الذكريات بعد أن ذهب كل واحد إلى حال سبيله ، يضرب في هذه الأرض العريضة ، يُفتِّش عن أحلامه وذكريات جديدة وماضٍ سيأتي ومستقبل مضى .

وبعد أن فرغ الدكتور من المراجعين دخل عليه زياد وأسرته . ابتسم الدكتور

ابتسامة تنبئ عن حب عميق ، وأخذ زياداً بالأحضان قائلاً :

ـ أهلاً بزياد ، اشتقتُ إليك يا رَجُل . أين كنتَ طوال هذه المدة ؟ .

ـ بصراحة يا دكتور ، أنا مُقصِّر معك كثيراً ، وقد انشغلتُ بأحداث كبيرة أبعدتني عن حضرتكم .

ـ نادني باسمي مجرَّداً ، وارفع الكلفة بيننا ، فلفظة "دكتور " ولفظة "حضرتكم" ليست بيننا ، وكل هذه الألقاب مجرَّد وهم باطل يسبح في الخيال . ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

وبدأ زياد يُعرِّف الدكتور بوالده وأخيه . وبعد أن جلسوا جميعاً ، قال زياد :

ـ بصراحة يا دكتور ، هذا أخي بلال جندي في الجيش ، وقد عاد من الحرب للتو . وهو يعاني من اضطرابات في سلوكه ونفسيته ، فقد أطلق النار في غرفة النوم بعد أن تخيَّل أنه في ساحة الحرب، وهو لا يريد أن يترك الرَّشاش ، وقد أحضره معه إلى العيادة .

توجَّه الدكتور بالكلام إلى بلال قائلاً :

ـ كيف حالك يا بلال ؟ .

تلفَّت بلال حوله في كل الاتجاهات قبل أن يجيب قائلاً :

ـ الحمد لله رب العالمين ، أنا بخير .

ـ لماذا التفتَّ قبل أن تجيبني ؟ .

ـ خشيتُ أن يكون أحد من مخابرات العدو مختبئاً في الغرفة .

ابتسم الدكتور بإشفاق ، وقال :

ـ لا تخف يا بلال ، أنا لا أسمح للمخابرات أن يُدَنِّسوا هذا المكان .

وأردف قائلاً :

ـ أعطني سلاحك لأعرف هل هو مناسب للقتال أم لا .

راقت الفكرة لبلال الذي استبشر خيراً بهذا الكلام ، لذا لم يمانع من إعطائه

السلاح دون ضغط من أحد .

أمسك الدكتورُ بالسلاح ، وصار يتفحصه بشكل محترِف يدل على أنه خبير بالأسلحة ، ثم قال :

_ هذه صناعة بريطانية . لقد ذكَّرتني قطعةُ السلاح هذه بخطيبتي السابقة التي كانت مقاتِلة في الجيش الجمهوري الإيرلندي . وقد أسلمت وتحجَّبت ، وهي الآن تُدَرِّس في إحدى المدارس الثانوية في ليفربول .

وأردف قائلاً :

_ حبيبي بلال ، ستظل قطعةُ السلاح هذه عندي خوفاً من أن يباغتنا الجنود ، وأنت غير منتبه .

هز بلال رأسه موافقاً بعد أن اقتنع بأن الدكتور سيُقاتِل معه ضد الآخرين . وبعدها قام الدكتور بإجراء فحوصاته على بلال ، وفي نهاية الأمر قال الدكتور :

_ حقيقةً إن وضعه بالغ الصعوبة ، فهي غائبٌ عن المشهد الوجودي الحالي ، ويعيش في عوالم أخرى وهمية . والحق يُقال إن جيشنا قد أنشأ قِسْماً نفسياً لإعادة تأهيل الجنود العائدين من الحرب ، لكن هذا القِسْم ما زال متخلِّفاً ، ومحتاجاً للتقنيات المتطورة . وعلى الرغم من هذا فأنا أرى أن نضعه في ذلك القِسم لحين الوقوف على حالته الصحية بشكل أكثر دقة ، ومدى قابليته للتحسن . وسوف أُشرِف بنفسي على حالته الصحية ، حيث لدي اتصالات قوية وعلاقات شخصية بالقائمين على هذا القِسم . ولنبدأ من الآن ، فالوقتُ ليس في صالحنا .

قال زياد :

_ كما تريد يا دكتور ، افعل ما تراه مناسباً .

وهز العجوز رأسه بشيء من الألم والحرقة موافقاً على اقتراح الدكتور ، فهو يثق بكلامه ، لذا استجاب له سريعاً دون معارضة .

ولما رأى الدكتور هذه الموافقة أجرى اتصالاً مع مدير مركز إعادة تأهيل

الجنود العائدين من الحرب ، وعرَّفه المسألة بكل أبعادها ، وقال له إن الأوراق الثبوتية المطلوبة ستكون عنده غداً مع أهله . وطلب من المدير أن يبعث عدة أشخاص لكي يأخذوا بلالاً . وقد أعطاهم موقع العيادة بدقة ، وهي أصلاً كانت معروفة لديهم .

كان بلال يشعر أن شيئاً غريباً يجري حوله ، أن ماءً يجري من تحت قدميه وهو لاهٍ ذاهل عن موجودات المكان وعناصر جسده المثقَل بالهواجس . إنه يتلفت يمنة ويسرة ، فهو يشعر أن شيئاً ما سيخرج من أسمنت الجدران ، وينقض عليه . إنه إحساس مرعب بالغ الصعوبة .

وراح الدكتور يحادث بلالاً ليخفِّف عنه ، ويحقنه بالطمأنينة التي يفتقدها بشكل كارثي . وبعد نصف ساعة تقريباً جاء أربعة أشخاص ، واستأذنوا بالدخول على الدكتور فأذن لهم . ولما رأى بلال مشهد الرِّجال المخيف بحث عن الرَّشاش ليطلق عليهم النار ، فقد ارتبطت صورتهم في ذهنه بصورة الأعداء الذين يتخيَّلهم . لكنه لم يجد سلاحه ، فانكمش على نفسه ، وتخندق في ذاتية ألمه المتكوِّم كالخرقة البالية .

قال الدكتور للرجال الأربعة :

_ هذا هو الأخ بلال ، فأرجوكم أن تعاملوه برفق ، وأن لا تُشْعِروه بالألم .

واقترب الرجال من بلال الذي صار يصرخ بأعلى صوته :

_ ابتعدوا عني أيها الأعداء ، سوف أُطلق عليكم النار ، ابتعدوا .

أَمْسَكُوه من كل الجهات ، وصار يصرخ بأعلى صوته :

_ أبي ، لا تتركني . زياد ، لا تتركني . يريدون أن يأخذوني إلى حبل المشنقة .

وحملوه رغماً عنه ، وقد كان والده يذرف دمعاً مراً إشفاقاً على ابنه ، لكنه لم ينبس ببنت شفة . أما زياد فقد أشاح بوجهه لئلا يرى منظر أخيه المؤلم .

واستمر صراخ بلال ممزوجاً ببكاء حارق، وهو ينادي على والده وأخيه اللذين

يتقطعان حزناً على حالته المأساوية ، ولكن بلا فائدة . وغاب بلال رغماً عنه خلف ستائر الضباب المرعِب مثلما يغيب كل شيء، لكن وخز صراخه ظل يحفر في أذهان الحضور خنادق من الكهرمان المسموم ، وينحت على الجدران معالم أحزان صارخة في وجوه كل البجع القتيل على جلود البشر المرقَّعة .

قال الدكتور محاولاً التخفيف على العجوز خضر وابنه :

ـ يا جماعة ، أنا آسف لأني قمتُ بهذا العمل ، ولكن صدِّقوني أن هذا الأمر لم يكن منه مهرب ، وإن شاء الله يرجع بلال كما كان وأفضل . وأنا أعدكم أنني لن أتركه .

قال زياد :

ـ شكراً لك يا دكتور ، ونحن واثقان بجهودك المخلصة الطيبة ... والآن اسمح لنا أن ننصرف .

ـ سنكون على اتصال لمتابعة حال بلال أولاً بأول ، وهذه بطاقتي تحمل أرقام هواتفي . وإن شاء الله سوف نذهب غداً للمركز من أجل تزويده بأوراق بلال الثبوتية ، والتوقيع على بعض الأوراق .

وغادر العجوز وابنه المكان بعد أن شكرا الدكتور . كانا يمشيان بتثاقل رهيب، ومن يراهما يظن أنهما مصابان بشلل من نوع خاص ، فهما يبدوان غير قادِرَيْن على المشي . فالهموم هبطت عليهما كأسراب الجراد المعدَّل وراثياً . ارتمت المسافاتُ أمامهما كحقول من النفط المشتعل ، فكل شيء في دواخلهما يشتعل ولا يجد حزناً يقدِّم الماء ، أو رصيفاً يمتص هذه الخطوات المرتعشة إلى درجة التماهي مع الشلل .

كان فاطمة وفايزة والصغيرة خولة يأكلن بلاط المنزل قلقاً وخوفاً ، فهن يذرعن المكان ذهاباً وجيئة . خطواتهن كومةُ أشجار ذابلة متجمعة في مقلاة ملتهبة . وقُرِع جرس الباب، فأسرعن كلهن لفتحه. لاحظن عدم وجود بلال.فقالت فايزة وعيناها

تهبطان في محيط سحيق من النباتات المسمومة ، ولسانها منقوع في براميل اليورانيوم المخصَّب :

ـ أين بلال ؟ .

قال العجوز :

ـ يا جماعة ، لندخل أولاً ثم نتحدث .

ودخل الجميع إلى حافة الحزن. ولم يعرف الرَّجلان كيف يفتتحان الحديث . أما الإناث اللواتي أسلمنَ أنوثتهن للحزن والدهشة فلم يفهمن ما الذي يحدث . وفي خضم هذا الضباب الفُسفوري قال العجوز :

ـ قل لهنَّ يا زياد ما الذي حدث ، فأنتَ مثقَّف وتعرف كيف تجمِّع الكلامَ .

أحس زياد بأكوام من المسؤولية تدق في أكتافه مسامير الهم ، لكنه استجمع قواه قائلاً :

ـ يا جماعة المسألة بحاجة إلى صبر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، نشكر في السراء ونصبر في الضراء . وبصراحة فإن بلالاً تم وضعه في مركز للصحة النفسية تابع للجيش ، وسنذهب غداً لتزويد المركز بأوراق بلال الثبوتية ، ومن أجل التوقيع على بعض الأوراق .

لم تستطع فايزة أن تفعل شيئاً حيال هذه الصدمة سوى أنها ضحكت ضحكة مريرة خلعت كبدَها كما يخلع زوجها البزة العسكرية ، وقالت وهي غير مصدِّقة :

ـ بلال صار مجنوناً بكل بساطة ، وصار متخلِّفاً عقلياً بهذه السهولة ؟! .

وركضت إلى غرفتها والنحيب يطمس معالم وجهها . دخلت الغرفة كقطيع من الحطب يدخل غابة الحريق الحاسم ، وارتمت على السرير ، وغرقت في كل محيطات النشيج والدمع اليابس من كثرة الهطول .

قال زياد مخاطباً أخته فاطمة :

ـ اركضي وراءها وخفِّفي عنها ، ولا تتركيها وحيدة .

وبالفعل ذهبت فاطمة وبدأت مهمتها الشاقة ، تحاول التخفيف عنها ، ومسح دموعها التي كانت تسقط بكثافة مطر متواصل في ليلة شاتية يبكي فيها حبيبان غامضان استعداداً للرحيل .

وفي اليوم التالي جهَّز زياد كافة أوراق أخيه وذهب برفقة أبيه والدكتور، وقدَّما كامل الأوراق للمركز ، ووقَّعا على بعض الوثائق والمعاملات . وقد حاولت فايزة الذهاب معهما إلا أن حالتها النفسية السيئة حالت دون ذلك ، فقد كانت في وضع نفسي مأساوي لدرجة أنها بدت عاجزة عن المشي ، فبقيت في السرير وحولها فاطمة تقوم على خدمتها . أما الصغيرة خولة فجلست حول السرير تمسح العَرَق عن وجه أمها الذي بدا كأنه بركة سباحة مخلوطة بالكلور إلى درجة تأجج السم الهادر .

١٤

كانت ديالا تتلوى من الألم وهي نائمة على السرير في طور المخاض ، فهي على وشك الولادة ، فقد حملت سِفَاحاً من صديقها هاني . ولم تجرؤ على الذهاب إلى المستشفى خوفاً من أن يسألوها عن والد الطفل ، فَيُكْتَشَف أمرها ، وتصبح فضيحة لا أول لها ولا آخر . وقد طلبت من جارتها أم وهدان المساعدة والوقوف إلى جانبها . وبالطبع فقد فهمت جارتها الموضوع لكنها لم ترد أن تفضحها .

أما ديالا فقد تركت العمل في عيادة الطبيب بعدما لاحظت أن بطنها راح يكبر شيئاً فشيئاً ، لذا اعتزلت في بيتها ، ولم تكن تخرج إلا للضرورة القصوى من أجل شراء حاجيات لا مفر منها . وهي تحرص على أن تخفيَ شخصيتها قدر المستطاع . وقد فكرت بالقيام بالإجهاض ، لكنها لم تكن جريئة بما يكفي للقيام بذلك العمل . فاستسلمت لقَدَرِها حاملةً ذَنْبها العظيم على كتفيها .

قامت أم وهدان بتسخين الماء ، ووضعه في وعاء بلاستيكي . أما ديالا فقد

كان صراخها يمزِّق ذراتِ الأسمنت في الحيطان المتكاثرة كالجراد الحكومي . بدأت تأكل في نفسها والألم يسلخ حبالها الصوتية . أسنانها انطبقت على شفتيها بحيث بدأ الدم يسيل من شفتيها. أما أم وهدان فبدت مرتبكة ، فتارة تمسح العَرَق عن جبين ديالا، وتارة تمسح الدم المبسوط على الشفتين بمنديل . وتارة تتكلم بكلمات من شأنها تخفيف العذاب الذي تعانيه هذه المرأة .

واشتدت ساعة المخاض ، وتغير لون وجه ديالا الذي انزاح نحو وجوه الموتى . حاولت أم وهدان سحب الطفل من تلك البقعة السحيقة ، وكرَّرت المحاولة إلى ما لانهاية، والألم يتضاعف إلى درجة التشظي والحطام . وبعد عشرة دقائق تقريباً خرج الطفل باكياً . أما ديالا فقد كان العرق يبني أبراجه على وجهها المغمور بالتعب والصفرة والانهيار . جسدها يرتعش كما لو كان ضفدعاً في بركة زئبق جليدي . وعيونها تنهمر بالدموع ، وهي تبكي بحرقة شديدة . والطفل يبكي بحرقة شديدة . لكن أم وهدان ظهر على وجهها علامات الابتسام والسرور ، وقالت :

_ مبارك يا ديالا ، الله رزقك بولد مثل القمر .

ووضعت أم وهدان الطفل في طشت الماء الساخن، وراحت تسكب الماء عليه، ثم أحاطته بقطعة قماش استدارت على جسده الطري حد التماهي مع اللاشيء . ثم أعطته لأمه لكي تراه وتحضنه . وضعته الأم إلى جانبها على السرير ، بينما ذهبت أم وهدان لإحضار شيء ما تسقيه للوالدة. أحضرت لها كوباً من اليانسون، وطلبت من ديالا أن تشربه بهدوء . أحست ديالا أن روحها تخرج مع كل جرعة يانسون تسقط في حلقها . وعلا بكاء الطفل أكثر وأكثر ، فأحضرت له أم وهدان ماءً وسكراً ، وصارت تسكب هذا الخليط في فمه بملعقة صغيرة . وبعد ساعتين تقريباً أخذت ديالا ترضعه بعد أن طلبت منها أم وهدان فعل ذلك . كان شعور ديالا غريباً ، شعرت أن هناك كائناً يمتص جزءاً من كيانها، كائناً خارجاً منها داخلاً فيها. وقد بدا شعور الأمومة صاعقاً ومتفجراً لدرجة مفاجئة حد الانبهار.

واستسلم وليدها للنوم بعد أن امتص كمياتٍ كبيرة من لبن أمه كأنه خارج من كل مجاعات أفريقيا .

قالت أم وهدان :

_ اسمعي يا ديالا أنا مثل أختك الكبيرة ، ومن واجبي أن أنصحك . إن هذا الطفل من علاقة غير شرعية ، فتوبي واستغفري ، وباب التوبة مفتوح . وحاولي أن تخبري والد الطفل فربما يقبل بالزواج منك ، ويستر عليك .

_ صدِّقيني يا أم وهدان أنني نادمة على هذه الحياة التي عشتها مثل الحيوانات ، وهذه هي النتيجة المؤلمة ، طفل يبحث عن أب قد يعترف به وقد لا يعترف . وقد عدتُ لصوابي ، ولكن هناك كارثة عظيمة على رأسي ، فوالد الطفل ليس مُسْلِماً ، وجواز المسلمة من غير المسلم لا يجوز ، ولا تعترف به المحاكم .

_ اذهبي إليه وحاولي أن تهديَه للإسلام ، فربما يستجيب لك ويرق قلبه خصوصاً إذا رأى الطفل .

وبعد أسبوع تقريباً اتصلت ديالا بهاني بعد محاولات فاشلة عديدة ، وقد اتصلت بالخمَّارة ، وللأسف فقد صارت الخمارة هي عنوان سكنه الدائم . استقبل والده المكالمة ، وذهب لمناداة ابنه الغارق في تلك الغرفة المضمحلة ، وأخبره بأن ديالا على الخط. لم يستطع هاني إخفاء امتعاضه واشمئزازه ، لكنه تحامل على نفسه وذهب إلى الهاتف متسائلاً في نفسه ما الذي ذكَّرها بي بعد هذه المدة ؟ .

قال هاني بصوت أجش مباغِت ومثير للتوتر :

_ ألو ، ماذا تريدين يا ديالا ؟ .

تسلَّل صوتها الذابل عبر سماعة الهاتف كاحتضار قطة اختصرت كل مستقبلها السياسي في ماء للشرب ، وقالت بكل ذبول وانهيار :

_ هاني ، كنتُ أود أن أقول لك إنني أنجبتُ ابناً من علاقتنا السابقة .

انفجر ضاحكاً كأنه سمع كومة نكات دفعة واحدة، وقال باستخفاف مبالَغ فيه:

_ أنجبتِ أم لم تنجبي ، ما شأني بالموضوع ؟ . أنت مجرد امرأة لعبتُ بها في فترة من الفترات ثم قرفتُ منها فرميتُها ، وانتهى الأمر . ابحثي عن غيري لتضحكي عليه يا حلوة .

كانت ديالا تصارع رغبة أسطورية في البكاء والنحيب ، ولكن حياتها المتمردة انبعثت من رحم هزيمتها وانهيارها ، فقالت وقد تشنَّجت عظامها :

_ اسمع يا هاني ، الحق عليَّ لأني سلمتُ نفسي لشخصٍ حقير مثلك ، ولكنك لن تلعب بي مرة ثانية ، وسوف أَرفع عليك دعوى في المحكمة ، وأطالب بإجراء فحص للحمض النووي لأثبت نسب الطفل .

ارتبك هاني لما رأى المسألة قد أخذت هذا المنحى التصعيدي الخطير ، وقال محاولاً لملمة الموقف :

_ لا تأخذي الموضوع بهذه الجدية يا ديالا ، فقد كنتُ أمزح معك . وعلى أية حال سأمر عليك بعد ساعتين لنحل هذا الموضوع بيننا .

خرج هاني من الخمَّارة دون أن يتفوه بكلمة واحدة مع والده الذي كان يقدِّم الطلبات للزبائن ، وقد تعجَّب والده من هذا التصرف . أما هاني فكان يسير على غير هدى ، يفكِّر في هذا الأمر ، وكيف يمكن له أن يتهرَّب منه بدون خسائر ، أو بأقل خسائر ممكنة .

ومشى هاني على رصيف الميناء وعيناه تعانقان كل رمال الشطآن الموحشة ، وغرق في التفكير واتخاذ قرار حيال هذا الموضوع المباغِت . وبعد مدة من التفكير توصل إلى فكرة شيطانية لم يعرف كيف خطرت على ذهنه ، فابتسم بشكل مخيف ينبئ عن مخيلته المرعبة ، وأفكاره الجهنمية . أجرى اتصالاً بالهاتف الخلوي مع أمين عام الحزب الذي ينتمي إليه ، واستمرت المكالمة ربع ساعة تقريباً . وبعدها ازداد ابتسام هاني بشكل رهيب ، وصار يضحك من كل قلبه ، والناس ينظرون إليه باستهجان وتعجب .

وصل إلى بيت ديالا . قرع الجرس ففتحت له الباب ، ودعته للدخول . دخل بخطى وئيدة ، وجلس على أحد الكراسي . وبعد ذلك أحضرت ديالا الطفلَ ليراه . أمسك الطفل باشمئزاز خفي ، وراح يتفرَّس في ملامحه الطرية مستخدماً عينيه الخشبيتين . ولما رأت ديالا ذلك المشهد قالت :

_ انظر يا هاني إنه يشبهك ، هذا هو ابنك ... لماذا لا تدخل في الإسلام ، ونعيش معاً في ظل هذه الأسرة ؟ .

كان هاني يكره الإسلام ، لكن كرهه ممزوج بالتناقض ، فقد قال في إحدى مقالاته القديمة إن الإسلام هو الدِّين الوحيد الذي يُنَزِّه الخالقَ ، لكن الحزب الشيوعي هدَّد بإيقاف الصرف على دراسته الجامعية إذا لم يسحب هذا الكلام ، فاضطر إلى التراجع عنه . لكنه في هذا الموقف أراد أن يجاريَ ديالا ، فقال لها وكلامه يقطر كذباً وخبثاً :

_ هذا ما كنتُ أُفكِّر به ، وسوف أدرس الموضوع لكي نكوِّن أسرة صالحة .

تهلَّلت أساريرها لما سمعت هذا الكلام الذي أنعشها ، وأخرجها من حفر الاكتئاب بلمسة واحدة . وهي لم تتوقع أن يرد عليها بهذا الرد السريع الهادئ . وقد صدَّقت حيلته وأكاذيبه ، واقتنعت بها إلى درجة رافضة لأدنى شك .

قال هاني بمكر ودهاء :

_ سآخذ ابني معي لكي أُرِيه لأسرتي لكي يعلموا أن فرداً جديداً انضم إلى عائلتنا .

فرحتْ بهذا النبأ ، لكنها قالت :

_ سوف ألبس ثيابي وآتي معك .

_ لا تتعبي نفسك، فأنت خارجة من ولادة صعبة. سوف أُريه لأسرتي ثم أُحْضِره إليك فوراً .

_ ولكنه بحاجة إلى رضاعة ، وسوف يظل يبكي إن لم أُرضعه .

_ جهِّزي له حليباً صناعياً ، وضعيه في عبوة بلاستيكية ، ولن يبكيَ . كما أن الأمر لن يستمر أكثر من ساعة ، وهذا لن يؤثِّر على صحته .

_ إذاً ، اذهب واشترِ عبوة بلاستيكية بينما سأجهِّز الحليب .

وبالفعل تم الأمر كما هو مخطَّط له ، فقد اقتنعت ديالا بهذه الفكرة ، فهي لا تريد رفض الموضوع خوفاً من فقدان هذا الرَّجل الذي تعتقد أنه صار أهلاً للثقة .

وغادر هاني المنزل حاملاً الطفل الذي بدا صامتاً بعد أن أخذ يمص الحليب مصاً أنساه كل الدنيا التي حوله . ركب هاني سيارة التاكسي ، ونزل مقابل فيلا الدكتور عبد السلام الدومي . قرع الجرس ، ففتح له الدكتورُ الباب بنفسه على الرغم من وجود خادمين في الفيلا . لكن الدكتور فتح له الباب لعلمه بأن القادم هو هاني ، إذ إنهما نسَّقا هذا الموعد على الهاتف في آخر مكالمة أجرياها .

صعد الرَّجلان إلى الطابق العلوي بخفة اللصوص وهدوء رجال المخابرات . ودخلا إلى المكتب . وأغلق الدكتور الباب بالمفتاح . وبعد أن جلسا قال الدكتور وقد أشار إلى الطفل :

_ أهذا هو طفلك ؟ .

قال هاني وقد أظهر وجه الطفل بصورة تُبرِز ملامحه :

_ نعم يا دكتور .

_ أنتَ تعلم يا هاني أنني وزوجتي لا نُنجِب ، وكما اتَّفقتُ معك على الهاتف ، أنا مستعد أن أشتريَ هذا الطفل منك بالسعر الذي تريده ، وثق بأن أحداً لن يعلم بالموضوع ... كم السعر الذي تريده ؟ .

_ ادفع أي مبلغ تريده يا دكتور ، لن نختلف على هذا الأمر .

_ سأدفع لك عشرة آلاف دولار أمريكي ، هل هذا مناسب ؟ .

ابتسم هاني ابتسامة الرضى ، حيث إنه لم يتوقع حصوله على مثل هذا المبلغ ، فقال وهو يهز رأسه موافقاً بحماس :

_ أنا موافق يا دكتور .

وأخرج الدكتور دفتر الشيكات ، وكتب شيكاً بالقيمة المطلوبة ، بينما كان هاني يبلع ريقه ، كأن يستعد لالتهام هذا الشيك . ثم أخذ الشيك ، ووضعه في جيبه بحرص مبالغ فيه ، وقال بعد أن ازدادت عيناه جحوظاً :

_ ولكن يا دكتور أخشى أن تُفْضَح العملية ، ونضيع أنا وأنتَ .

انفجر الدكتور ضاحكاً بصوت مجلجل ، ثم قال :

_ اطمئن فلن يكشف الأمرَ أحدٌ ، فزوجتي في ألمانيا تجري عملية جراحية ، وسنسجِّل الطفل باسمنا ، وكأنها قد أنجبته في الخارج ، وبالطبع فالأمر يتم بالتنسيق مع أصدقائي المتنفِّذين في الدولة . فدولتنا فاسدة حتى النخاع ، وهذا أكثر شيء يفيدنا في هذه المرحلة .

انبعثت في أوصال هاني طمأنينة لا نهائية ، ثم سلَّم الطفل للدكتور ، وألقى التحية مغادراً دون أن يشرب شيئاً .

كان يمشي في الطريق شاعراً بأنه على وشك الطيران . يتحسس الشيك بكل نشوة وعنفوان ، لكنه أدرك أن البنوك مغلقة في هذا الوقت ، وأن عليه الانتظار إلى الغد لكي يصرفه . لم يشكِّل هذا الأمر أي مشكلة بالنسبة إليه ، فالأيام كلها تتشابه عند هاني . كل أيامه متواليات اكتئاب وخمر ومخدَّرات ، لذا فهو أصلاً لم يكن يشعر بأي معنى لدوران الأيام ، وحركة النهار والليل .

طالت غيبة هاني أكثر من ثلاث ساعات ، وبدأ الشك يتسلل إلى نفسية ديالا التي راحت تغرق أكثر فأكثر في الاضطراب. اتَّصلت بالخمارة فلم يجب أحد . ومن المحال أن تُغلَق الخمارة في مثل هذا الوقت . اتصلت بالهاتف الخلوي لهاني فوجدته مغلقاً . صارت تفقد أعصابها شيئاً فشيئاً . هل عليها أن تذهب بنفسها إلى الخمَّارة أو إلى مكان سكنه ؟. لم تعرف إجابة عن هذا السؤال . أخذت تذرع المكان عرضاً وطولاً ، في محاولة منها لنشر الهدوء في أوصالها . ثم ذهبت إلى

غرفة نومها ، وارتدت ملابسها، وخرجت على غير هدى، كأن دمها عقيدة الأرصفة ، ووجهها المضمحل دستور لكل محاولات الانتحار التي لا تفضي إلا لمزيد من الانتحار بلا طائل .

وصلت الخمارة فرأتها مفتوحة . دخلتْ فإذا بالعجوز الأرمني يُرَتِّب زجاجات الخمر. ألقت عليه التحية فرد عليها متسائلاً عن سبب غيابها كل هذه المدة الطويلة. وفي الحقيقة لم تكن تملك ذهناً نقياً لكي تدخل في محادثة من أي نوع، لذا سألت عن هاني بدون فواصل من الكلام، فأرشدها العجوز إلى مكان هاني المعتاد ، وهو تلك الغرفة المنحوسة اللعينة . دخلت عليه بلا استئذان ، وقد كان يلعب بأصابع قدميه البارزة نتيجة جواربه الممزَّقة .

قالت له ديالا وهي تجيل بصرها في المكان لعلها تلمح أي أثر لطفلها :

ــ أين الطفل ؟ .

رد هاني باستهزاء كأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع :

ــ أي طفل ؟ .

جحظت عينا ديالا بكل معنى التوحش، وهجمت على هاني ، وأحكمت يديها حول عنقه ، وهي تصرخ :

ــ أين ذهبتَ بالطفل أيها الوغد ؟ .

خلَّص هاني نفسه من يديها ، ثم قال باستخفاف متعمد :

ــ أنا لا أعرف عماذا تتحدثين ، كما أنني لا أعرف من أنتِ .

جُنَّ جنون ديالا ، وهجمت عليه بأسنانها وأظافرها كالقطة التي توحَّشت نتيجة فقدانها لابنها. وبالأظافر الحادة في يديها خمشت جزءاً كبير من خدوده، وهو يصيح محاولاً إبعادها عنه بكل طاقته ، وأخيراً نجح في إسقاطها أرضاً . وبسبب الصراخ المتعالي أتى هاكوب مسرعاً ، فلما رأى مشهد خدود ابنه وهي تقطر دماً ، ومشهد ديالا وهي ساقطة على الأرض تنتحب ، أُصيب بالخوف والدهشة وعدم

الفهم ، وقال متسائلاً :

_ ما الذي حصل ؟ .

قال هاني وهو يمسح دمه بمناديل ورقية أخرجها من جيبه :

_ هذه المرأة المتوحشة التافهة تزعم أن لها ابناً ، وأنني أخذتُه منها .

التفت الخمَّار هاكوب إلى ديالا، وأشفق عليها ظناً منه أنها فقدت قواها العقلية، إذ إنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع ، ولم ير طفلاً مع هاني مطلقاً ، ثم قال :

_ اسمعي يا ديالا ، لكل شيء حدود ، ومسألة الطفل غير معقولة ، فلا داعي أن تتخيلي أحلاماً ، وتعيشي في الأوهام . كما أن هذه الخمَّارة مكان محترم يرتاده بشر محترمون !، ونحن لا ينقصنا جنون وفضائح وصراخ، فرجاءً غادري هذا المكان ولا تعودي إليه ، وأنصحك أن تراجعي طبيباً نفسياً ، فربما كان لديه دواء لحالتك .

شعرت ديالا بحاجتها لمغادرة هذا المكان ، فالأمر لن يأتيَ بنتيجة مطلقاً ، إذ إنه لا يوجد أي إثبات على أن هاني قد أخذ الطفل . وكل جهودها بلا معنى ، وبلا نتيجة . حَمَلَت نفسها ، وغادرت المكان دون أن تنبس ببنت شفة ، فلو استمرت في كلامها فسوف يتجمع عليها كل الناس ، وتصبح فضيحتها في كل الآفاق ، لذا كان خروجها صامتاً إلى درجة الجنون الأخرس . وفي الطريق بدأت عيناها تنهمران دموعاً وألماً كأنه وخز دبابيس لا نهائية . ومضت إلى الشاطئ، إلى تلك البقعة التي فرَّطت فيها ببكارتها ، وحصل ما حصل . لقد مضى وقت طويل على تلك الحادثة المؤلمة . جلست وأعضاؤها ترتجف مثل مزارع الباركنسون والسيانيد واليود البحري. وقد كان صوت بكائها عالياً جداً لدرجة هستيرية .

فكَّرت أن تملأ جيوبها بالحجارة وتلقيَ نفسها في البحر لكل تصير طعاماً للأسماك ، ولكيلا يعرف قبرَها أحدٌ سوى رمال البحر والشعاب المرجانية . لكنها

أعرضت عن فكرة الانتحار بعد أن أقنعت نفسها بأنها إذا خسرت الدنيا، فلا داعي أن تخسر الآخرة أيضاً . واختارت النحيب كطريق وحيدة تعبِّر من خلالها عن ألمها وحزنها وضياعها ، ففي قمة الحزن الصاعق يبدأ الحزنُ يغيب تدريجياً ، وفي ذروة تدفق ملح الدموع ، ينتهي الملحُ نهائياً ، ويصبح الحزن وهمياً بلا جدوى ، حيث يصير إجراء روتينياً. وبينما هي تغطس في فوهة بركان الدمع المحترِق ، لمحت شخصاً يمشي على الشاطئ . وبالطبع كان ذلك الشخص أسعد ، حيث اقترب منها شيئاً فشيئاً . ولم تشعر ديالا بأية رهبة أو خوف من هذا القادم من طوايا المجهول، فملابسه الرثة الممزَّقة ، وملامحه الوادعة البسيطة ، وجسمه المنكمش على ذاتية حلمه المسحوق . كل هذه المظاهر ساهمت في جعل ديالا تشفق عليه .

قال أسعد وجبهته تغرق في كل مستنقعات الأكسجين الغائب :

_ لا تبكي يا أختي لأن البحر لا يحب النساء الباكيات . كلنا سنعود إلى البحر يوماً ما . علينا أن ندَّخر دموعنا ليوم آخر ، حيث تموت الفراشات ، ونحصل على نصيبنا من الألم والحزن وذكريات البنات اللواتي باعهن أهلهن لمن دفع أكثر .

تعجَّبت ديالا من هذا الكلام الصادر عن شخص يوحي منظره بأنه عديم القيمة، فقالت بكل تعجب :

_ من أنتَ يا أسعد ؟ .

_ أنا صوتُ منادٍ في البرية ، أعدوا طريق الرَّب ، واجعلوا سُبله مستقيمة . لستُ شاعراً لأن الشعراء قتلوا قطتي، أنا مجرد شبح ، رقمُ شبحٍ ضمن أرقام أشباح هذا الميناء الذي سيبلعه الطوفان لا محالة . ألغيتُ النظريةَ النسبية لأن طاقة ضريحي هي النظرية النسبية. يا وطني المقبرة. اقتلني وانْهِ لعبة المطارَدة. لا أخضع لشروطك، ولا تخضع لشروطي . نحن قتيلان لأن اللصوص سرقوا الحياة من وجهينا . إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ .

وأردف قائلاً :

_ أنا العالَم الأول ، وأنتِ العالَم الثاني، وباقي العالم هو العالم الثالث . أنا رجل غبي ، والأغبى مني هي المرأة التي تحبني، فأنا شخصياً لا أحب نفسي . كل الأشباح صدى ، ولن أتزوج الصدى خوفاً من أن يكشف تفاصيل احتضاري ، سأظل لغزاً عصياً على مخيلة القمح . لكنني الحاكم والمحكمة والمحاكمة والحُكْم .

ومضى إلى حيث اللابداية واللانهاية ، بعد أن ترك في ذهنية ديالا تعجباً صادماً، فلم تعد تفكِّر في مصيبتها ، بل صارت تفكِّر في هذا الكلام الذي صدر من شخص جاءها فجأة . من أين أتى ؟ . هي لا تعرف . أين سيمضي ؟ . إنها لا تعرف . ألقى هذه الكلمات ، وانطلق بكل هدوء . إنه يمشي حافياً على الرمال .

إنها تغرق في مساحات التداعي اللاواعي . سرَّحت نظرها من ذكريات الموج الذي كان يجلد الشاطئ بقسوة، وراحت تراقب خطوات ذلك الرَّجل أسعد ، وهو يبتعد أكثر فأكثر حتى غاب، ودخل في كل أحزان الضباب الجاثم على القلوب الكسيرة . ثم استسلمت لجرعة جديدة من البكاء اللاسع . لم يغادر ذاكرتها صورةُ وليدها ، إلا أن الصدمة الشاملة جعلت منها كياناً أخرس ، فمن شدة هذا الإعصار الذي ضرب كيانها ، لم تقدر إلا على الصمت العميق ، لأن الديناصورات كانت تقضم كبدها بكل بساطة . ولا يوجد أُم تستطيع نسيان طفلها بهذه السهولة ، لكن ديالا غرقت في قاع الجنون والهستيريا الصامتة ، فلم تعد تعرف ما وظيفة لسانها أو ذاكرتها ، فالأمور تحاصرها من كل الجهات . وما سكوتها إلا غصن في شجرة الانطفاء الشامل . لقد تقمصتْ برودةَ أجساد الموتى في الثلاجات بكل حرفية . إن شيئاً خرج منها وضاع بكل سهولة . وجَّهت سمعها باتجاه بوصلة عقلها المشوَّش ، وأدركت أنها لو طالبت بطفلها فربما تخسر نفسها بالإضافة إلى طفلها ، وتكون المصيبة مصيبتين . لن يستمع إليها أحدٌ في هذا المكان لأنها لا تملك

أي وثيقة تُثبِت بها حقها ، إنها وحيدة في فوهة الوحدة المتوحشة ، ولن ينقذها أي مخلوق في هذا الوطن القاسي ، ولن تنفعها ملامح الوجوه القاسية المحيطة بها من كل الجوانب .

١٥

كانت الأحداث تمر بصورة متسارعة جداً في ذلك البيت الصغير الوادع ، بيت خضر الزاوي . فبلال صار مجنوناً رسمياً ، وقد أُودِع في أحد مستشفيات العاصمة الخاصة بهذه الحالات . وحالته تسوء أكثر فأكثر ، وستزداد سوءاً لأن مستشفيات البلاد غير مؤهَّلة لاستيعاب مثل هذه الحالات، فهناك نقص حاد بالمعدات والأدوية، ونقص في الكفاءات البشرية الممتازة ، حيث هاجر الأطباء المعروفون إلى أوروبا وأمريكا بعد أن تلقوا عروضاً مغرية . ولم يبق في مستشفيات البلاد سوى الأطباء الأقل كفاءة . حتى الأطباء المتمكِّنون الذين ظلوا هنا ، وهم فئة نادرة جداً ، فهم بحاجة إلى أجهزة متطورة، ورواتب مجزية ، ومستوى معيشي أفضل من هذا المستوى البائس ، إلا أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح . ففي هذه البلاد الداخلة في حرب عبثية والخارجة من حرب فوضوية لا مستقبل إلا للحكومة التي تسرق الشعب في وضح النهار ومن دار في فلكها ، ولأهلِ التمثيل والغناء والرقص . فهؤلاء وحدهم هم الذين يستفيدون مالياً في هذه البلاد ، أما أهل العلم والثقافة فبالكاد يجدون قوت يومهم . ومن استطاع منهم أن يغادر البلاد غادرها بسرعة ، ومن لم يتمكن من ذلك فهو ما زال يغذ الخطى إلى الهجرة من هذا المكان الذي صار بالنسبة للكثيرين مقبرة لا نهائية .

وقام العجوز خضر بمراجعة المحكمة من أجل فسخ عقد الزواج بين ابنه بلال وبين زوجته ، فهو فاقد لقواه العقلية ، ولا يستطيع أن يقوم بواجباته الزوجية والحياتية تجاه أسرته والمجتمع. ومن الواضح أن العجوز خضر يحضِّر لشيء في ذهنه، فخطوة فسخ عقد الزواج لا أدري كيف خطرت على باله. كما أن فايزة لم

تعارض هذه الخطوة ، فليس واجباً على المرأة أن تنتظر رجلاً لا يأتي ، وليس فرضاً على المرأة أن تعيش حياتها خاضعة لرحى ذكريات زوجها السابق الذي فقد معنى الزوج الحامل لكافة الأعباء. وعلى أية حال مضى على هذه الوقائع فترة ليست بالقصيرة.

وفي يوم من الأيام قال العجوز خضر لابنه زياد على انفراد :

_ اسمع يا زياد ، هذه فايزة التي كانت زوجة أخيك ، هي الآن بلا زوج . وأنتَ تعرف الموضوع كاملاً ، وأنا أرى أن تتزوجها لتحافظ عليها ، وعلى ابنتنا خولة ، فليس لها أحدٌ في هذا المكان سوانا .

هبطت هذه الكلمات على رأس زياد كالمطرقة الحديدية ، وبلع ريقه لأنه لم يعرف ماذا يفعل في تلك الساعة ، فالصدمة كان مفاجئة ومباغتة وشرسة ، لكنه تمالك نفسه ، وقال :

_ ولكن فايزة مثل أختي ، وهي زوجة أخي ، ولم أفكِّر فيها كزوجة في أية مرحلة من حياتي .

_ افهمني يا زياد ، فايزة كانت زوجة لأخيك ، وهي الآن لم تعد كذلك ، ودعك من كلمات " مثل أختي " ، وغيرها من الكلمات التي لا معنى لها في الوقت الحالي ... إن لم تتزوجها فسوف تضيع المرأة هي وابنتها ، فالأولى أن نجمع لحمنا بدلاً من أن يظل ضائعاً تائهاً بلا صاحب .

_ وهل هي موافقة على هذا الزواج ؟ .

_ أنا وأختك وفاطمة سنقوم بإقناعها بالحسنى ، المهم هل أنت موافق ؟ .

نظر زياد إلى المسألة نظرة إنسانية ، فمن المستحيل أن تظل فايزة وابنتها تحت مساعدة فلان ، وصدقة فلان . فالزواج منها سوف يضمن استمرارية هذه الأسرة دون تفككها ، ومن هذا المنطلق وافق زياد على الزواج ليس رغبةً في الزواج ، ولكن رغبة في الحفاظ على هذه الأسرة ، وصيانتها من الضياع الحتمي .

وبعد هذه الجرعة من التفكير قال زياد :

_ أنا موافق على هذا الزواج إذا وافقت فايزة.

وفي المساء قام العجوز خضر بإعلام فاطمة بالأمر وكلّفها بإقناع فايزة بضرورة الموافقة على الزواج حفاظاً على هذه الأسرة الصغيرة المنكوبة . وبعد جهد جهيد وافقت فايزة لنفس السبب الذي من أجله وافق زياد .

وحضر المأذون إلى البيت ، وكتب الكتاب بكل هدوء . وقد اتفقوا على عدم الرقص والغناء، وبدون إقامة عرس احتراماً لبلال الذي يعاني في مستشفى الأمراض العقلية . واقتصر الحضور على عدة أشخاص من الأقارب والجيران ضمن دائرة ضيقة جداً .

لقد تم الأمر بسرعة غير طبيعية . وأنا شخصياً لستُ أدري كيف تسارعت الأحداث بهذه الصورة السريعة ، كأن الأمر عملية صهر مراحل أو حرق خطوات كاملة بلمسة واحدة . بطرفة عين دخل هذان الاثنان قفص الزوجية ، وهما يحملان تاريخ أحزانهما فوق أكتافهما .

وفي مكان آخر كان النحيب يتدفق من ألواح صدر راحيل ، ويطلع من أحزان الأسمنت في جدران غرفتها . فما إن علمت بالموضوع حتى دخلت غرفتها، وأغلقت على نفسها الباب ، وسلّمت نفسها بالكلية للدمع الملتهب . كان متعلقة بقشة الأمل ، فربما يأتي زياد يوماً ما لخطبتها ، وانتشالها من هذه المقبرة التي كانت تشعر بكل تفاصيل شواهد القبور فيها . هذا هو تصورها لبيتها الذي صار مدفنها كما تشعر في أعماق أعماقها .

وفي زحمة الدمع المفترِس قالت في نفسها :

_ لا تضحكي على نفسك يا راحيل، فزياد لم يحبك في يوم من الأيام، وهل هو غبي إلى درجة أن يحب امرأة جاهلة وعمياء مثلك ؟! . إنه كان يشفق عليك مثلما يشفق على المتسولين على أبواب المساجد أو الكنائس . لقد صنعتِ وهماً

وعشتِ فيه ، وها هي لحظة الحقيقة قد جاءت ، فلتبكي حتى الصباح، لن يعبأ بك أحد. لقد ذهب إلى ليلة الدخلة ، وأنتِ ذهبتِ إلى ليلة الحزن والبكاء .

وارتفع منسوب بكائها في سد الرجفة الأسمنتية . أعضاؤها دخلت في هواجس الرجفة . ذاكرتها تخلع ذاكرتها وتغيب كالموتى العراة ، كشاب تركته صديقته فأخذ يقرأ التوراة أمام الموقدة دون أن يفهم شيئاً ، كالثلج يتساقط كالدم على حواف النوافذ . في جسدها أحطاب الحزن، وفي يديها أكوام الزرنيخ الحي . اختبأتْ تحت اللحاف كقطة مبلولة باليورانيوم المشع، واستسلمت لنعاس يطلع من سجاد الغرفة.

وفي منزل العجوز خضر، وفي تلك الغرفة التي كانت يوماً ما غرفة بلال، استقر العروسان في قلب فوهة ليلة الدخلة . أُغلِق الباب مثل كل الذكريات التي تُغلَق على جراح النهايات الشرسة . أحس زياد لأول مرة في تاريخه أنه أخذ مكان أخيه. بدا شعوره ممزوجاً بالدهشة والرغبة والحزن والتشويش . لقد نسي كل تاريخه فجأة وبدون مبررات . لقد نسي تطبيق آداب الزفاف في الشريعة التي كان يُعَلِّمها للآخرين . كان حجم التشويش والتشتيت الذهني في أوجه ، فتخيَّلَ أنه يُهَاجَم من كل الجهات ، وأن عليه أن يواجِه كل الجهات .

نظر إلى فايزة نصف نظرة ثم أطرق إلى الأرض ، فلم يشأ أن يحدِّق في وجه زوجته . هجمت عليه الذكريات من كل جهات الألم . هذا الليل كأنه لا يريد أن ينتهيَ، كأن جزيئات الليل قد رُبِطَت بحجارة بئر مهجورة تركها البدو الرُّحَّل نهائياً.

جلس الزوجان عند حافة السرير الذي كان مرتَّباً بعناية فائقة . تركا الصمتَ يتوسطهما بحذر بالغ .

قالت فايزة بصوت خفيض أقرب إلى السكوت :

_ هل تحبني يا زياد ؟ .

_ بكل تأكيد ، فأنت الآن زوجتي .

ـ هل كنتَ تحبني عندما كنتُ زوجةً لأخيك ؟ .

صُدِمِ بهذا السؤال ، وبلع ريقه باضطراب بالغ . فهو لم يتوقع هذا السؤال حتى في الأحلام ، وقرَّر أن لا يجيب عليه ، لذا التحف الصمتَ الشاسع. لكن فايزة يبدو أنها مصرة على هذا السؤال بشكل غريب ، فقالت :

ـ أستحلفُك بالله إلا أن تخبرني .

تضايق زياد من هذا الكلام ، فهو لا يحب أن يستحلفه أحدٌ بالله ، ولكنه عندما رأى هذا الإصرار غير الطبيعي قرَّر أن يجيب بصراحة ، فقال :

ـ صدقيني يا فايزة أنا أحبك في كل مراحل حياتك ، قبل أن أراك ، وبعد أن رأيتُك ، ولكني أحب روحك ولا أفكِّر في تفاصيل جسدك . فأنا لم أفكِّر فيك كزوجة ، ولم أُرِد أن أُدمِّر حياتك مع أخي ، أو أن ألعب بقلبك الطاهر ، فابتعدتُ عنك لكي أنساك نهائياً، فالنبي ﷺ قال: ((ليس منا من خبَّب امرأةً على زوجها)).

وأردف قائلاً :

ـ أنا أعرف أننا اجتمعنا في ظروف غريبة بعض الشيء، خصوصاً أن هذا الأمر قد جاء بعد مرض أخي بلال ، وبصراحة لقد اتخذتُ قراراً بعدم الزواج ، فأنا لا أريد زوجةً ولا أولاداً ، لا أريد أي شيء يربطني بكوكب الأرض بهذه الأرض اليباب... دعيني أكن معك صريحاً يا فايزة ، وأنا أعلم أن الكلام الذي سأقوله محال أن يقوله رجل عاقل لامرأته في ليلة الدخلة ، ولكني سأقوله . إن أي امرأة في هذا العالَم تعتبر الجنس إحدى أهم أولويات وجودها ، أما أنا فالجنس يأتي في الأولوية ما بعد المئة في ذهني ، وهذا أبعد الزواجَ عن دائرة تفكيري . وأنا مؤمن أن المرأة كائن جنسي جامح وشرس وصعب المراس. وربما ساهمت الفلسفة في توجيهي إلى هذا المسار، فقد سئل الفيلسوف المصري عبد الرحمن بدوي عن عدم زواجه فأجاب إنه لا يحب أن يجمع بين المرأة والفلسفة ، وهكذا كان رأيي . وقد كنتُ أخشى أن يحدث معي مثلما حدث مع الكاتب الأرجنتيني بورخيس الذي

تزوَّج امرأة فلم يلمسها طوال ثلاث سنوات ، حيث بقي في غرفة ، وهي في غرفة، حتى إنه عندما أراد تطليقها خجل منها فكلَّف أحد الأصدقاء ليخبرها بموضوع الطلاق. وبصراحة أنا أحب في المرأة كل شيء عدا ممارسة الجنس ، وقد كنتُ أتخلص من الكبت الجنسي بثلاث وسائل : التأليف ، والمشي ، والبكاء. فكنتُ في كل يوم أبكي بحرقة بعدما أُغلِق باب غرفتي عليَّ ، ثم أذهب لأغسل وجهي بالماء والصابون كأن شيئاً لم يكن ، ولأول مرة أُخبر أحداً بهذا الموضوع . ولكنني منذ هذه اللحظة أعدك أن أكون زوجاً يرعاك ويقوم بالواجبات الزوجية كاملة، وسوف أضعك في عيوني ، ولكني أطلب منك أن تمنحيني وقتاً كي أدخل في هذه التجربة الجديدة بالنسبة لي ، وأريدك أن تُصَفِّيَ ذاكرتي من كل النساء العالقات على جدران ذكرياتي اللواتي رَمَيْنَ قلبي في بئر الصدمات العاطفية ، ورحلن إلى اللامعنى . أعرف أن كلامي غريب للغاية، والرجال يرفضون أن يقولوه لزوجاتهم، ولكني أحب أن تعرفي طبيعة مشاعري لتفكِّكي عقدي النفسية ، وتقضي على اكتئابي وارتباكي وخجلي والتشويش المذهل في رأسي . صدقيني يا فايزة طوال حياتي والنساء يتحرشن بي جنسياً، ولا أذكر أن لمستُ امرأة لا تحل لي. أحتاج إلى البكاء على صدرك المعجون برائحة ثلج إسطنبول، فأنا رَجُل لا أحب أن يرى دموعي غير أمي وزوجتي. أريدك أن تكوني أُمَّاً ثانية لي لكي أستعيد رائحةَ أعضاء الشمس ، أن أحتسيَ كوباً من ماء عيونك لأُعَوِّض قرون العطش في قلبي الصحراوي الجاف عاطفياً ، أن أتناول تفاحاتِ جفونك على العشاء لأُعَوِّض سنوات المجاعة ، أن تلديني من جديد لتختلط أوصالي بأوصالك، أن أدخل في أحشائكِ، وأخرج من أحشائك، لنصير معنىً واحداً جسداً واحداً لحلم يولد من جديد. أن أفترس أكسجين رئتك ، والمواد اللزجة بين غضاريف عمودك الفقري ، ليصبح بيننا أكسجين وخبز وملح وعظام ... يا إلهي كم أحتاج في هذه اللحظة إلى صدر أمي .

_ هل هذا الكلام تعلَّمته من كتب الفلسفة التي تدرسها ؟ .

_ هذا الكلام تعلَّمته من عينيك القاتلتين اللتين تحفران قبري في أجفانك ، وبعدها تستطيعين أن تقرئي على روحي سورة الفاتحة . أحب أن أموت في جفونك، أو على رموشك ، أو على صدرك الذي يُذَكِّرني بصدر أمي . أرجوك قومي بعملية تطهير عِرقي في نخاع عَظْمي، امسحي كل صور النساء على سبورة دماغي ، وكوني أنتِ وحدكِ شقيقة جسدي ومعادَلتي الروحية المتوحدة مع لحمي .

ابتسمت فايزة لأن هذا الكلام لامس أقاصي منعطفات أنوثتها ، ودغدغ كل حواسها ، وقالت :

_ لم أكن أعرف أن مثل هذا الكلام قد يخرج منك، وإن كنتَ تبحث عن أمك فأنا أقبل أن أكون أمك الثانية ، وسوف أَلِدُكَ من جديد، واعتبرْ صدري مثل صدر أمك ، وإذا أردتَ أن تضع رأسك عليه فضعه . وسوف أكون بين يديك قبيلةً من النساء لكي تنسى كل صدماتك العاطفية .

اقترب منها ، ووضع رأسه على صدرها الدافئ ، ثم أخذ يبكي بحرقة شرسة كالطفل اليتيم ، ورأسه يهتز بفعل ارتعاشة جسده العنيفة . إنه موغل في الثلوج الداخلية ، كأنه منقوع في حفرة جليدية لا قرار لها . جسده يفقد حرارة الحلم بصورة كارثية . كل خلاياه في تلك اللحظة مَرْكز للبرودة ، وقال بصوت مرتجف :

_ أول مرة في حياتي أضع رأسي على صدر امرأة غير أمي .

لم تعرف فايزة كيف تتصرف في ذلك الموقف ، فبقيت على حالها جامدة دون أن تتحرك ، والتحفت بالتعجب والرعشة والأحزان. أوصالها ازدادت دفئاً ، وقلبها تشبَّع بالحنين إلى فحولة الرَّجل المحتوية على أنوثة الحضارة . واستمر زوجها في البكاء فترة ليست بالقصيرة قبل أن يستسلم للنوم المتدفق ، كأن البكاء قد أخذ منه يقظة المعنى . لقد نام تلك الليلة كالمخدَّر .

ودخلت زوجته في عوالم الاستغراب ، فقد تعجبت من هذا البكاء الذي صدر

عن رَجل كان في عينيها مثال الشدة والتماسك ، ولم تظن أن المشاعر قد تجرف زياداً بهذا الشكل العنيف ، فطوال حياته كان شاباً صلباً لا يترك العواطف تقوده، ولكن يبدو أن هذه الليلة كانت القطرة التي أفاضت الكأس ، وأن كل أحزانه وكبته وأشواق الغياب ساهمت في استخراج الدمع من آبار عينيه بهذه الغزارة .

اقتنعت فايزة بهذا الكلام ، ولم تنزعج من بكاء زوجها على الإطلاق ، فقد نظرت إلى الموضوع من زاوية الحب والحنين والشوق ، وهذه المشاعر يشترك فيها الرَّجل والمرأة ، وقد تصيب أي شخص ، ولا تنقص من مقداره . هذا هو انطباعها حول الموضوع . ثم قامت بتغيير ثيابها بعد أن نام زوجها، وذهبت إلى النوم في هذا الليل الطويل الذي يبدو أنه لن ينتهيَ أبداً . بدت ليلة الدخلة للوهلة الأولى كالزنزانة التي لا تريد أن تُعتِق سكانها ، ولكن كل الخواطر والتداعيات الذهنية تبخرت بفعل صراحة زياد الصاعقة .

١٦

مرت الأيام ، وعادت الجامعات إلى فتح أبوابها . وكان زياد مؤمناً بأنه صار الآن مسؤولاً عن أُسرتين : أسرته الكبرى المكوَّنة من أبيه وأخته ، وأسرته الصغرى المكوَّنة من زوجته وطفلتها. وعليه أن يبحث عن عمل آخر يضمن له مستوى أعلى من الدَّخل. صحيحٌ أنه يدرس ويعمل، لكنه بحاجة إلى عمل ذي مستوى أعلى. كما أن عليه أن يجمع بين الدراسة والعمل والحياة الأُسرية ، مما سيزيد الضغط عليه إلى درجة شديدة للغاية .

كانت الجامعة في هذا اليوم الذي جاء بعد انقطاع طويل بسبب الحرب التي طالت أجزاءً كبيرة من المؤسسات التعليمية المختلفة . فهنا لا يتم التمييز بين مدني وعسكري . الكل ضد الكل . الحكومة ضد الشعب ، والشعب ضد الحكومة . والدول المجاورة تتنازع فيما بينها على اللاشيء . وللأسف فالنظام السياسي سعيد بهذه اللعبة غير النظيفة ، لأنه يستثمرها لإطالة عمر حكمه ، وتحقيق مكاسب ذاتية

ونفوذ أكبر وأوسع ، مما يجعل الحكومة مطمئنة للغاية ، فلن يتفرغ أحدٌ ويحاسبها عن سرقة الشعب، وتضييع البلاد. فالكل مشغول بالكل، والحكومة تلعب على كل الحبال .

رجع الطلاب إلى الجامعة . كل طالب انقطع عن لقاء صديقته عاد ليلتقيَ بها في زوايا الجامعة ، ويضحك عليها بكلمتين ، وهي سعيدة لأنها تسمع هذا الكلام من كل طالب تجلس معه ، وتبيع نفسها له مجاناً . وعاد المخبِرون إلى أوساط الطلاب لينقلوا أخبار الحركات الطلابية إلى السلطات الأمنية ، فهذه الجامعة هي أهم جامعة في البلاد على الإطلاق، وهي المعقل الرئيسي لجماعة الإخوان المسلمين، على الرغم من وجود ضئيل للحركات القومية واليسارية . كما أن الجامعة خارجة للتو من انتخابات مجلس الطلبة . وما إن انتهت الانتخابات حتى اندلعت الحرب ، مما أدى إلى تأخر إعلان النتائج . وعلى أية حال كان انقطاع الدراسة فرصة ممتازة بالنسبة للحكومة للقيام بتزوير الانتخابات على أوسع نطاق دون أية رقابة . وبالفعل تم تزوير الانتخابات ، فأُعطيت الغالبية الساحقة من المقاعد للطلاب الموالين لسياسة الحكومة ، أما الإخوان المسلمون فلم يحصلوا إلا على مقعدين فقط مع أنهم فازوا بغالبية مجلس الطلبة، إلا أن الحكومة تفعل ما تشاء دون النظر إلى صناديق الاقتراع، فالأوراق في الصناديق تم إحراقها ، ولم ينظر إليها أحد نهائياً . فقد كانت العملية الانتخابية إجراء شكلياً أمام وسائل الإعلام لتعكس الصورة الحسنة عن البلاد ، وهذا كله من أجل ذر الرماد في العيون لا أكثر ولا أقل . إذ إن أسماء الفائزين معروفة مسبقاً .

كانت التعليمات الرسمية أن يقوم الدكاترة بإلقاء المحاضرات من أول يوم دون تأخير ، في محاولة لكسب الوقت بعد أن ضاع جزء كبير من أيام الدراسة أثناء الحرب .

كان الدكتور وائل عمَّاش يلقي محاضرة ، ويبث فيها أفكاره العلمانية

والليبيرالية . والكل يستمع ، ولا يحرِّك ساكناً ، فغالبية الطلاب مشغولون بإرسال الرسائل إلى أصدقائهم وصديقاتهم عبر الهاتف الخلوي ، وغير معنيين بالمحاضرة من قريب أو بعيد . وبعد مضي عشر دقائق من وقت المحاضرة دخل زياد متأخراً ، وقد استأذن الدكتور بالدخول معتذراً من التأخر ، فأذن له الدكتور على مضض . وفي الواقع كان زياد يحترم المواعيد ، لكن أحد مسؤولي الجامعة طلبه لأمر ما ، وهذا سبب تأخيره .

إن الطلاب في تلك القاعة خليط عجيب ومتناقض إلى درجة صاعقة . فزياد يتزعم الحركة الإسلامية في الجامعة ، وهاني يتزعم الحركة الشيوعية ، بالإضافة إلى القوميين ، والليبيراليين الذين كان الدكتور وائل يضع لهم أعلى العلامات الوهمية ، ويساعدهم في الأبحاث والامتحانات .

وكان الدكتور وائل متفقاً مع أحد الطلاب الليبيراليين أن يسأله سؤالاً محدَّداً معروفاً لدى الطرفين أثناء المحاضرة ، ليقوم الدكتور بزرع فكره العلماني الليبيرالي من خلال هذا السؤال. وهذا ما حدث فعلاً ، ففي فترة التوقف عن المحاضرة قال الدكتور :

ــ هل يوجد أي سؤال ؟ .

رفع الطالب المتَّفِق مع الدكتور يده ، وقال بعد أن أَذِن له الدكتور :

ــ ما الموقف التنويري من المرأة ؟ .

جهَّز الدكتور نفسه للجواب كأنه يُحضِّر الإجابة مع علمه المسبق بهذا السؤال الذي لقَّنه لطالبه ، وقال الدكتور :

ــ يجب أن تكون المرأة متحررة من كل شيء ، لأن هذا معنى وجودها . فينبغي أن تتحرر من الدِّين فهو يقيدها ، وأن تتحرر من الحجاب لأنه حجاب على العقل وليس على الرأس. كما أنه يحق لها أن تمارس حياتها كما تشتهي، وليس واجباً عليها أن تكتفي برجل واحد فيكون زوجها وسجانها في نفس الوقت ، فهذا

اضطهاد للمرأة . وعلى الأنثى إذا أرادت أن تكون أنثى أن تكشف جسمها لهذا الأفق الرحب لكي تتنفس بكل هدوء . وأنا دائماً أقول إن أقصر طريق لقلب المرأة هو شهوتها الجنسية، والمرأة مجرد وعاء ، إنها مثل علبة السردين ، تُفتَح ويُؤْكَل ما فيها، وتُلقَى من يد إلى يد ما دام أن هذا برضاها ، وفي اعتقادي هذه هي الحرية الحقيقية من أجل مواكبة المشروع الغربي التنويري دون تقاليد شرقية قديمة من العصر الحجري .

كان هذا الكلام هو المنطلق الذي يعتنقه الدكتور ، ويركض في دنيا الكلام مستنداً إليه . وقد ساد القاعةَ وجومٌ فظيع ، فلم يجرؤ أحد على مناقشة الدكتور خوفاً من أن يرسب في المادة، فالذي يتكلم لن ينجح في المادة مطلقاً،حتى لو أعادها ألف مرة ، والمشكلة أن الدكتور يحتكر تدريس هذه المادة ، ولا تفلت من قبضته . لكن واحداً ، وواحداً فقط تجرأ على الكلام . نهض زياد متيقِّناً بأن هذه المادة لن ينجح فيها أبداً . لكنه آمن بأن عليه أن يقف هذا الموقف حتى لو كلَّفه حياته ، وقال بنبرة هادئة دون أن ينتظر إذناً بالكلام :

ـ يبدو يا دكتور أن الويسكي الذي تشربه مع صديقك السفير الأمريكي قد جعلك غبياً ووقحاً وكافراً ، ولستُ أدري هل تنطبق نظرتك السادية للمرأة على أمك وأختك وزوجتك ... وأرجو أن ترجع إلى الإسلام قبل موتك ، وإلا فجهِّز نفسك للبكاء السرمدي في قعر جهنم مع الذين اشْتَرَوْكَ بأموالهم .

سقطت هذه الكلمات كحجارة النيازك على رأس الدكتور، ودارت به الأرض بصورة بالغة الشراسة، وتغير لونُ وجهه الذي راح يضمحل ويضمحل ، لكنه رغم هذا تمالك أعصابه ، وقال متصنعاً الابتسامة الصفراء :

ـ لو سمحتَ يا أستاذ زياد ، غادر القاعة بسرعة ، وأرجو أن تبحث لك عن جامعة أخرى خارج هذه البلاد كلها ، لأنه منذ اليوم لن تقبلك أي جامعة في هذا البلد .

ضحك زياد ، وقد تعمَّد أن يكون صوت ضحكته عالياً ، وقال :

_ إن الجامعة التي تستوعب شخصاً تافهاً مثلك لا يُشَرِّفني أن أنتميَ إليها، وإن الدولة التي تحترم شخصاً مثلك ، لا يُشَرِّفني أن أحمل جواز سفرها ... لا تُصَدِّق أنك مفكِّر أو عالِم، فأنا أعرف الكتب الأجنبية التي تسرق منها كلماتك وأفكارك.

وغادر القاعة بخطى ثابتة بينما علا همس الطلاب شيئاً فشيئاً ، وراح الضجيج يملأ أرجاء المكان ، وشاعت البلبلة بين أوساط الطلاب ، فقال الدكتور محاولاً السيطرة على القاعة :

_ هدوء .. هدوء، ومن أراد أن يخرج مع زياد فله ذلك،ولكن عليه أن يبحث عن جامعة خارج البلاد .

خاف الطلاب من هذا الكلام رغم أن غالبيتهم الساحقة كانت متضامنة مع ما قاله زياد، ولكن أحداً لم يجرؤ على المجاهرة بهذا التضامن. وفي فوهة ازدحام دبابيس الصمت الرهيب خرجت فتاة رقيقة اسمها سوزان من وسط الجموع صارخةً في قاعة الموتى :

_ ما قاله زياد صحيح ، وأنا أوافقه الرأي ، وسأخرج من هذه المقبرة المجنونة .

وشقَّت الصفوف مغادرة القاعة، وخرجت بكل هدوء ، حتى إنها أغلقت الباب وراءها برفق .

قال الدكتور :

_ هذان الشخصان قضيا على مستقبلهما تماماً .

رفع أحد الطلاب يده طالباً الحديث ، وبعد أن أَذِنَ له الدكتورُ قال :

_ اسمح لي أن أقول يا دكتور إن هذه الطالبة سوزان معن اللويمي، ووالدها هو مدير المخابرات .

ضحك الدكتور ضحكة نابعة من أعماق نفسه الغميقة قائلاً :

_ لا مشكلة حتى لو كانت ابنة رئيس الدولة نفسه .

تعجَّب الطلاب من جرأة الأستاذ وخوضه في هذه المسائل.وفي واقع الأمر كان الدكتور واثقاً مما يقول ، فهو صديق مقرَّب جداً من السفير الأمريكي ، وعلى صلة وثيقة بمراكز صنع القرار في أمريكا ، لذا كان يتكلم بكل ثقة لأنه يستند إلى قوة خارجية عملاقة تحميه ، والحكومة تعرف هذا جيداً ، فلا تجرؤ على الاقتراب منه ، خوفاً من أن تتدهور العلاقة بين البلد وأمريكا ، فيضيع القمحُ والمساعداتُ المالية وباقي الامتيازات . فالمسؤولون الحكوميون لا يقدرون على رفض أوامر السفير الأمريكي نهائياً، فهو يتجول في طول البلاد وعرضها ، ويتدخل في كل القضايا صغيرها وكبيرها ، ولا أحد من رجالات الدولة يقدر أن يعترض على أفعاله ، لأنه الحاكم الفعلي لهذه البلاد .

ذهب زياد إلى كافتيريا الجامعة ، وطلب قهوة لكي يستعيد تركيزه ويقظته . وبينما هو في خضم شربه للقهوة أخذ يفكِّر في مستقبله الدراسي الذي انتهى فعلياً، فهو يعلم تماماً أنه لن يحصل على الشهادة نهائياً من أي جامعة في هذه البلاد . لذا أخذ يفكِّرأن يترك الحياة الدراسية بشكل قطعي ، لأن وجوده صار كعدمه . ومهما فعل لن يحصل على الشهادة ، فالدكتور وائل عمَّاش سوف يستخدم كل نفوذه لتدمير مستقبل هذا الشاب. أخذت الوساوس والخواطر تهاجم زياداً من كل صوب وحدب . لقد وصل إلى ذروة التعب النهائي ، ولم يملك إلا أن يقول في نفسه :

_ حسبنا الله ونعم الوكيل ... لا حول ولا قوة إلا بالله .

قرَّر زياد أن يترك الدراسة بعد إعلان نتائج الانتخابات ليطمئن على حركته الطلابية التي يقودها .

وبعد أربعة أيام قامت إدارة الجامعة بإعلان النتائج التي جاءت صاعقةً بشكل

مخيف. فالتزوير بلغ أشده ، وأُسْقِط الإسلاميون عمداً ، مما جعلهم يُنظِّمون مظاهرة عارمة في ساحات الجامعة ، ولم يكونوا وحدهم ، بل شارك في تلك المظاهرات عدد كبير من الطلاب من شتى التوجهات ، فقد رفض غالبية الطلاب الانتخابات لاقتناعهم بحدوث التزوير على أوسع نقاط وبصورة مكشوفة جداً. لم يستطع حرس الجامعة قمع تلك المظاهرات ، فاستدعت إدارة الجامعة عدداً كبيراً من رجال الأمن لقمع المظاهرة، وقد استخدموا أكثر الأساليب وحشية مثل المياه الساخنة ، وإطلاق الكلاب البوليسية ، وإطلاق الرصاص المطاطي ، حتى إن الأمر وصل إلى إطلاق الرصاص الحي مما أودى بحياة بعض الطلاب ، ناهيك عن الجرحى والمصابين . كان الأمر يشبه ما حدث في جامعة (كنت) الأمريكية ، حيث قام الطلاب بالعصيان بسبب ذهاب أمريكا إلى حرب فيتنام ، مما أدى إلى دخول قوات الأمن ، وسحق الطلاب بلا هوادة .

انتشرت الدماء في ساحات الجامعة ، وعلا الصراخ في كل الأمكنة ، وراحت سيارات الإسعاف تحاول إنقاذ ما يُمكِن إنقاذه . وحدثت عملية اعتقال واسعة للطلاب، وكان زياد ممن اعْتُقِل ، وعدد كبير من الطلاب ، ونسبة كبيرة منهم كانوا غائبين عن الجامعة في يوم الأحداث .

حل المساء ولم يعد زياد إلى منزله . قلقت زوجته عليه لكن والده طمأنها بقوله:

ــ ربما وجد عملاً جديداً في المساء ، فلا داعي للقلق .

هدأت زوجته بعد هذا الكلام لعلمها بأن زياداً كان يبحث عن عمل في الفترة الأخيرة ، وربما وجده . لكن مسألة غيابه طالت يومين دون اتصال هاتفي أو أي خبر من ناحيته . وهذا ساهم في إقحام زوجته في دائرة الشكوك ، وعدم الطمأنينة .

ودخل أهل البيت كلهم في دوامة عنيفة ، فالأمر صار يدعو للريبة ، ولكنْ ماذا

عساهم أن يفعلوا ؟ . أين سيبحثون عنه ؟ . فالعجوز خضر الزاوي صحته لا تساعده على الحركة ، وفاطمة وفايزة لا تستطيعان أن تدورا في الشوارع غير الآمنة ، وعلى أقسام الشرطة التي تقتلها البيروقراطية وبطء اتخاذ الإجراءات ، والمستشفيات التي ستكون مشغولة في إعادة ترميم أبنيتها بعد انتهاء الحرب التي أكلت اليابس قبل الأخضر. فهما لا تقدران على البحث عن إبرة داخل كومة قش شاسعة مفتقدة للأمن وحرية الحركة ، ولا تملكان أن تسألا عن هذا الرَّجل الذي اختفى فجأة دون خبر ، كأنه طيف اختفى فجأة من هذا العالَم .

ولم يملك الجميع إلا الانتظار ، وتحت أرجلهم جمرات القلق والشك والحيرة . فربما يكون قد تأخر لأمر ما ، أين سيذهب ؟ . هذا كل شيء قدروا على فعله . إنه الانتظار ، مجرد انتظار حلم قد يعود ، وقد لا يعود .

كانت غرفة التحقيق في مبنى المخابرات مظلمة ، وليس فيها سوى ضوء خافت معلَّق في وسط السقف . وكان زياد في فوهة البركان ، ومركز المدفع ، باعتبار أنه زعيم التيار الإسلامي في الجامعة ، فبدأ التحقيق معه بشكل صارم ، والذي قاد التحقيق مسؤولان كبيران في قسم الحركات الإسلامية في المخابرات ، في حين أن بعض مسؤولي الحكومة كان يتابعون سير التحقيق من وراء جدار زجاجي ، بحيث يَرَوْن ما يجري داخل الغرفة ولا يُرَوْن .

كان التحقيق شكلياً لا طائل منه ، فالتهم جاهزة ، ولا محاكم ولا منظمات حقوق إنسان ، ولا منظمات حقوق حيوان، ولا يُسْمَح بالمحامين مطلقاً. وبعد جولة كلام صورية أُودع زياد في الزنزانة الانفرادية ، وَوُضِع رفاقه في زنازين أخرى . حيث بدأ التعذيب فوراً ودون تأخير ، وقد طال الجميع دون استثناء . وعلت الأصوات المتألمة في فضاء السجن قادمة من كل الجهات .

حدثت الأمور بسرعة جنونية لا مثيل لها ، وإنني لأتعجب من إجراء ذاك التحقيق الذي لا يسمن ولا يغني من جوع . إذ إن التعذيب بدأ فوراً ، حيث كانت

كل التفاصيل جاهزة ومُعَدَّة بعناية فائقة وبترتيب مسبق .

صار ظهر زياد كأنه خنادق مفتوحة على كل احتمالات الجرذان ، وأفاعي الصحراء، والحشرات، وكل الدواب . إنه مُشَقَّق بشكل يبعث على الحرقة والألم ، ولم يكن لوحده في هذا العذاب الشرس ، فكل إخوانه كانوا يعانون مثله أو أكثر . وعذابه هو حصته من عذابات إخوانه الطلاب الذين يستقبلون حياتهم الجامعية في سجون التعذيب ، حيث أجسادهم الغضة ، وعيونهم المنتمية إلى حركة السوط الخيالية والواقعية ، وشتى أساليب قهر إنسانية الحلم وإذلال الجسد الترابي وتعذيب فضاءات الذاكرة .

لم يستطع السجناء أن يناموا في تلك اللحظات العصيبة، فالألم يمتص رغبة النوم مثلما تمتص الشمس قطرات الندى على حبال الغسيل. وقطعان الألم الرهيب تحرث ذاكرة جلودهم المشققة . إنها الرجفة تنزلق كالثلوج المتَّسخة على أصابع الرمل المتكوِّم كتوابيت الغزاة ،كلهم يغرقون في رعشة الوخز ، ورعشة الوخز تغرق في مفاتيح أقفاصهم الصدرية .

والسجن في ذواتهم هو دينامية الفلسفة المحدِّدة لوجود الإنسان خارج الإنسان. فالمشاعر الوحيدة تتكاثر كقطعان غزلان على وشك أن تُصْطَاد. والقضبان الحديدية كأنها صحاري جليدية تنفث الثلوجَ الحلزونية ، والأحزانَ اللولبية . لقد تكدَّست حواسهم في زوايا القشعريرة ، والرجفة تقضم ما تبقى من جلودهم .

كانت سوزان تتقلب في سريرها، بعد أن هاجمها الأرقُ البرمائي. ذهنها مشغول بدرجة هستيرية ، فهي لم تستطع التخلص من التفكير بذاك الشاب الذي ضحَّى بمستقبله الدراسي كله من أجل الدفاع عن المرأة ، ومحاربة النظرة الدونية لها والتي يمثلها الدكتور وائل. هل هذا معقول ؟. لقد شطب كل مستقبله الدراسي ، ووقف تلك الوقفة المذهلة ، ورد على الدكتور بكل صلابة وتماسك . هذه هي الهواجس التي انتزعت النومَ من رأسها. وفي واقع الأمر لم تستطع سوزان إخفاء إعجابها

بذاك الشاب الذي تعرف أن اسمه زياد ، وهو في مجلس الطلبة . هذا كل ما تعرفه عنه . فزياد لا يقيم علاقات مع الطالبات نهائياً ، ويحاول أن يبتعد عنهن قدر المستطاع . وكل نشاطه في الجامعة الذي قد يستلزم كلاماً مع الطالبات يتخذ طابعاً رسمياً للغاية دون التطرق لمواضيع شخصية .

واستطاعت سوزان النوم بعد معاناة شرسة مع الأرق الذي لم يغادرها إلا في وقت متأخر. دخلت في ذاكرة المنام، حيث الماضي يصير مستقبلاً، والمستقبل يرحل ويغيب مثل كل شيء يرحل ويغيب. رأت سوزان في منامها وجه زياد خلف أسوار لانهائية وعارياً من كل قُبَل الرياح ، وجاءها هاتفٌ من مكان سحيق من وديان منامها : ((قولي لأبيك أن ينقذ هذا البريء ورفاقه من السجن لئلا تحملوا دمَ هذا النَّقي زياد الزاوي والآخرين)) .

أفاقت من نومها مذعورة، وهي تتصبب عرقاً. هل هذه أضغاث أحلام أم كلام حقيقي ؟ . لم تستطع في تلك اللحظة أن تحدِّد المسألة بدقة لكنها قرَّرت أن تتخذ إجراءً ما حيال هذا الأمر الذي لم تتعود عليه . لقد رأت وجهه ، كما هو ، بكل الملامح والتفاصيل الصغيرة . نهضت من سريرها ، وارتدت ثياباً ساترة لجسدها . وذهبت إلى غرفة أبيها. فتحت البابَ بهدوء ، فوجدت أباها غارقاً في الشخير . ترددت بعض الشيء ، هل توقظه أم لا . وفي النهاية قرَّرت إيقاظه .

اقتربت منه ، ووضعت يدها على جسده بحنو ، وهي تقول بصوت خفيض قريب إلى الهمس :

ـــ أبي .. أبي .

وقامت بتكريرها عدة مرات ، وهي تهز جسد أبيها ، لكن والدها كان غاطساً في قيعان النوم ، إذ إنه في الليلة الماضية كان يسكر مع بعض مسؤولي الحكومة المتنفِّذين ، ورجع إلى البيت مترنحاً ، وقد قام السائق وبعض الحراس الشخصيين بإيصاله إلى غرفة نومه التي لم يقدر على الوصول إليها بمفرده .

فشلت كل محاولات سوزان في إيقاظ والدها الذي كان يحمل أطناناً من السُّكْر والنوم على كتفيه. أُصيبت بخيبة أمل عارمة، وأجَّلت الموضوع إلى الصباح، فسوف يكون والدها قد شبع من النوم ، وفرصة إيقاظه ستكون أكبر .

عادت سوزان إلى غرفتها ، ولم تقدر على النوم في تلك الليلة المرعبة ، فالأرق سيطر على كل مقاطع حياتها ، وتفاصيل جسدها المختبئ داخل سجن قميص نومها الرقيق .

بقيتْ مستيقظة حتى الفجر ، وسمعتْ صوت الأذان ينبعث من مئذنة المسجد القريب. شعرت برعدة لذيذة تسري في عظامها. كان الأذان قريباً جداً منها. لأول مرة تستشعر هذا القرب الذي أدهشها . وراحت روحها تسبح في كلمات الأذان. إنه إحساس جديد لم تتعود عليه . كانت متوحدة مع كينونة أفكارها ، مع عتمة غرفتها ، فهي لا تحب أن تشعل الضوء عندما تكون في سريرها ، مع أشجار حديقة القصر الذي تعيش فيه . إنها الأغصان تهتز من أثر النسيم العابر في الأرجاء . كانت تلاحظ ذلك من خلال النافذة العارية من الستائر . فكَّرت أن تنهض وتتوضأ وتُصَلِّيَ الفجر ، لكنها غير معتادة على الصلاة . انتصرت على شهواتها في تلك اللحظة ، فقامت وتوضَّأت في حمَّام غرفتها . وتهيَّأت للصلاة ، لكنها لم تعرف ماذا تلبس في ذلك الموقف ، فكل ثيابها قصيرة وضيقة وشفافة . فتحت خزانة ملابسها فراعها منظر ثيابها الفاضحة . لأول مرة تستشعر مأزقها الوجودي من خلال ثيابها التي بدت غريبة إلى حد بعيد . قرَّرت أن تستعير ثياباً للصلاة من الخادمة . وبالفعل ذهبت إلى الخادمة ، واستعارت منها ثياباً ساترة للجسم من أجل الصلاة ، وكم كانت دهشة الخادمة كبيرة في تلك اللحظة .

قالت سوزان للخادمة باستحياء بالغ :

_ بصراحة أريد أن أسألك سؤالاً ، وأنا في منتهى الخجل منه .

_ لا تقلقي يا سيدتي ، أنا مستعدة للإجابة إن كنتُ أملك الجواب .

ـ كم عدد ركعات صلاة الفجر ؟ .

في حقيقة الأمر كانت سوزان لا تعرف كم عدد ركعات صلاة الفجر ، وهذا الأمر المضحك المبكي جعلها تشعر بصغرها وضآلتها وجهلها الفظيع . فهي تعرف أسماء المطربين والممثلين في الشرق والغرب ، وتستمع إلى الأغاني العربية والإنجليزية، وتفهم كلماتِها دون جهد ، لكنها لم تعرف على وجه الدقة كم عدد ركعات صلاة الفجر .

أشفقت الخادمةُ عليها ، ولم تضحك على جهلها لعلمها بأن سوزان خرجت من رحم ثقافة أجنبية ، فقد قضت كل حياتها في مدارس أجنبية ، حتى دراستها الجامعية قضتها في أمريكا ، لكنها تعلَّمت تعاطي المخدرات هناك، مما جعل والدها يُعيدها إلى البلاد لتدرس في إحدى الجامعات المحلية .

قالت الخادمة :

ـ عليك أن تُصَلِّيَ ركعتين سُنَّة ، ومن ثم تُصَلِّين ركعتي الفرض .

كانت سوزان تعرف كيفية الصلاة عموماً ، حيث تعلَّمتها من أمها المطلَّقة . وبالمناسبة فأمها سيدة متدينة طلبت الطلاق من زوجها لأنها ترى أن ماله حرام، وقد رفضت أن تعيش من مال حرام كما تعتقد ، وهذا قادها إلى الطلاق والزواج من رجل آخر بسيط من عوام الناس .

وانطلقت أشعة الشمس تقتحم عزلةَ صمت الأسمنت في حيطان الأبنية . وقرَّرت سوزان عندئذ أن تذهب إلى أبيها لتوقظه . وبعد محاولات حثيثة ومضنية فتح أبوها عينيه بتثاقل بالغ مندمج مع تعجب فظيع لأن ليس من عادة ابنته أن توقظه ، وقال بارتباك وقلق :

ـ ما الذي حصل ؟ ، هل هناك انقلاب عسكري ؟! .

كان عقله مطبوعاً على ألواح الانقلابات العسكرية والمظاهرات والعصيان المدني والتمرد وكل هذه المظاهر باعتباره مدير مخابرات ، وعقله المخابراتي يأبى

أن يفارقه ، حتى وهو مستيقظ للتو .

قالت سوزان في محاولة منها لتهدئة أبيها :

_ لا يوجد شيء من هذا القبيل ، ولكنْ هناك موضوع هام أود أن أخبرك به لم يجعلني أنام طوال الليل .

رد بسذاجة :

_ إذا كنتِ تتحدثين عن عريس ، فلا بد أن يكون مليونيراً ، وابن عائلة كبيرة في البلد ، وإذا كان كذلك فأنا مستعد أن أقابله هو وعائلته .

قرفت سوزان من هذا التشعب الجنوني في الحديث ، وقالت مبتسمة :

_ لا يوجد عريس ولا عروس... فأرجوك أن تسمعني يا أبي حتى أخبرك بكامل القصة .

وسردتْ عليه قصة المنام بحذافيرها ، وضغطت على أبيها لكي يستخدم نفوذه وينهيَ الموضوعَ . وخضع الأب لرغبة ابنته التي لم يكن يملك أن يغضبها ، فهي ابنته المدلَّلة التي يكون كلامها أوامر بالنسبة إليه . صحيحٌ أنه مدير مخابرات وصاحب نشأة عسكرية صارمة منذ طفولته ، ويحمل أوسمة كثيرة جداً مع أنه لم يشارك في أية حرب ، إلا أنه كالريشة الذابلة أمام إعصار ابنته الهادر .

وطلب الأب من ابنته العودة إلى غرفتها، ووعدها أن يجريَ الاتصالات اللازمة فوراً. وبدأت الاتصالات على أعلى مستوى ، وفهم مدير المخابرات القصة كاملةً، وقال للمسؤول عن السجن بلهجة صارمة :

_ أَخْرِج هذا الشاب زياد الزاوي ، وكل رفاقه الذين اعْتُقِلوا معه .

رد المسؤول عن السجن بلهجة كسيرة وصوت خفيض :

_ ولكنْ يا سَيِّدي هؤلاء يُرَوِّجون أن الانتخابات مزورة ، وهذا تشويه لصورة دولتنا الديمقراطية ، وهم يُشَكِّلون خطراً على النظام .

غضب مدير المخابرات غضباً شديداً لأنه لم يتعود أن يناقشه أحد ويطيل معه

في الكلام ، فقال غاضباً :

_ الله يخزيك أنتَ ودولتك الديمقراطية ! . فتزوير الانتخابات في دولتنا من الرأس حتى القاع ، وكل دول العالَم تُزَوِّر الانتخابات ، وأمريكا شخصياً تعرف الموضوع وموافقة عليه ، فاترك هؤلاء الشباب يقولوا ما يريدون لكي يقول العالَم عنا إننا دولة فيها حرية تعبير . أما الخطر على النظام فلا يوجد خطر ولا بطيخ ، وأنا هنا من يُحدِّد الخطر وغير الخطر .. مفهوم يا حبيبي ؟ .

قال مسؤول السجن والارتعاشة تتلاعب به :

_ مفهوم يا سَيِّدي ، واعتبر أن الشباب قد خرجوا الآن .

وأغلق مدير المخابرات الهاتف ، ثم نهض من سريره ، وأحضر زجاجة ويسكي من الثلاجة الصغيرة في زاوية غرفته ، وراح يشرب غير شاعر بالعالَم كله . والعجيب أنه يشرب قبل الإفطار . وقد حذَّره الأطباء من أن حياته ستكون كارثية إذا ظل متعلِّقاً بالخمور ، لكنه يرفض أوامر كل الأطباء ، ويظل يردد في نفسه :

_ أنا طبيب نفسي ، وأعرف ماذا ينفعني وماذا يضرني ، وسأُداوي نفسي بالتي كانت هي الداء ، وأنا أشرب لأقتل نفسي وأرتاح من هذه الحياة المقرِفة .

تفاجأ السجناء بتغير معاملة السجانين نحو النقيض تماماً ، فقد صار السجانون لطفاء ، وأصحاب نكتة ، ويتعاملون مع الآخرين باحترام وشفافية . وهذا الأمر العجيب جعل السجناء يؤمنون بحدوث شيء غير طبيعي . فمن المحال تبدل هذه الطبائع المتوحشة في هذا الوقت القصير إلا إذا حدث أمر جلل. ولم يتوقف السجناء عند هذا الأمر كثيراً، المهم أنهم قد خرجوا سالمين ، وأُفْرِج عنهم مع تقديم الاعتذار لهم من هيئة السجن .

وودَّع السجناء بعضهم البعض عند بوابة السجن ، وافترقوا ، حيث ذهب كل واحد إلى طريقه . وبسبب حجم السعادة الغامرة التي هبطت عليهم نسوا جزءاً كبيراً من آلامهم البدنية جراء التعذيب ، على الرغم من وجود آثار مؤلمة ، وتعيق

حركتهم ، إلا أن شوقهم العنيف إلى عائلاتهم جعلهم يتحملون كل هذه الآلام ويمضون إلى بيوتهم .

كان زياد يمشي وحيداً ، فلا يوجد أي زميل في الدراسة يسكن في منطقته ، وكان يتساءل في نفسه :

ـ هل أصبحت دولتنا طاهرة تحترم حقوق الإنسان وتعامل البشر كبشر ؟! .

ورغم أنه ألقى في قاع نفسه هذا السؤال إلا أنه فشل في الإجابة عنه . فهذه الدولة ليس من السهل أن تتغير بهذه البساطة . ماذا عن عشرات الآلاف من السجناء بلا تهمة ؟ . ماذا عن المدنيين الذي يُساقون إلى المحاكم العسكرية وكل ذنبهم أنهم بدون ذنب ؟ . بصراحة ، هذه الدولة لا يوثق فيها . هذا ما توصل إليه زياد بعد مناوشات فكرية مع ذاته المنشطرة .

وأخيراً رن جرس منزل العجوز خضر . أسرعت فايزة إلى الباب إيماناً منها بأن هذا القادم هو زوجها ، وهي تعيش على الأمل مثل كل النساء ، على أمل عودة الرجال الغائبين . وما إن فتحت الباب حتى اصطدمت عيناها بعيون زوجها المتعبتين في لحظة صادمة وعنيفة . لم تتمالك نفسها . قفزت في أحضانه بكل تلقائية . ولم يملك زياد في تلك اللحظة إلا أن يُطَوِّقها بكلتا ذراعيه رغم ازدياد شعوره بالألم القادم من التعذيب . لأول مرة يشم رائحة أسطنبول من خلال جسدها المتموِّج ، وفي لحظة خاطفة مر كل تاريخ الدولة العثمانية في ذاكرته ، كل التركيات حفيدات محمد الفاتح عَبَرْنَ في مخيلته كالومض الخارج على قوانين الجرح ، هكذا تختزل الأمكنةَ روائحُ أجساد النساء ، فتصير المرأة مكاناً حاضراً وموازِياً للمكان الغائب .

دخل الاثنان إلى البيت ، وتجمع أهل الدار الذين عانقوا زياداً ، حتى الصغيرة خولة قفزت بين أحضان زياد ، وهي تقول بكل براءة الطفولة المستلَبة :

ـ أين كنتَ يا بابا ؟ .

ولكم كانت مفاجأة زياد كبيرة وعاصفة عندما سمع لفظة " بابا " تنطلق من فم ابنة أخيه . لقد أنسته هذه الكلمة السريعة كل تواريخ النزيف العابر في أوصاله . فالطفلة يبدو أن تقبَّلت فكرة الأب الثاني ، ربما لكون عمها شخصاً قريباً منها ، حيث إنه كان على الدوام يحضر لها الحلوى والعصير ، ويطالبها بتنظيف أسنانها بعد الأكل، لدرجة أنه اشترى لها فرشاة أسنان زرقاء صغيرة ، ومعجون أسنان للأطفال بنكهة النعنع .

وبعد أن جلسوا جميعاً في غرفة المعيشة ، راح زياد يسرد عليهم ما جرى لئلا يحرق قلوبَهم بلوعة الانتظار والفضول القاتل ، فلم يُرِدْ أن يقتلهم مرتين ، في غيابه المفاجئ ، وحضوره العاصف . وقد تعمَّد أن يخفيَ موضوعَ التعذيب لئلا يزدادوا ألماً وحزناً .

وبعد سرد قصة الاعتقال قال العجوز خضر :

_ اسمع كلامي يا بني ، هذه الحكومة ظالمة ، ابتعد عنها ، ودعك من قصص تزوير الانتخابات ومواجهة الدولة ، وانتبه إلى عائلتك التي تنتظرك كل يوم، واترك السياسة للشخصيات الكبيرة المدعومة .

وتابع يقول :

_ وهل أخذوا منك المعلومات التي يريدونها ؟ .

_ لو طلبوا مني معلومات عن حذاء جارتنا اليهودية فلن أُعطيَهم إياها ، فكيف إذا طلبوا معلومات عن إخواننا ؟ . يا جماعة ، إن عماد الفايد ضحَّى بحياته من أجل ساقطة مدمنة على المكياج وحبوب منع الحمل ، فلماذا لا نُضَحِّي بحياتنا من أجل خالقنا ؟! .

وفي هذا الإطار انصبت كلمات زوجته وأخته ، أما الصغيرة خولة فلم تكن تفهم تفاصيل هذا الكلام، وكل الذي فهمته أن هذا الشيء المسمى بالحكومة شرير ويؤذي عمها الطيب الذي هو بمثابة أبيها ، وهي بالطبع لا تحب أي شيء

يؤذي أحبابها . هذا هو شعورها الطفولي حول كل الكلام الذي دار ، وقد تساءلت بكل بساطة :

ـ ولماذا تقوم الحكومة بإيذاء الناس ؟ .

وما إن سمع جدها هذا الكلام حتى انتهرها قائلاً بحدة بالغة :

ـ هذا الكلام أكبر منك ، ولا أريد أن أسمعه منك مرة ثانية ، مفهوم ؟ .

هزَّت رأسها بالموافقة ، وكبرياء الدموع الغامضة تتهادى في أقاصي عينيها . فهي بنت حساسة جداً ، وأصغر كلمة تؤثر في مشاعرها لمدة طويلة ، وليس من السهل أن تنسى أي خدش في عواطفها الرقيقة .

وقال جدها بصوت خادش :

ـ هذا ما كان ينقصنا ، طفلة تتحدث في السياسة ، فعلاً بنات آخر زمن .

تأثرت خولة إلى درجة كبيرة ، وسلَّمت نفسها لبدايات البكاء التي تزحف مثل مطر أيلول . ولقد لاحظ زياد هذا الموقف فحضنها بكلتا يديه ، وضمها إلى صدره، حيث امتزجت دموعها الناعمة بعظام قفصه الصدري ، وقال :

ـ يا أبي ، هذه بنت صغيرة ، قد تقول أشياء لا تدرك معناها . غداً تكبر ، وتفهم لماذا حكومتنا تؤذي الناس .

غمرت الفرحة فايزة حتى رأسها ، فمشهد احتضان زياد لابنتها جعلها تزداد طمأنينة بأن هذا الرَّجل هو الذي سيلم شعث هذه الأسرة الصغيرة التي فقدت رأسها في ظروف غير طبيعية .

وبعد برهة تفرَّق الجمع ، وذهب زياد وزوجته إلى غرفة النوم، في حين خرجت الصغيرة لإكمال مسيرة اللعب مع الأطفال الذين وُلِدوا في هذا المكان البائس ، وهم يُفَتِّشون عن مستقبل قد يأتي وقد لا يأتي .

وأُغْلِق باب غرفة النوم . وأصبح الزوجان في فوهة نسيم هذه الغرفة الشاهدة على ولادة انصهارهما في حلم واحد .

قالت فايزة وجبهتها تتفجر شظايا ضوء غامض :

_ زياد ، أريدك أن تحضنني مثلما حضنتَ خولة .

ورد زياد رداً غريباً بعض الشيء ، فقال :

_ ولماذا لا تحضنيني أنتِ ؟ .

_ لأن الرَّجل هو الذي يحضن زوجته .

وبعد أن سمع زياد هذا الكلام حضنها بشدة ، وأدخلها في ذاكرة أضلاعه ، وأطبق أجفانه عليها . ها هو جسدها يلتهب في فوهة بركان المشاعر والشهوة العارمة ، لكن شيئاً لم يكن في الحسبان طرأ عليه ، إذ إن الألم عاوده بشكل رهيب ، لدرجة أن تَوَجَّع بصوتٍ عال ، مما أفزع زوجته ، فقالت والقلق يشويها على نار هادئة :

_ ماذا هناك يا زياد ؟ .

ابتعد زياد عنها قليلاً ، وقال :

_ بصراحة ، أنا تعرضتُ للتعذيب في السجن ، وما زال ظهري يؤلمني .

انتفضت فايزة كاللبؤة التي تستشعر خطراً قادماً من جهة ما لكنها غير قادرة على تحديده ، وقالت :

_ الله يكسر أيديهم .

_ دعكِ من الدعاء عليهم ، الله يهدينا ويهديهم .

_ اخلع ملابسك وتمدَّد على السرير ريثما أُحْضِر قطناً طبياً مما تبقى في خزانة الإسعاف الحائطية ، ومُطَهِّرَ الجروح .

خضع لرغبة زوجته دون مناقشة ، وقد كانت تقرحات الجروح تلسع جسمَه لسعاً مؤلماً كأن إبر نحل قد استوطنت في أنحاء لحمه الهش جراء التعذيب .

ولما رأت التشققات في ظهر زوجها هالها المنظر العنيف، وأشفقت على زوجها، وقالت :

_ ابتعد عن الحكومة يا زياد ، هذه حكومة مجرمة لا ضمير لها .. هذه السياسة ستقضي على مستقبلنا ، نحن الذين ليس لنا أحدٌ يدافع عنا .

وبدأت تسكب السائل المطهِّر على قطعة القطن ، وتمسح به أماكن الجروح في ظهر زوجها الذي كلما لمست جلده هذه المادة ازداد ألماً وحرقةً ، ولولا الحياء من زوجته لعلا صوته بالصراخ كالطفل الصغير .

وبعد انتهاء العملية ارتدى ثيابه بمساعدة زوجته ، واستلقى على السرير من أجل النوم ، لكنه لم يتمكن من النوم على ظهره ، فنام على بطنه ، وقامت زوجته بتغطيته .

استسلم للنوم سريعاً على الرغم من آلامه ، إذ إن التعب المسكوب في جسمه كان أكبر بكثير من الألم . وذهبت فايزة لعمل بعض الحاجيات ، فقد تذكَّرت أن عليها جلي الصحون ، لأنها قد تقاسمت عمل البيت مع فاطمة ، وفاطمة قامت بتكنيس البيت ، مما جعل جلي الصحون من اختصاص فايزة في هذه المرحلة .

١٧

دخلت الراهبة عايدة إلى مخبز اليهودي لشراء الخبز، وما إن رآها اليهودي حتى ظهر الغضب على جوانحه ، وتفشى الضيق الشرس في كل تفاصيل سحنته ، واضطرب تنفسه اضطراباً خانقاً ، وقال :

_ لماذا لم تأتي الراهبة جودي ؟ ، هل هي مريضة ؟ .

_ ليست مريضة ، ولكنها رفضت أن تشتريَ الخبزَ ، فصرتُ أنا المسؤولة عن الشراء .

قال اليهودي في نفسه ، وقد ارتفع مؤشر اكتئابه بشكل جنوني :

_ ألا توجد في الدير راهبة غيرك ؟! .

قطعت عايدة طريق الاكتئاب والقرف على اليهودي ، وقالت :

_ هل تريد أن تبيعني الخبز أم لا تريد ؟ .

ـ هاتي المال ، وسأحضر لك الخبز حالاً .

وبعد أن أعطاها الخبز قال لها بكل سذاجة الأطفال :

ـ أرجوك قولي لها إنني مستعد لتزويد الدَّير بالخبز مجاناً مدى الحياة مقابل أن تقوم الراهبة جودي بعملية الشراء.. أرجوك قولي لها أن تعود ، فأنا ضائع في هذه البلاد ، والشيء الوحيد الذي كان يعينني على قرف حياتي هو وجهها .

تعجَّبت عايدة من هذا الكلام أيما تعجب ، وقد لاحظت تحجر بعض الدمعات في عيون هذا الرَّجل الذي ظهر ضعيفاً مثيراً للشفقة ، مما جعلها تحزن عليه في قرارة نفسها . ومضت عايدة وهي تتساءل في نفسها عن مغزى هذا الكلام الصادر من خباز بسيط ، وقرَّرت أن تخبر جودي بكل ما حصل بالتفصيل الممل .

وفي الدَّير قامت بقص كل ما حدث على جودي التي ضحكت من أعماق قلبها قبل أن تتوغل في البكاء . وهذا أدى إلى شعور عايدة بالاستغراب وعدم الفهم ، فقالت :

ـ أنت تبكين والخباز دمعت عيناه ، ما هو الموضوع بالضبط ؟ .

ـ صَدِّقيني يا أختي عايدة ، هذه الدنيا هي مُجَمَّع للمتناقضات . تصوري عدد البشر الذين يبكون خلف كتل الأسمنت المسلَّح ، ولا أحد يشعر بهم . تخيَّلي عدد النساء اللواتي ينتحبن وراء النوافذ الحديدية الباردة ، وكل القاتلين يذهبون مع عشيقاتهم إلى صالة الرقص ، ولا يشعرون بالطفلات اللواتي يمسحن السيارات في ليالي الشتاء ، أو يبعن العلكة على إشارات المرور في مدن التحرش الجنسي . دعيني للبكاء يا أختي لكي أستعيد توازني النفسي الذي ذهب مثلما يذهب كل شيء .

لم تفهم عايدة هذا الكلام الذي أخذ طابعاً فلسفياً معقَّداً بالنسبة إليها إلا أنها كانت تحس بالكلمات دون السيطرة على تدفقات حروفها . وازداد بكاء جودي بينما غادرت عايدة المكان وفي عينيها الدامعتين بلا تفسير منطقي تتزاوج كل أنواع

الزواحف المنقرضة .

وفي ذلك المخبز الذي صار مأتماً حقيقياً كان اليهودي يكافح دموعه المنهمرة ، فتارة يمسحها بطرف كمه ، وتارة يتركها حتى تتساقط على الأرض . لم يتوقع قدوم هذه اللحظة ، لم يتصور أن تختفيَ الراهبة جودي بهذه البساطة كأن شيئاً لم يكن . ولم يتخيل نفسه في يوم من الأيام باكياً بسبب امرأة، وهو الذي يعتبر النساء تحصيل حاصل ، كائنات دونية تُباع وتُشترى . لقد سيطر حبها على تفاصيل كيانه . لأول مرة يشعر أنه قلبه يخفق بشدة وبصدق ، فهذا اليهودي لم يشعر بالحب تجاه أي كائن . فهو لا يحب زوجته لأنها فُرِضَت عليه فرضاً، ولا يشعر بأية أحاسيس طبيعية تجاه أبويه . إنه اللامنتمي في عوالم اللاانتماء ، يشعر أن كل شيء صار عبئاً عليه ، وطنه وأسرته ومخبزه وحتى نفسه .

فكَّر أن يذهب إلى الدَّير ويعتذر عن كل ما بدا منه . إنه مستعد أن يُقَبِّل حذاءها مقابل أن تعود لشراء الخبز . ما فائدة المخبز إذا خلا منك يا جودي ؟ . هذه الخواطر حرفياً كانت تقفز في رأسه . ولكنه عاد وأكَّد في نفسه أنها لن تعود أبداً، فهي لم تبادله أي اهتمام في أية فترة من الفترات ، حتى إنها تتصرف وكأنه غير موجود أمامها . وهذا جعل اليهودي يقتنع بأنه شخص هامشي في حياة كل الناس لأنه همَّش أقربَ الناس إليه .

لم يقدر أن يظل في المخبز لأن الاختناق كان ينخر حيطان رئته . قرَّر إغلاقه ، وبينما هو يغلق المخبز جاءه طفلٌ مسرعاً يرتدي ثياباً رثة ، وقال :

ـ أريد خبزاً .

ـ ألا ترى أني أُغْلِق المخبز ؟! .

ـ ولكن أمي وإخواني جائعون ، ماذا سأقول لهم ؟ .

على غير العادة أحس اليهودي بأن عليه مساعدة هذا الطفل البائس ذي العينين الغائرتين ، فامتنع عن إغلاق المخبز مؤقتاً ، وأعطى كمية من الخبز للطفل

وسامحه بالمبلغ ، فارتسمت سعادة غامرة على وجه الطفل الذي راح يركض في هذا الشوارع القذرة .

لأول مرة يشعر اليهودي أنه أدخل السعادة على قلب شخص ما . إن هذه التضاريس الفريدة على خارطة حياته غيَّرت فلسفته في الحياة. لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن يسامح أحداً ما بثمن الخبز، وهو الذي يمص دم زبائنه حتى آخر قطرة. ها هي عيناه تستسلمان لوخز الدمع ، وتتبعان خطوات ذلك الطفل الذي يقفز في الشارع سعيداً بأنه عاد بالمال . لا بد أن أمه ستفرح كثيراً ، وإخوانه الجوعى الذين يقفزون من الألم والجوع لا بد أن يبتسموا وهم يحدقون في وجوههم الذابلة .

عاد اليهودي إلى بيته بعد أن فقد شهيته في البيع ، فاستقبلته زوجته قائلة :

_ لماذا رجعتَ مبكراً ؟ .

_ لا يوجد بيع ، كما أنني لم أعد قادراً على أن أرى المخبز كله . لقد قرفتُ منه ومن كل ما حولي .

أدركت زوجته أن خطباً كارثياً قد هبط على زوجها ، فهي تعلم أن زوجها يعبد المال أكثر من عبادة أجداده للعجل ، وعودته بهذه الطريقة لا بد أنها تنطويَ على سر غامض . إلا أنها لم ترد أن تدخل معه في نقاش لأنه تعلم طباعه الحادة ، وكلامه البذيء .

ودخل إلى غرفته ، وارتمى على السرير دون أن يُغَيِّر ملابسه . امتزجت رائحة عرقه بطعم شلالات الدموع في عينيه ، وهو يقول في نفسه :

_ لقد ضاع كل شيء ، الوطن ضاع ، جُودي ضاعت ، المخبز ضاع ، أنا وأسرتي أصلاً ضائعون . لم أعد أشعر بأي وجود في هذا المكان ، والأفضل أن نهاجر إلى دولتنا في فلسطين، مع اعتقادي أن كوكب الأرض صار كله مقبرة بالنسبة إلي .

واقتحم عزلةَ النوم السحيقة عارياً من كل أحلام الفراشات الملوَّنة ، وقد بقي حلم الهجرة في رأسه يقفز كالشمعدان المغبر في الكنيس البعيد .

وبعد خمس ساعات أفاق اليهودي لوحده ، وحلم الهجرة إلى فلسطين ما زال ينخر حيطان ذهنه . طلب من ابنته أن تعد شاياً ببطء شديد يصل إلى حد الملل ، لكن الأم استغربت من هذا الطلب، وسعت إلى إعداد الشاي بنفسها إلا أن زوجها قال لها :

_ اتركي راحيل تعد الشاي ، وتعالي لأحدثك بموضوع مهم .

اتخذ الزوجان ركناً قصياً في غرفة الجلوس ، وقال اليهودي بشكل مباغت وقريب إلى الهمس :

_ ما رأيك لو نهاجر إلى فلسطين ونلم شمل العائلة هناك ؟ .

تفاجأت زوجته بهذا الكلام غير المتوقَّع ، وقالت :

_ وماذا عن بيتنا والمخبز ؟ .

_ المخبز سوف أبيعه ، وبيتنا ليس مُلْكاً لنا ، إنه بالإيجار . وليس لنا أقارب في هذا الوطن الذي جعلته حكومتنا مقبرة لكل الشعب. فالحكومة تريد التخلص منا ، ونحن نريد التخلص منها . ونحن هنا لصوص نسرق وطنَ الآخرين ، وفي فلسطين لصوص نسرق وطنَ الآخرين ، يعني لا فرق بين هنا وهناك .

_ ولكن راحيل تعوَّدت على هذا المكان ، وقد تعاني من السفر لأنها لا ترى .

_ ومن قال لك إننا سنأخذ راحيل معنا ؟ .

انكمشت تجاعيد زوجته لما سمعت هذا الكلام ، وتداخلت شرايينها في مدار الرجفة الصاعقة ، وظهر على قسماتها ملامح الريبة وعدم الفهم ، وقالت :

_ ما معنى هذا الكلام ؟ .

_ اسمعيني يا مريانا، واتركي العواطف جانباً. ابنتك العمياء هذه، أنا لا أعترف بوجودها ، فأنا مثل هتلر لا أعترف إلا بالأصحاء الخالين من العاهات والعيوب .

وهذه البنت لا نستطيع أن نأخذها معنا لأنها ستكون عبئاً علينا . وأمامنا خياران ، إما أن نجد أحداً ما يتزوجها فيريحنا من قرفها ، أو نتركها في دير الراهبات تعيش معهن وتخدمهن ، فهي في كل الأحوال خادمة ، سواءٌ في بيتنا أو في بيت زوجها أو الدَّير . ومسألة وضعها في الدَّير بسيطة جداً ، فالراهبة تيريز زعيمة الدَّير ، وهي مستعدة لاستقبال ابنتنا في أي وقت ، فهذا ما قالته لي في يوم من الأيام . ولكني ظللتُ متردداً حتى جاءت ساعة الحسم .

لم تصدق مريانا الذي تسمعه. صحيحٌ أنها تعرف أن زوجها وغد في كل مراحل حياته ، لكنه لم تكن تتصور أن يصل إلى هذا المستوى من الانحطاط ، فقالت بلهجة متصلبة :

ـ كيف تريد مني أن أوافقك على بيع ابنتنا الوحيدة ؟ .

ـ هذا ليس بيعاً ، نحن لا نرميها في الشارع مع النفايات ، بل نضعها في مكان محترم ، وهي أصلاً لن تظل معنا طوال العمر . لماذا لا نُهَيِّئ مستقبلها دون أن نُدَمِّر حياتها فوق الدمار الذي هي فيه ؟ .

وأردف قائلاً بلهجة تهديدية تحمل كل معاني الابتزاز :

ـ واسمعي ما سأقوله وضعيه حلقة في أُذنك ، إن أردتِ أن تبقي مع ابنتك فلا مشكلة ، أنا مستعد أن أتخلص منكما ، وأرتاح من هذا القرف الذي أعيش فيه طوال عمري .. فكِّري في الموضوع ، واقنعي ابنتك ، وأنتما تشربان الشاي معاً ، فأنا خارج من هذه الدار المقرفة لأشم قليلاً من الهواء بعيداً عن قرفك أنتِ وابنتك العمياء .

ـ وأين ستذهب ؟ .

ـ سأذهب إلى جهنم ، فهي المكان الوحيد الذي يستقبلني دون أن أناقش امرأة جاهلة مثلك .

وفي بقعة مخفية خلف باب المطبخ كانت راحيل تسترق السمع ، وقد اطلعت

على الموضوع منذ بدايته حتى نهايته ، وأدركت ما يحاك ضدها ، إلا أنها لم تتأثر كثيراً لأنها تشعر بغربة قاتلة في كل الأماكن ، فقد تساوت في ذهنها كل البقاع لأن الغربة تسيطر على تفاصيل حياتها ، فلم تأخذ الموضوع بتلك الأهمية الكبيرة ، حتى إنها تمنَّت في قرارة نفسها لو تجد رجلاً يتزوجها حتى لو كان بالمجان ، فقط لينقذها من هذا الوضع المؤلم الذي تعيش فيه أو تموت فيه ، فقد صار الأمر سيان .

أحضرت راحيل الشاي إلى غرفة الجلوس حيث أمها جالسة على الكرسي ، والأرض تدور بها كأن دوار البحر المجاور قد امتد نفوذه إليها . أخذت الأم الشاي من ابنتها ، ووضعته على الطاولة ، وهي لا تعرف كيف تفاتح ابنتها بالموضوع ، لكن البنت بعد أن جلست باغتت أمها بالقول :

ـ لقد سمعتُ كل ما دار بينكما ، وأنا موافقة على الزواج، أو الذهاب إلى دير الراهبات .

صُدِمَت الأم بهذا الكلام ، وأرسلت بصرها إلى الأرض خجلاً من ابنتها ، إلا أنها قالت وهي لا تعني ما تقول :

ـ لن يجبرك أحد على أن تفعلي شيئاً لا تريدينه .

كانت راحيل تعلم أن أمها لا تملك من الأمر شيئاً ، فقرَّرت أن تكون كبش الفداء لكي تستريح من عذابها ، وتريح أبويها من عذابهما ومشقتهما البالغة ، وهما يعتنيان بفتاة عمياء لا تقدر على الاعتناء بنفسها كما يجب ، فقالت راحيل بشكل فيه إصرار بالغ :

ـ قولي لأبي أن يفعل ما يراه مناسباً ، ولن أعارضه نهائياً .

وانطلقت راحيل إلى غرفتها ، والدموع تقتلع أجزاء عينيها اللتين بدتا قفراً موحشاً لا يحمل رائحة الحياة . أرادت أمها أن تلحق بها لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة ، وانكمشت في الضوء الخافت الذي ينخر أخشابَ قفصها

الصدري، وهي تتفكر في حال أسرتها الراكضة إلى التلاشي والفراق النهائي .

١٨

كان الدكتور عبد السلام الدومي يلقي خطاباً في مقر الحزب الشيوعي ، وكان الحضور لا يتجاوزون العشرين شخصاً فقط ، فكان يقول :

_ أيها الرفاق في هذا الحشد الجماهيري الضخم ، إن حزبنا يعيش مرحلةً مفصلية من عمره ، فهو الحزب الذي قدَّم التضحيات الجسام من أجل تحقيق إمبراطورية البروليتاريا على جثث الأغنياء الذين سرقوا الشعب . فيا عمال العالَم اتحدوا من أجل نيل حقوقكم . أيها الفقراء لا تقلقوا على مستقبلكم فنحن لن نترككم ، ها هو صراعنا الطبقي مع العالَم كما وضع نظرياتِه الرفاقُ القادة الذين حرَّروا العالَم من هيمنة أصحاب الثروة التي سرقوها من العمال. فيا عمال الأرض، خذوا حقكم عبر قتل أصحاب العمل وسرقتهم ، ... نحن الثورة والثوار ، سنقتل الرجال ، ونسبي النساء . لا نخاف من الرجل ولا نحترم المرأة ، إن الرفيق لينين كانت له زوجة وعشيقة بلا تناقض ، والرفيق ستالين كان يصف أمه بالمرأة الرخيصة ، هذه هي الثورة الاجتماعية التي تمهد للثورة السياسية ... .

واستمر الدكتور عبد السلام في خطابه الطويل ، وفي أثناء ذلك كان هاني جالساً في الصف الأول ، وقد أصابه المللُ جراء هذا الخطاب . وكانت تجلس إلى جانبه امرأة لأول مرة يراها في حياته، فهي ليست من أعضاء الحزب بالتأكيد . وفي واقع الأمر فقد كانت تلك المرأة طالبة دكتوراة روسية تجري بحثاً حول دور الأحزاب الشيوعية في العالم العربي ، وهذا هو عنوان أُطروحتها للدكتوراة .

كانت تلك المرأة في أواسط الثلاثينات تقريباً ، وهي تُجَسِّد الجمال الروسي في أعنف أشكاله ، كأنها من سلالة القياصرة الذين حكموا تلك البلاد . وما زاد الكوارث النفسية والكبت الجنسي في نفسية هاني هو أنها كانت ترتدي تنورة فوق الركبة بشكل مثير جنسياً ، وتضع رجلاً فوق أخرى ، وكلها اندماج مع الخطاب

الذي نسيه هاني ، وصار يختلس النظر إليها ، ويُرَكِّز بصره على تلك القدمين العاريتين . بدأت الشهوة الهستيرية تتفجر في جسده ، مما جعله غائباً عن المشهد كأنه قد أُغْمِيَ عليه . شعر أن وحشاً ساكناً في جسمه يتحرك في كل الاتجاهات ، ويحيل أعضاءه إلى كرات نار . لم يقدر على تمالك نفسه ، فأسرع إلى دورة المياه في أثناء الخطاب ، مما جعل الدكتور عبد السلام يرمقه بعينين قاسيتين ، وهو يقول في نفسه :

_ أين يذهب هذا الغبي أثناء الخطاب ؟ .

كانت الشهوة الجنسية لدى هاني في أعلى درجات غليانها ، فلم يجد غير دورة المياه ليقوم بتفريغها. وبعدها شعر بأن الوحش المتغلغل في عروقه قد انكسر . ثم عاد إلى مقعده كأن شيئاً لم يكن، وبدا متماسكاً بعد أن تخلص من الهستيريا التي سيطرت عليه لفترة قاسية جداً على الرغم من أن عظامه كانت شبه متيبِّسة .

انتهى الخطاب ممزوجاً مع تصفيق حار مع أن غالبية الحضور لم يفهموا منه شيئاً. وشيئاً فشيئاً فرغت القاعة ولم يبق إلا الدكتور عبد السلام وهاني . سأل الدكتورُ هاني عن مستوى الخطاب ، فأجاب هاني على الرغم من أنه قد فهم نصف الخطاب فقط :

_ بصراحة يا دكتور ، لقد كنتَ مدهِشاً ورائعاً في نفس الوقت ، ولو كان كارل ماركس حياً لاختارك مساعداً شخصياً له .

ملأ الدكتور صدره بالهواء تفاخراً ، وانتصب كوتد الخيمة الذاهبة في الريح ، وقال :

_ إن موهبة الخطابة يا هاني لا يحصل عليها إلا المفكرون الكبار مثلي ، وأنا لا أحب التفاخر _ كما تعلم _ ولكني أرى أنني المنقِذ لهذا الحزب ، والزعيم التاريخي له الذي سينقذ البشريةَ من الإمبريالية والأغنياء اللصوص الذين يسرقون الفقراء .

تأفف هاني في داخله بسبب هذا الكلام الذي اعتبره غروراً وجعجعة دون طحن ، وقال بعد أن امتص هذا الكلام الثقيل على صدره :

_ اسمح لي يا دكتور أن أذهب الآن ، فلدي أمور كثيرة ، وليتني أجد تاكسي بسرعة لئلا أتأخر عن مواعيدي الهامة .

وقد تعمَّد هاني أن يذكر موضوع التاكسي لكي يدفع الدكتورَ إلى توصيله بسيارته ، فقال الدكتور من باب الشهامة المصطَنَعة :

_ دعكَ من التاكسي ، سأقوم بتوصيلك إلى حيث تشاء .

_ لا أريد أن أكون عبئاً عليك يا دكتور .

_ يا رفيق، لا يوجد أي عبء، فالسيارة موجودة، وأنا لن أحملك على ظهري.

ومضى الاثنان نحو السيارة الجاثمة كالتابوت النبيل في الكراج . إنها مرسيدس أحدث موديل ذات لون فضي ، ومنظرها يُسيل اللعاب ، فقد كانت تحفةً فنية كأنها قُدَّت من رخام .

وبعد أن ركب الرَّجلان ، جاء متسول أعرج، ومعه قطعة قماش ، وارتمى على زجاج السيارة كأنه يريد تنظيفه أو تلميعه على أمل أن يُعطَى شيئاً من المال. غضب الدكتورُ غضباً شديداً ، ونزل من السيارة ، ودفع المتسولَ بكلتا يديه فسقط على الأرض وفي عينيه تلالٌ من الدمع البِكْر ، وقال الدكتور بلهجة قاسية :

_ ابتعد أيها الشحاذ عن سيارات أسيادك ، هل تريد أن تخدش الزجاجَ بهذه الخرقة البالية كوجهك ؟ . إن هذه السيارة أغلى من كل عائلتك ، وأهم من كل البشر الحثالة من أمثالك .

وتوَّج هذا الكلام القاسي ببصقة ثقيلة على جسد ذلك المتسول الأعرج الذي لم يملك في تلك اللحظة إلا أن يمسح البصقة بقطعة القماش ، والدمع يتصلب في عينيه اللتين تكدست فيهما أكوام من الشرايين المغلَقة التي ترافق الذبحة الصدرية .

وركب الدكتور السيارة ، وانطلق بها بسرعة شرسة مبتعداً عن ذلك الرَّجل الممزوج بالغازات المنبعثة من العادم . وفي أثناء الطريق قال الدكتور لهاني الذي بدا متعجباً من ردة الفعل العنيفة التي حصلت :

_ هؤلاء الفقراء صاروا أكثر من الفئران ، يظن الواحد فيهم أننا نجد المال في الشارع ، ولا يعلمون أننا نموت ألف مرة قبل الحصول على المال .. أتمنى أن أهاجر إلى بلد لا يوجد فقراء بالمرة لكي أرتاح من أشكالهم وروائحهم النتنة .

تعجَّب هاني من صدور كلام بهذه الحدة من شخص يتحدث في كل خطاباته عن إنقاذ الفقراء . وبدا التناقض في المشهد صارخاً إلى درجة التماهي مع الأسطورة التي كانت تجتاح نفسية هاني . كل الخطابات كانت كلاماً في الهواء ، مجرد أساطير يُحقَن بها الحضور من أجل نيل التصفيق والأوهام . هذه هي القناعة التي توصَّل إليها هاني في خاتمة المطاف .

وفي الفترة السابقة راح موضوع الطفل الذي بِيعَ يُشَكِّل كابوساً في حياة هاني. فقد راجع نفسه فلم يُصَدِّق أنه باع طفله القادم من دمه ولحمه لهذا الغريب. صار الأرق يقضم أجزاءَ ليله ، فلم يقدر على النوم إلا بعد مضي عدة ساعات وهو واضع رأسه على الوسادة . حتى منامه أمسى وكراً للكوابيس ، فهو يتخيل جثة طفله تنادي عليه من وراء أسوار لا عِداد لها . لقد أصبحت حياته جحيماً لا يُطاق، مما انعكس سلباً على صحته العقلية والجسمية .

وبينما كانت السيارة تقتحم ذراتِ أكسجين الطريق فكَّر هاني أن يطالب بطفله . تردد كثيراً في البداية لأن سطوة الدكتور عبد السلام عليه كانت طاغية إلى حد بعيد ، ولكنه تخلَّص من تردده ، وقال مستنشِقاً هواء الجرأة :

_ دكتور عبد السلام ، بصراحة أنا أريد استرجاع طفلي ، وأنا مستعد أن أرد إليك المال الذي أخذتُه .

رد الدكتور بسذاجة مفتعَلة :

ـ ولكنْ ما أعلمه أنك أعزب لا زوجة لك ، فمن أين لك طفل ؟ .

ـ رجاءً يا دكتور ، أنتَ تعرف الموضوع كاملاً ، أريد طفلي لكي أقدر على النوم في الليل ، فأنا لم أعد أشعر بالحياة نهائياً ، فالحياة صار موتاً بالنسبة إلي .

أعاد الدكتور لهجته الاستفزازية ، وقال :

ـ لا مشكلة ! ، بإمكانك أن تأخذ حبوب منوِّمة ... إنني أعرف نوعية فعالة جداً سأعطيك اسمها ! .

تضايق هاني من هذه الكلمات التي تلعب به بينما هو يحترق أيما احتراق ، وقال بصيغة تهديدية :

ـ بصراحة يا دكتور ، إن لم تُرْجِع إلي طفلي فسأقوم بفضح المسألة في كل مكان ، وسأبدأ من مقر الحزب .

ـ أنتَ تعرف يا رفيق هاني أن لهجة التهديد لا تجدي نفعاً مع أناس بحجمي ، ولكني أطلب منك أن تحضر إلى مقر الحزب غداً في العاشرة صباحاً ، ولن تجد هناك سواي ، وسنقوم بحل هذه المسألة بشكل أَخَوِي .

اطمأنت نفسية هاني إلى هذا الكلام، وآمن بأنه سيرى ابنه غداً برفقة الدكتور، ويبدو أن اللهجة الصارمة قد آتت أُكلها ، هذه هي قناعته .

وجاء الغد محمَّلاً بأكياس رمال الأحزان، وأطنان المشاعر في الصدور المتجمدة. لم يقدر هاني على النوم في الليلة الماضية من شدة الفرحة. وأخيراً سيستعيد ابنه ويرد المال الذي قبضه ثمناً للحمه الذي فرَّط به .

وصل هاني إلى مقر الحزب في العاشرة إلا رُبْعاً . ومع هذا فوجد باب مقر الحزب مفتوحاً فدخل دون تفكير ، وعيناه تنحتان تماثيل اللهفة في زوايا المكان ، وبالطبع فقد كان يفتش عن ابنه ، ربما يكون هنا أو هناك . وفي خضم بحثه اصطدم بصره بالدكتور عبد السلام الذي كان جالساً على كرسي في آخر قاعة المحاضرات، والغريب أنه لم يكن في مكتبه . اقترب هاني شيئاً فشيئاً ، والخوف

يجس نبضَه . لقد شعر في تلك اللحظة بخوف رهيب من الدكتور عبد السلام الذي يمتاز بابتسامته الصفراء القاتلة وهدوءِ أعصابه المذهِل .

وبعد أن اقترب هاني بما يكفي قال متسائلاً :

ـ أين هو طفلي ؟ ، ألم تحضره معك ؟ .

ـ لقد قلتُ إننا سنحل المشكلة ، ولم أقل سأُحضِر الطفلَ معي .

ـ وكيف سنحلها ؟ .

ـ بدايةً دعني أُطلعك على هذا الفيلم السينمائي لأحد الممثلين البارعين الحاصلين على الأوسكار .

ـ وهل هذا وقت السينما والأفلام ؟ ، أريد أن أحصل على ابني في أسرع وقت .

ـ أعدك بأن الموضوع سينتهي بعد مشاهدتك الفيلم الذي سيدوم دقائق فقط.

تأفف هاني ، وهو ينتظر أن يشاهد هذا الفيلم، لكنه لم يكن يملك غير الانتظار على أمل أن يحصل على مراده في نهاية المطاف .

وما إن رأى هاني بداية الفيلم حتى احمرت خدوده ، وانهمر عرقه بشكل غير طبيعي ، ولم يستطع البقاء واقفاً ، فقد خانته قدماه ، فجلس على أحد الكراسي ، وركَّز نظره على الأرض ، وأجهش بالبكاء بصورة مثيرة للشفقة . وفي الحقيقة لم يكن بطل الفيلم سوى هاني عندما كان في دورة المياه يُفَرِّغ طاقته الجنسية . لقد ظهرت الحقيقة سافرة وهو يمارسها ، وكأن البث حي ومباشر . كل ما حدث في تلك اللحظات البائسة مُوَثَّق بالصورة والصوت ، وتم تصويره بواسطة كاميرا خفية لا أعرف موقعها ، وهاني أيضاً لا يعرف موقعها .

أما الدكتور عبد السلام فاكتفى بالمشاهدة بأعصاب باردة ، ثم أغلق جهاز العرض ، وقال :

ـ لم أشأ أن أصدمك بهذا الفيلم يا رفيق هاني ، ولكنك أجبرتني على هذا

العمل ، وأنا أنصحك أن تنسى موضوع الطفل لأنه سيكون في أحضان أُناس يحترمون الطفولة ، ومنذ الآن اعتبر نفسك خارج حزبنا ، ولا داعي أن تقدِّم استقالتك لأنني سأعتبر أن استقالتك بين يديَّ. وأرجو الآن أن تغادر المقر لأني أُريد أن أُغلقه .

خرج هاني مطأطئ الرأس ، يجر أذيال الخيبة والهزيمة ، والدموع تشري القهوةَ في أحداقه . إنه يجر وراءه كل تواريخ الجيوش المهزومة ، وأحزانِ الجنود الذين عادوا من المعركة مهزومين فلم يجدوا غير زوجاتهم ، فضربوهن ثم جامعوهن لكي ينسوا العارَ الهابط على رتبهم العسكرية .

١٩

كانت خولة تلعب أمام بيتها مع صغار الحارة من الجنسين ، فالأمور الأمنية ممتازة ، وليست كما كانت في السابق . بدت مندمجة في اللعب إلى حد التماهي مع خيالات الضحك الخارج من نخاع العظم دون تكلف . إنها تركض في الأرجاء مع أترابها ، وبينما هي تركض انقض على قدمها وحش معدني ، ونجم عن ذلك صوتٌ عظيم . لقد انفصل جزءٌ من كيانها عنها . فقد كان ذلك الوحش لغماً أرضياً . سقطت على الأرض والبكاء يمزق خاصرةَ المكان . فهي تبكي بكاءً مراً ممزوجاً مع الألم ، حيث فقدت رجلها اليمنى بكل بساطة . وصار الأطفال يتصايحون ، وهم يحيطون بها خائفين من منظر الدم والعضو المبتور . لم يملك الأطفال في تلك الساعة الرهيبة إلا أن يهربوا إلى بيوتهم بسرعة جنونية كأن حمماً بركانية تجري وراءهم . أما الناس فتجمهروا محاولين المساعدة ، ومتسائلين عن أهل هذه الطفلة . لكن أحدهم تعرَّف على هوية الطفلة ، وحملها إلى بيتها وهو يركض ، والناس يجرون وراءه ، دون أن يخطر على باله نقلها مباشرة إلى المستشفى .

سمع زياد صوتَ الانفجار المرعِب وهو يتناول الطعام. فالصوتُ كان قريباً جداً منه ، وخُيِّل إليه أن عظامه تناثرت وانفصلت عن بعضها البعض . وأيضاً سمع أهل

الدار الصوتَ القريب . ترك زياد الطعامَ ، وخرج ليرى ما الذي حدث دون أن يغسل يديه ، وتبعته زوجته وأخته لتشاهدا ما الذي يحصل ، هل عادت الحرب أم لا ؟ ، إلا أنهما وقفتا على باب المنزل دون اقتحام الشارع . وكم كانت الصدمة مدوية حين رأى زياد خولة محمولة على الأكف ، وقادمة نحوه . هرع إليها ومنظر الدماء تزيده حرقةً وألماً ، فالطفلة بدت كالدجاجة المذبوحة التي تضيع تدريجياً ، وقال زياد مخاطباً الجمع :

_ نريد سيارة لإرسالها إلى المستشفى .

أدركت فايزة أن ابنتها قد أصابها مكروه ، فحاولت أن تركض نحوها ، إلا أن فاطمة منعتها قائلة :

_ أين ستلقين نفسك وسط كل هؤلاء الرِّجال ؟ .

وقامت فاطمة باحتضان فايزة التي بدت فاقدةً لتركيزها تماماً ، خوفاً من أن تقتحم جمهرةَ الرِّجال ، وما هي إلا أجزاء من الدقيقة حتى أُغْمِيَ على فايزة ، وسقطت على باب المنزل .

تطوَّع أحدهم بأخذها في سيارته الخاصة ، حمل زياد الطفلةَ بين ذراعيه فصارت كل ملابسه دماء ، إنها تنزف بشدة ، كأنما شرايينها تم إفراغها من محتواها بالكلية .

ركب الجميع في السيارة التي كانت تلتهم الطرقات التهاماً ، فسرعتها صارت جنوناً رسمياً مفعماً بالهستيريا ، وفي خضم هذا الطيران العنيف ، قال زياد :

_ لنأخذها إلى أحسن مستشفى في البلد .

رد صاحب السيارة بلهجة حانية :

_ ولكن المستشفيات الخاصة مُكْلِفة للغاية، وأنا أرى أن نأخذها لأي مستشفى حكومي .

_ المستشفيات الحكومية تزيد الإنسانَ مرضاً إلى مرضه .. لنأخذها إلى أكبر

مستشفى ، والله يُسَهِّل الأمور .

أدخلت فاطمةُ زوجةَ أخيها إلى البيت وهي تجرها جراً . ثم أحضرت الماء ، وقامت بسكبه على وجهها مرات عديدة حتى استعادت وعيها . وراحت تُخَفِّف عنها ، فتارة تخبرها بأن زياداً سيقوم بالواجب ، وتارة تقول إنها مسألة بسيطة لا تدعو للقلق . أما فايزة فظهرت وكأنها في حالة احتضار شاملة ، فقد ارتمت على الأرض ، وزرعت بصرَها في السقف المتآكل . أما فاطمة فقامت بنزع حجاب فايزة تماماً لكي يدخل الهواء إلى رأسها في هذه الحالة الكارثية . إنه مشهد تراجيدي لن تجده في الأفلام السينمائية ولا الروايات الموغلة في السوداوية .

أسرع زياد المصبوغ باللون الأحمر إلى داخل المستشفى حاملاً الطفلة بين يديه ، وصاحب السيارة يركض وراءه . وعند الاستقبال رفضوا السماح بدخول الطفلة النازفة قبل أخذ البيانات ، ودفع قيمة التأمين المالية . وكان الذي يلقي هذه التعليمات امرأة في أوائل الثلاثينات تضع على وجهها عدة أطنان من المكياج ، وقد بدت كالدمية في مسرح العرائس . والعجيب أن منظر الدماء لم يؤثر فيها بتاتاً ، فهي تتكلم بهدوء أعصاب مرعِب ، وتلقي الأوامر يمنة ويسرة ، والعلكة في فمها .

وهذا الهدوء الكارثي جعل زياداً يُصاب بكل أنواع الاكتئاب والألم ، فقال :

_ هذه الطفلة تموت ، وتضيع من بين أيدينا .. أرجوكم أدخلوها إلى غرفة العمليات ، وأنا مستعد لكل شيء .

ردَّت المسؤولة وهي تمط كلامَها مطاً ، وتتكسر في قولها كأنها في غرفة نومها ، وتخلط العربية والإنجليزية مع أنها لا تتقن اللغتين :

_ يا أستاذ ، هذه تعليمات الإدارة ، وأنا مجرد موظفة .

لم يملك زياد في ذلك الموقف إلا أن يُعليَ صوتَه إلى درجة ما فوق الصراخ ، وكان يهدف من وراء هذا العمل أن يجمع المسؤولين لينقذوا البنت التي تضيع بكل

بساطة. وبالفعل كان له ما أراد، واجتمع المسؤولون الذين كان موقفهم أكثر رعباً من موقف تلك الموظفة الصغيرة ، فقد قال كبيرهم :

_ يا أُستاذ ، نحن مستشفى خاص ، يعني بالعربي الفصيح مستشفى تجاري . يجب أن تدفع أولاً، ثم بعد ذلك نقوم بعلاج المريضة وفق أحدث التقنيات والأجهزة والكوادر الطبية ... ولا أحدٌ ضربك على يدك لتأتيَ إلى مستشفى خاص ، فالمستشفيات الحكومية تملأ البلد ، خذها إلى أي واحد منهم ، ولا داعي أن تنظر إلى من هم فوقك .

أحس زياد بلطمة قاسية استوطنت خدَّه، وشعر أن أحداً رشقه بماء بارد بشكل مفاجئ . في تلك اللحظة فقط عرف ما هو الفرق الحقيقي بين الفقير والغني . لم يدخل زياد في جدال طويل ، فحمل البنت إلى السيارة ، وصاحبها يجري وراءه كالعادة ، وانطلقا إلى أقرب مستشفى حكومي .

ظهرت الشوارع كأنها كهوف خفافيش . لأول مرة يشعر زياد بظلمة هذه الشوارع التي طالما مشى فيها . شيء غريب كان يغلي في صدره ، ويحيل أحاسيسه إلى بركان مكبوت ، واستمر يحادث نفسه طوال مدة الطريق ، وهو يحضن الطفلة بكلتا يديه لأنه لا يريد أن تنزل أية قطرة دم.وكان يقول في نفسه في تلك اللحظات الرهيبة :

_ لقد أصبحت دولتنا إقطاعيةً ، مَن يملك المال يستحق الحياة ، ومن لا يملك فليذهب إلى ألف داهية .

دخلوا المستشفى الحكومي ، واستغاثوا بالأطباء والممرِّضين لتقديم المساعدة اللازمة . قامت إحدى الممرضات بتعقيم الجروح ، ولف الضمادات اللازمة في إحدى الغرف ، فقال لها زياد بحسن نية :

_ سوف يقوم بالأطباء بهذا العمل حينما تَدخل غرفة العمليات الآن ! .

كادت الممرضة تنفجر من الضحك، إلا أنها أمسكت نفسها في اللحظة

الأخيرة لأن الوضع لا يحتمل الضحك ، وقالت :

_ هذه الطفلة لن تدخل غرفة العمليات قبل أسبوع على الأقل ، فكل غرف العمليات محجوزة .

قال زياد وقد انهار فعلياً :

_ أرجوك يا أُختي افعلي أي شيء ، أنا مستعد لبيع ملابسي ، مستعد أن أرهن نفسي .. واللهِ العظيم سأحضر لكم المال الذي تريدونه ولكن أدخلوها غرفة العمليات فكفاها عذاباً .

_ صدقني يا أستاذ أنا أُقدِّر مشاعرك ، ولكن الأمر أكبر مني ومنك ، وغرف العمليات محجوزة لحالات أكثر خطورة من هذه الحالة ، ولكني أعدك أن ندخلها في أسرع وقت .

أيقن زياد في قرارة نفسه أن البنت ستموت لا محالة ، إلا أنه في اللحظة الأخيرة استشعر عظمة الله ، فتوجَّه إليه بالدعاء سراً راجياً منه أن ينقذ هذه البريئة من هذا الكابوس .

وترك الطفلةَ مع الممرضة ، وذهب لتعبئة كافة البيانات، والتوقيع على الأوراق اللازمة . ودفع كل ما في جيبه ، وأيضاً صاحب السيارة دفع كل ما في جيبه من أجل الضمان المالي المبدئي .

وعاد الاثنان كالمقاتلين العائدين من المعركة مهزومين ، يعودون إلى اللاشيء ، إلى حيث لا مكان ولا زمان . شكر زياد صاحبَ السيارة ، ووعده بأن يعيد له ماله في أسرع وقت ، لكن صاحب السيارة أخبره بأن المبلغ هدية من أخ لأخيه ، ورغم هذا ظل زياد مصراً على إرجاع المبلغ في أقرب فرصة .

دخل زياد بيته بثيابه الحمراء التي تشبه ثياب المحكومين بالإعدام . إن منظره حزين كحزن الشمس لحظة الغروب الساقط في البحر. أسرع إليه أهل الدار كلهم مرة واحدة ، وكلهم يسألونه في نفس الوقت عن مصير الصغيرة . وتداخل الكلام

فلم يفهم شيئاً مما يُقال .

حاول زياد تهدئة الجميع ، فقال :

_ يا جماعة، الطفلة بخير، لقد تعرضت لحادث بسيط، وهي الآن تتلقى العلاج، وسنزورها في الأيام المقبلة .

قالت فايزة وقد صار وجهها مزرعةً للألوان المتضارِبة ، والهواجسِ القلقة :

_ ولماذا لا نزورها الآن ؟ .

_ إنها تتلقى العلاج في هذا الوقت ، وسوف يستمر علاجها بضعة أيام ، ولا نريد تعطيل الأطباء ، وزيارتنا لن تأتيَ بنتيجة لأننا لن نتمكن من رؤيتها ، وصَدِّقوني لا يوجد أي مبرر للقلق، فخولة جزء مني، وأنا الأب الروحي لها ، ولن أَرميَها بأي حال من الأحوال ، وأُديرَ ظهري لها . ورغم كل هذا فسأذهب كل يوم إلى المستشفى لأتأكد من حالتها .

ونظر إلى زوجته فايزة قائلاً :

_ أعرف يا فايزة أن مشاعرك كأم تسيطر على حواسك، ولكن عليك أن تثقي بي يا فايزة ، سوف أظل معها ، وعندما يحين الوقت المناسب لزيارتك لها فسوف آخذك معي ، وآخذ كل الأسرة .

كان العجوز خضر الزاوي يستمع إلى كلام ابنه مثل التلميذ الذي يستمع لكلام الأستاذ . لقد وقع العجوز تحت سطوة شيخوخة الصمت ، فلم يظهر قادراً على المناقشة ، كما أنه لم يظهر قادراً على مواصلة الوقوف ، فقرر الجلوس على الفِرَاش الأرضي ، وأخرج مسبحته من جيبه ، وصار يذكر الله بصوت ممتزج بالهمس ، وعيناه تدوران في أرجاء المكان .

وفي زحمة القلق وفوضى الألم والحزن الأخرس لم يطلب أي شخص من زياد أن يذهب ليغتسل أو يُغَيِّر ملابسه ، فاتخذ هذه الخطوة بنفسه ، وانسحب من المكان . وفي الحمَّام غيَّر ملابسه ، واغتسل على وجه السرعة .

وبعد خروجه صلى ركعتين، ثم استقر على سجادة الصلاة ليقرأ وِرْده القرآني. وقامت المرأتان بقراءة القرآن في غرفة فاطمة دون أن يَطلب منهما أحدٌ فعل ذلك . فهناك قناعة في هذا البيت بأن المصائب التي تنزل عليهم واحدةً تلو الأخرى لن يرفعها إلا اللهُ ، ولن ينقذهم سوى اللجوء إليه . هذه هي القاعدة التي يسير عليها الجميع في هذا المنزل .

وفي المساء سلَّم زياد نفسه لأحلام اليقظة . لقد تكوَّر حول فكرة محددة تدور في رأسه كالفراشة التي تحمل على جناحيها أباريق الماء المكسورة . وقد عزم أن يُنَفِّذها في الصباح بأسرع وقت ممكن .

أخذ زياد مجموعة ضخمة من الأوراق ووضعها في كيس . إن تلك الأوراق عبارة عن كتابه " الرد على أرسطو " . ولكن أين سيأخذ هذا الكتاب في هذا الوقت الصعب ؟ .

ذهب إلى الجامعة ، إلى مكتب الدكتور وائل عمَّاش . كان يعرف هدفه بعناية فائقة فلم يُعَرِّج على أي مكان آخر ، ويعرف كذلك مواعيد تواجد الدكتور في مكتبه . دخل عليه وهو يحمل ذلك الكيس ، وما إن رآه الدكتورُ حتى أحس بأنه يرى وحشاً منقرِضاً منذ ملايين السنين قد عاد للتو .

قال الدكتور وهو يسحب الكلمات سحباً بطيئاً ليلعب بأعصاب زياد أطول وقت ممكن :

_ لا ترجوني يا أستاذ زياد لكي أُعيدك إلى الجامعة ، لقد قلتُ كلمتي والرَّجل لا يعود في كلمته ، حتى لو قَبَّلْتَ حذائي ، واعتذرتَ لي .

ضحك زياد ضحكة خفيفة استخفافاً بهذا الكلام ، وقال :

_ دَعْكَ يا دكتور من موضوع الأحذية لأنه ليس من مستوانا العلمي ، وأنا لم أُخْطِئ لكي أعتذر ... ودعني أكن صريحاً معك ، فأنا أريد أن أعرض عليك كتاباً قمتُ بتأليفه ، وبصراحة أكثر أنا أعرف أنك مفكِّر وروائي ومرشَّح لجائزة نوبل في

الآداب ، وأنا أمر في ضائقة مالية خانقة وظروف عائلية صعبة، وإذا أردتَ شراء هذا الكتاب ، فسوف أتنازل لك عنه بكل هدوء وسرية .

تفاجأ الدكتور بهذا الكلام العجيب ، وأطرق برهة قبل أن يقول :

ـ أرني الكتاب .

أذهله العنوان " الرد على أرسطو " ، وشده إلى تصفحه . أظن أنه قرأ أول خمس عشرة صفحة ، فأُعْجِب جداً بهذا الأسلوب الجذاب ، والأفكار الجديدة ، وقال متحمساً لفكرة لشراء الكتاب :

ـ اسمع يا زياد ، صحيحٌ أنني أكرهك وأحتقرك ، ولكني مذ رأيتُك أيقنتُ أنك غير عادي ... وأود أن أقول إنك محظوظ ، فاسمك بعد يومين سَيُعَمَّم على كل جامعات البلاد ، فلا تستطيع دخول أية واحدة .

وأردف قائلاً :

ـ على أية حال لنعد إلى موضوعنا ، سأدفع لك خمسة آلاف دولار بشرط أن تكتب ورقةً بخط يدك تُثْبِت أنني أنا مؤلف الكتاب ، وأن لا علاقة لك به من قريب أو بعيد .

راح يكتب تلك الورقة وفوق كتفيه كل ذكريات دماء ابنة أخيه، وحاجتها إلى عملية جراحية قد تكون مُكْلفة ، وأجرة البيت التي لم يدفعوها منذ وقت بعيد ، وملابس أخته التي تلبسها ليل نهار ، ولا تجرؤ على التفكير في شراء فستان جديد مثل كل الفتيات ، وزوجته التي تكتم حزنَها في قلبها ، وتُخَزِّن بؤسَها في عيونها ، ووالده الذي يطمح أن يذهب إلى الحج لكنه لا يملك مالاً .

أنهى كتابة الورقة محتوية على كل ما يريده الدكتور ، ووقَّع في أسفل الصفحة ، وما إن رفع رأسَه حتى هبطت دمعةٌ مِلحية على حِبر إحدى الكلمات . مسحها بطرف كُمِّه ، ثم أعطى الورقة للدكتور الذي قرأها بعناية فائقة متأكداً من دلالة كل كلمة خوفاً من حدوث مشاكل مستقبلية .

فتح الدكتور درج مكتبه، وأخرج خمسة آلاف دولار كانت جاهزة دون عَد، وأعطاها لزياد . لأول مرة يدرك زياد أن اللون الأخضر في هذه الأوراق له لمعة خاصة خادشة كأنها دبابيس في قميص الريح . في تلك اللحظة شعر أن بينه وبين اللون الأخضر عداوة غير منطقية ، وعلى الرغم من أنه حاول طرد هذا الهاجس ، إلا أن اللون الأخضر ظل يطارده ، وشكَّل عقدةً في منشار أحزانه التي لا تكاد تنتهي حتى تبدأ .

وعندما خرج من بوابة الجامعة أيقن أنه لن يعود إلى هذا المكان مرة أخرى ، وأن جامعات وطنه صارت حراماً عليه. لقد صارت مُخَصَّصة لبشر آخرين يحملون لون جِلده ، ولكنهم مستعدون لتغيير جِلدهم إذا تغيرت بوصلة الشمس المزوَّرة .

لأول مرة يحمل مبلغاً كبيراً في جيبه حسب مقياسه الشخصي . وكلما مشى في الشوارع الموبوءة تحسَّس جيبه ليطمئن على وجود المال . عرَّج على محل الصرافة ، وقام بتحويل المبلغ إلى العملة المحلية . وقبل أن يعود إلى بيته اشترى بعض الفواكه والخضراوات ، فلا بد أن هذا الأمر سيفرحهم ، ويخفف عنهم .

وبعد مضي عشرة أيام تقريباً عادت خولة إلى بيتها برفقة أهلها الذين أحضروها من المستشفى . ولكنها لم تعد مثل باقي أطفال الحي ، فإحدى رجليها صناعية. كانت تمشي بصعوبة بالغة، وقد أدركت منذ اللحظات الأولى لدخول هذا الجسم الغريب إلى جسدها بلا استئذان ليصبح عضواً شقيقاً لباقي الأعضاء رغم الاختلافات أن حياتها اتخذت مساراً جديداً بالكلية . والعجيب أن الطفلة لم تكن تبكي ، بل أمها التي كانت تبكي طول الطريق بصوت هامس ، رغم أنها تُقاتِل نفسها لوأد البكاء .

دخلت الصغيرة المنزل برجلها اليمنى الصناعية . صارت عرجاء تخطو على البلاط المشقَّق ، وثقل جسدها لا يتوزع بالتساوي على القدمين . تفاجأت الصغيرة بالزينة التي تملأ المكان ، فقالت ببساطة الطفولة وعفوية المشهد موجهة كلامها

إلى فاطمة :

_ هل ستتزوجين يا عمتي ؟ .

ضحكت فاطمة ، بينما تكفل العجوز خضر الزاوي بالقول :

_ لقد قامت عمتك بتزيين المكان فرحاً بقدومك .

وأخرج زياد قالباً من الحلوى موضوعاً في علبة كرتونية ، وعبوة بلاستيكية كبيرة من العصير ، وقال :

_ خذي هذه الأشياء يا فايزة ، وقومي أنتِ وفاطمة بتجهيز الحفلة المخصصة لخولة التي نحبها كلنا .

كان الجميع يريد إضفاء جو من البهجة على نفسية خولة الطالعة من تجربة قاسية للغاية سترافقها رغماً عنها طوال حياتها . ولم يريدوا أن يُشْعِروها بأنها صارت عبئاً عليهم ، أو أنها صارت فتاة ذات إعاقة وتستحق الشفقة والإحسان من الآخرين .

وفي المطبخ ، حيث يتم تجهيز الحلوى والعصير ، انفجرت فايزة باكيةً، وصارت تنتحب بصورة عنيفة للغاية . حاولت فاطمة تهدئتها والتخفيف عنها قائلةً :

_ اصبري يا فايزة ، أنتِ امرأة مؤمنة ، والبنت إذا رأتكِ في هذه الحالة فلا بد أن تسوء حالتها ، وتنهار نفسياً .

بدأت فايزة تكافح دموعها بشتى الوسائل ، ثم قالت وقد هدأت قليلاً :

_ سوف تظل معاقة مدى الحياة ، والناس ينظرون إليها على أنها نصف إنسان، أو إنسان من الدرجة الثانية .

_ لا درجة ثانية ولا درجة عاشرة ، غداً تصبح من أحسن الناس، فدعكِ من الدموع، وقومي بتشجيعها ، ولا تشعريها بأنها ناقصة أو مريضة.

وتمت الحفلة على أحسن ما يرام كما لو كانت حفلة عيد ميلاد ، وهي بالفعل كانت ميلاداً جديداً لهذه البنت التي لا تملك إلا أن تقف على رجليها. إن

صمودها في هذا الوقت العصيب يُحَيِّرني ، فهي لم تذرف أي دمعة منذ أدخلوا تلك الرِّجْلَ الصناعية في جسدها الغض .

أما فاطمة فقد كانت في مزاج رائق بسبب استلامها رسالة من خطيبها أنس الذي وكَّل والده بإتمام كافة إجراءات الزواج ، ومن ثم سفرها إلى خطيبها . وقد حثَّها على مراسلته من خلال الإنترنت بعد أن وضع عنوان بريده الإلكتروني ، فالرسائل الورقية بطيئة جداً إذا ما قيست بالإنترنت.هذا ما قاله في رسالته الأخيرة. وقد انتظرت فاطمة الوقت المناسب لتخبر أهلها بالموضوع حتى يتم على أحسن حال .

٢٠

في ظهيرة أحد الأيام كان زياد نائماً بعد أن أنهكه التعب. إنه يتشرب النوم مثل الإسفنج . لم يكن منامه سوى ظل نوارس قديمة تكتب اعترافات البحر على ورق البردي . تشظى منامه كما لو كان برميل نفط تتخبط فيه دلافين لا تاريخ لها سوى جثث مجهولة الهوية منسية تحت المطر .

لقد رأى في منامه سوزان اللويمي في البكيني تُدَخِّن الماريجوانا قرب بركة السباحة في أحد فنادق الخمس نجوم . لقد رأى المشهد كأنه بث حي ومباشر ، مترافِقاً مع نداء عميق وخفي قادماً من كل الجهات : ((لقد أَنْقَذَتْكَ هذه المرأة ، فاذهب وانقذها فوراً)) .

هبَّ من نومه مذعوراً ، وهو يتلفَّت حوله . ارتدى ثيابه بأسرع كبيرة ، وخرج من بيته دون أن يخبر أحداً عن وجهته . استقل سيارة تاكسي وطلب من السائق أن يوصله للفندق الذي رآه بالمنام .

كان زياد يعرف تلك الشابة ، فهي رئيسة مجلس الطلبة السابق الذي كان عضواً فيه رغم كل التزوير ومحاولات إقصائه . ويعرف كذلك أن والدها هو مدير المخابرات . شعر أن عليه إنقاذها . شيء يناديه من أقاصي أعماقه وأقاصي منامه

يطلب منه ذلك بإلحاح ، لكنه لم يجد تفسيراً لعبارة " لقد أَنْقَذَتْكَ هذه المرأة " .

هل يمكن أن يكون ما رآه أضغاث أحلام ؟ . لقد فكَّر زياد بهذا الخاطر، ولكن سرعان ما طرده، لأنه كان يُلَبِّي نداء غريزياً في نخاع عظمه لم يجد تفسيراً منطقياً له.

دخل زياد إلى المسبح بعد أن دفع مبلغاً من المال . لقد أصبح الآن في فوهة اللهب المائي . حوله العراةُ من كل الأديان والأجناس . والكل ينظر إليه باستغراب بالغ لأنه لم يكن بملابس السباحة . إنه الوحيد الذي يرتدي ثياباً رسمية في هذا المكان. توجَّه إلى المكان الذي رآه في المنام ، فوجد سوزان جالسةً وهي شبه عارية لا يغطي جسدها سوى قطعتين ، وحولها أصدقاؤها وصديقاتها ، وقد كانت تُدَخِّن الماريجوانا . وما إن رأت زياد حتى ارتبكت ، ورمت المخدِّر في البركة بصورة ميكانيكية شبه تلقائية . بدا المشهد محتوياً على تلميذة خائفة من أستاذها المهيب . هذه هي خلاصة اللقاء العاصف الذي لم تتوقعه .

اقترب زياد منها ، وقال :

_ آنسة سوزان ، ارتدي ملابسك رجاءً ، لكي نخرج من هذا المكان الذي لا يناسبك .

وقفت سوزان منصاعة للأوامر بشكل غريب . فمن هذا الشخص الذي يلقي عليها الأوامر على الملأ وتستجيب له كأنها تخاف من العقاب ؟ . هذه اللبؤة الجامحة هل جرى ترويضها ببضع كلمات ؟ بهذه السهولة ؟ .

قال أصدقاؤها وقد انبهروا بأناقة هذا الشاب المنتصِب بكل ثقة وجدية :

_ من هذا الشاب يا سوزي ؟ .

لم تعرف سوزان ماذا تجيب في تلك اللحظات الحرجة ، لكن ذهنها أسعفها بكلام وهمي ، فقالت :

_ إنه ابن عمي ، ونحن في حكم المخطوبَيْن .

ومضت سوزان لتغيِّر ملابسها ، وظل زياد ينتظرها في الخارج . وبعد أن ذهبا قالت إحدى صديقاتها بحسد ممزوج بالطيبة :

ـ إن سوزان لا تقع إلا واقفة ، وهي تعرف كيف تصطاد الرَّجل المناسب في الوقت المناسب .

خرج الاثنان من الفندق ، وقد لاحظ زياد أن سوزان في حالة غير طبيعية ، فتيقَّن من أنها كانت تتعاطى المخدرات ، خصوصاً بعد أن لاحظ ما رمته في البركة ، وأيضاً الآثار الظاهرة على وجهها وطريقة كلامها تدل على أنها كانت تتعاطى. وقد سبق لزياد أن أنقذ أحد أصدقائه من الإدمان ، فهو يعرف أعراض التعاطي بشكل مُجْمَل .

كان سائقها الخاص ينتظرها في سيارة المرسيدس ، وقد كان يمسك زجاجة ويسكي أحضرها من الفندق مجاناً بعد أن أخبرهم بأنه يعمل عند مدير المخابرات ، وأراهم هويته . إنه في حالة يُرْثَى لها ، فالسُّكْر أذهب عقله ، وجعله غير شاعر بما حوله .

ولما رأى زياد المشهد أنزله من السيارة ، وقال لسوزان :

ـ هل تريدين هذا السكير أن يوصلك إلى البيت ، إنه سيوصلك إلى الموت .

سائق دودي وديانا

أخذ السائق يترنح في الطريق ، وهو يشتم زياداً وسوزان معاً ، وعلى الرغم من محاولته التهجم على زياد إلا أن زياداً رد الاعتداء ، ووكَّل به أحد موظفي الاستقبال في الفندق لإيقاظه،بعد أن ناوله زياد خمسة دولارات بدل التعب في إيقاظ هذا السكير .

قاد زياد السيارة بنفسه وإلى جانبه سوزان التي خُيِّل إليها أنها في يوم زفافها ، أو أنها في حلم غريب يمر حاملاً على ظهره كل التناقضات . وبالطبع فهي غير مصدقة ما يحدث. تجري الأحداث بسرعة أكبر من قدرتها على التقاط موقف

محدد، وبعد أن تنفست بعمق قالت :

_ من أنتَ حتى تفعل هذا ؟! ، من تظن نفسك ؟ ، لستَ زوجي ولا أبي .

_ أنا أقرب إليك من زوجك وأبيك .

وقعت صدمة الجواب على عيونها كصخرة سفلية ظهرت على السطح بفعل زلزال قديم مر على هذه الأرض . ذُهِلت من ثقل الجواب الذي خلع قلبها من بين ضلوعها ، وقد أحس زياد بأنه تسرع جداً في جوابه ، وارتكب إثماً قد يُكَلِّفه غالياً، فهو لم يفكر في تلك العبارة التي جاءت كرد فعل عاجل بلا تخطيط مسبق ، ولقد ندم على تلك العبارة أشد الندم ، واستغفر ربه في قرارة نفسه لأنه اعتقد أنه تجاوز حدوده بصورة كارثية. أما سوزان فظلت تردد هذه العبارة في نفسها كأنها تريد أن تمتصها حتى الرمق الأخير . تلك العبارة كانت أكبر مداعبة لأنوثتها منذ وُلِدَت . لقد فتحت أمامها نافذةً من حضور الذاكرة في ظل هذا الهوس الذي تحياه كالموتى .

وتابع زياد كلامه قائلاً :

_ آنسة سوزان هل أنتِ مدمنة على المخدَّرات ؟ ، أرجوك لا تكذبي عليَّ .

كانت إجابة سوزان ستأخذ طابع الكذب ، إلا أنها تراجعت في اللحظات الأخيرة ، وقالت بكل صدق :

_ لستُ مدمنةً ، فأنا مسيطرة على نفسي ، ولا أتعاطى غير الماريجوانا بصورة مخفَّفة ، لأنها ببساطة المتوفرة بين يديَّ ، وأبي هو الذي يحتكرها في هذه البلاد ، ورغم أنها ممنوعة ويُعاقِب عليها القانون ، إلا أن أبي فوق القانون يلعب به كيفما يشاء ، ويصوغه بشكل يضمن مصالحه الشخصية هو وشركاؤه الحيتان من كبار رجال الدولة . وقد نصحتُه كثيراً ، ولكن هذه التجارة صارت تمشي في دمه .

قال زياد بصوت دافئ كأنه يخاطب ذاته الأخرى :

_ بالله عليك يا سوزان أن تبتعدي عن الماريجوانا ، وكل أنواع المخدَّرات من

الآن فصاعداً .

هزَّت رأسها كناية عن موافقتها على هذا الكلام دون أن تنبس ببنت شفة .

تذكرت سوزان ذلك القرب من الله عندما صلَّت الفجر في تلك الليلة العجيبة التي رأت فيها زياداً في المنام . ارتبطت في ذهنها علاقة ما بين صلاة الفجر وزياد ، مع أنها لم تقدر على اكتشاف تلك العلاقة . وفي خضم هذه الانبعاثات الضوئية في ذهنها قالت بصورة صاعقة ومباغِتة :

_ أستاذ زياد ، أنا أعرف أنك من الإخوان المسلمين ولديك علم بالأمور الشرعية ، وأعرف أنك الذي تقود المظاهرات في الجامعة ، وتلقي الخطابات النارية بكل فصاحة . فهل تستطيع أن تُدَرِّسنا أمور الدِّين أنا وقريباتي في منزلنا ؟ ، فنحن مُسْلِمات بالاسم فقط .

تفاجأ زياد بهذا السؤال المباغِت ، واستمر في قيادة السيارة بدون أن يتكلم ، وبعد ثلاث دقائق من الصمت قال :

_ أنا مستعد لذلك ، اكتبي لي رقم هاتفك ، وسأتصل بك لنحدد المواعيد بالضبط .

كانت الدقائق الثلاث ملأى بالمخزون الذهني في عقل زياد ، فقد أيقن أن هؤلاء الفتيات بحاجة إلى مساعدة لأنهن ضائعات في محيط من الذئاب البشرية ، وعليه أن يمد لهن يد العون . استقر في رأسه هذه المعاني فقرر أن يساعدهن بلا تأخير .

٢١

كان القس دانيال أنهانيوس يشرب الشاي مع الراهبة تيريز المصابة بالقرف من نكاته التي يلقيها ليبعث جواً من البهجة . وفي خضم الملل المتشظي في الأرجاء قالت تيريز :

_ رجاءً يا حضرة القس، ادخل في الموضوع مباشرة ، ودعكَ من هذه النكات

المملة .

احمر وجه القس بعدما سمع هذا الكلام ، وقال :

ـ بصراحة يا أخت تيريز ، إن الإقبال على الكنيسة ضعيف للغاية ، وقد جاءتني فكرة عبقرية أطلعتُ عليها وزير السياحة في حكومتنا وأُعجب به جداً ، وقام بعرضها على رئيس الدولة ورئيس الحكومة ووافقا على تنفيذ خطتي العبقرية من أجل تنشيط الحركة في هذه المنطقة ، وكل محافظات البلاد قاطبة .

جحظت عينا تيريز شوقاً لهذه الفكرة ، وقالت ولعابُ فضولها يسيل في طرقات دماغها :

ـ وما هي هذه الفكرة يا حضرة القس ؟ .

ـ أنا وأنتِ سنقيم مؤتمراً صحفياً في مكتبة الكنيسة ، ونعلن أننا رأينا السيدة مريم متجسدة أمامنا في كنيستنا ، وصارت تحادثنا ثم اختفت فجأة . وهذا الحدث سوف تنقله كل وكالات الأنباء، وسوف يأتي إلينا كل الناس من شتى بقاع العالَم .

ابتسمت تيريز لأول مرة منذ مدة طويلة ، وتهلَّلت أساريرها فرحاً بهذه الخطة ، وقالت :

ـ ولماذا لا نقول إننا رأينا السيد المسيح ؟ .

ـ إن غالبية مرتادي الكنيسة من النساء لأنهن يملكن نزعة عاطفية ، والسيدة مريم امرأة ، وهذا سيزيد الإقبال علينا أكثر وأكثر... وتذكَّري يا تيريز أننا سنجمع أموالاً طائلة من وراء هذا المشروع عدا عن المكافأة المالية الضخمة التي وعدني بها وزير السياحة ، وسنصبح مشهورين على صعيد العالَم .

ـ اعتبرني رأيتُ السيدة مريم بأم عينيَّ ، ولكنْ متى سنبدأ تنفيذ المشروع ؟ .

ـ في أقرب وقت ، لكنني بحاجة إلى ترتيب هذه المسرحية من كل الجوانب .

وغرق الاثنان في ضحكة مدوية . وبينما كان الضحك يمزق جدرانَ المكان ، ظهرت راحيل حاملةً أدوات التنظيف ، وبدأت تمسح الأرض . انتبه القس إليها ،

وهاله جمالُها ، فقال :

_ من أين أتت هذه الراهبة ؟ ، إنني لم أرها قبل هذا اليوم .

_ إنها ليست راهبة . إنها مجرد فتاة يهودية تافهة لا قيمة لها رماها أهلها عندنا ورحلوا . وهي تعمل خادمة في الدَّير مقابل الطعام الذي نطعمها إياه .

_ انتبهي يا أخت تيريز إلى هذه اليهودية المتعفنة ، فاليهود قوم غدر ومكر ، لقد صلبوا ربَّنا المسيح ، وسخروا منه ، وبصقوا عليه ، واتهموا السيدة مريم بالزنا. لذا عليك أن تسحقيها تحت قدميك ، وتذليها ، وتبصقي عليها ، انتقاماً من اليهود الذين دمَّروا حياتنا .

_ لا تقلق ، فهؤلاء اليهود سيظلون خدماً لنا لِيُكَفِّروا عن خطاياهم بحقنا .

لم تستمع راحيل إلى هذا الحوار ، واستمرت في مسح الأرض بكل جدية . في تلك اللحظة الهاربة من صراع الزمان مع المكان ،كانت تلك البنت التي تمسح الأرضية القذرة التي يبدو أنها لم تُمْسَحْ منذ ملايين السنين متصالحة مع نفسها ظاهرياً . فمن فرط ما مر بها من صدمات لم تعد تشعر بمعنى الصدمة ، ومن كثرة جروحها لم تعد قادرة على العيش إلا ضمن دائرة الجروح والنزيف العنيف . كأنها قد اقتنعت بأن وظيفتها في هذه الحياة هو أن تظل خاضعة للآخرين ، تخدمهم رغماً عنها بكل مهانة وازدراء بسبب فقدانها للبصر . لقد وصلت إلى مرحلة نسيان كيفية البكاء ، فقد بكت طويلاً في حياتها ، ولكن الأمور ازدادت سوءاً ، فربما لو جرَّبت الضحك والابتسام لتغيَّرت حياتها ، من يدري ؟! .

في المساء ،كان الجميع يتحلَّقون حول مائدة الطعام ، أما راحيل فظلَّت في المطبخ تنتظر انتهاء الراهبات من الأكل ، لتتناول عشاءها مما تبقى من الطعام . وبينما الجميع يلتهم الطعام ، قالت جودي :

_ أين راحيل ؟ ، لماذا لا تأكل معنا ؟ .

نظرت تيريز إلى جودي شزراً ، وقالت :

ـ الخادمة لا تجلس مع سيدتها على نفس المائدة .

ـ وهل نحن في عصر الإقطاعيات وماري أنطوانيت وقياصرة روسيا ؟ .

ـ نحن في عصر تيريز ، أنا إمبراطورة الدَّير ، وإذا كان للفاتيكان بابا ، فأنا ماما الفاتيكان ، وما أقوله سيمشي على الصغير والكبير ، والتي ترفض هذا الكلام فلتبحث لها عن مكان آخر .

كانت الراهبات ينظرن إلى بعضهن البعض نظرات غامضة مخلوطة بمشاعر شتى. لكنهن ظللن جالسات على مقاعدهن ، ولم تجرؤ أية واحدة على المغادرة . وبعد أن رأت جودي هذا المشهد هبَّت واقفةً ، وقالت :

ـ أما أنا فسأذهب إلى المطبخ ، وأتناول الطعام مع راحيل .

وبالفعل ذهبت إلى المطبخ بينما انتشر الهدوء على وجوه الراهبات اللواتي كنَّ يتناولن الطعام كأن شيئاً لم يحدث .

كانت راحيل تجلس في المطبخ على كرسي خشبي متهالك واضعةً رِجلاً فوق أخرى ، والإضاءة الخافتة تزيد المكان غموضاً سينمائياً عميقاً . وطريقة جلوسها تعطي انطباعاً بأنها من سيدات المجتمع المخملي. ولما وقعت عينا جودي على راحيل أحسَّت بدفء غريب، وخُيِّل إليها أن تلك الأنثى الجالسة على الكرسي ملكة قديمة مرت على هذه الأرض في عصور أقل وحشية .

قالت جودي :

ـ لقد جئتُ إليك يا راحيل لنجلس معاً ، ونتناول الطعام .

ـ وهل انتهين من تناول الطعام ؟ .

ـ أنا وأنتِ سوف نعد طعاماً الآن ، ولن ننتظر تناول بقايا الطعام مثل الجرذان الذليلة .

وبعد أن صنعتا الطعام ، ذهبتا إلى غرفة جودي على مرأى من كل الراهبات وخصوصاً تيريز التي قالت بصوت عالٍ وأسمعت الجميع عن قصد :

_ انظرن إلى جودي التي علَّمت هذه الخادمةَ العمياء كيف تتجرأ على سيداتها. كل من هبَّ ودبَّ صار يتحدانا ! .

همست جودي في أذن راحيل قائلة :

_ هذه العجوز تغار منك لأنك أجمل منها مليون مرة ، فاعتبري أنك لم تسمعي شيئاً .

جلست المرأتان على السرير ، وصارتا تتناولان الطعام ، وفي أثناء ذلك قالت جودي :

_ ما الذي جاء بك إلى هذا الدَّير ؟ .

_ لقد هاجرت أسرتي ، ولم تشأ أن تأخذ بنتاً عمياء معها خوفاً من أن أكون عبئاً ثقيلاً لا تقدر على تحمله .

تفاجأت جودي بهذا الكلام ، وقالت وعلامات الاستغراب تنحت خدودَها :

_ لا أُصدِّق وجود أهل يرمون ابنتهم بهذه الطريقة المتوحشة .

_ لن أكون أول بنت في هذا العالَم يرميها أهلها ولن أكون الأخيرة ، فنحن ندفع ثمن أخطاء آبائنا .

_ ولكني لا أراك حزينةً أو متضايقة .

_ وماذا سيفيدني الحزن ؟ . لقد بكيتُ أكثر مما ينبغي ، ولم يتغير شيء. ولم أعد مستعدة لأن أندب حظي أو أبكيَ بسبب انعدام بصري ، ففي آخر المطاف كل البشر عميان .

استغربت جودي من هذه الفلسفة ، وأرادت أن تُغَيِّر الموضوع فقالت :

_ راحيل ، أنت شابة مفعمة بالأنوثة ، ألم تحبي رَجُلاً ما في حياتك ؟ .

_ بصراحة ، لقد أحببتُ شاباً مُسْلِماً من جماعة الإخوان المسلمين كان جاراً لنا مع أنني لا أستطيع رؤيته ، ولكني كنتُ أستشعر صوته الطاهر والدافئ ، فقد ساعدني في أحيان كثيرة ، ولم يحاول استغلال ضعفي لكي يفترسني أو يلعب بي .

وأظن أنه أحبني بكل شرف ، ولكن للأسف ذهب كلٌّ منا إلى طريقه ، وتزوج امرأة أخرى .

كانت جودي تتابع هذا الكلام بدقة بالغة ، واستوقفتها عبارة " جماعة الإخوان المسلمين " ، وتذكرت على الفور ذلك الكتاب الذي وجدته على الشاطئ في الماضي ، فقالت والفضول يأسر جوارحها :

_ أنا آسفة يا راحيل ، ولكن هل يمكن أن تقولي اسم ذلك الرَّجل ؟ .

_ اسمه " زياد خضر " .

وما إن سمعت جودي الاسم حتى تجمَّدت مكانها كأنها صُعِقَت كهربائياً فلم تنبس ببنت شفة ، وظلت واجمةً ، وصارت القشعريرة تحفر في مناجم جسدها . وعم الصمتُ العنيف أرجاء هذا المكان الحزين .

فكَّرت راحيل أن جودي قد تركتها وخرجت من الغرفة ، لكنها وأدت هذا الخاطرَ بعد أن تحسَّست جسمَ جودي بيديها ، وقالت :

_ ماذا حصل يا أُخت جودي ؟ .

استعادت جودي قدرتها على الكلام ، وقالت بنبرة كسيرة :

_ لا شيء ، ولكني مرهقة بعض الشيء ، وأحتاج إلى النوم .

حملت راحيل الطعام ، ومضت به إلى المطبخ ، وقبل أن تخرج من الغرفة قالت لها جودي :

_ أنا آسفة يا راحيل ، فأنا غير قادرة على مساعدتك في حمل الطعام .

_ لا بأس ، المهم أن ترتاحي وتنامي جيداً .

ذهبت جودي إلى سريرها كالجثة المهرولة في مدارات نواةٍ تتحطم . لم تذهب لتنظيف أسنانها بالفرشاة والمعجون كالعادة ، فهي غير قادرة بالفعل على الوقوف على رجليها .

كان ترددُ ذلك الاسم كفيلاً بقلب كيانها . إنها تعيش مع أشباح ذلك الاسم ،

وكلما خدعت نفسها بأنها نسيت حروف اسم ذلك الرَّجل ظهر لها من جديد من حيث لا تتوقع. تدثرت باللحاف لتطفأ هذه القشعريرة العنيدة ، كأن جسدها يخسر ملايين السعرات الحرارية ، يخسر كرياتِ الدم ، يخسر ذاته مجاناً. استسلمت للبكاء العنيف ، واختبأت كالسلحفاة داخل بيتها الصلب الحارق .

٢٢

كان هاني يمشي في الأزقة القذرة التي تفصل بين مستودعات الميناء كأنه يبحث عن شيء محدد . وفي خضم المشي المرعِب الذي أرهقه شعر باليأس من مهمته التي جاء من أجلها ، وأيقن أن الذي يبحث عنه غير موجود في هذه الأرجاء . وخضوعاً ليأسه جلس في إحدى الزوايا البائسة وهو يندب حظه العاثر . طأطأ رأسه ، وركَّز نظره في زاوية ما حيث كانت الفئران تتقاسم إحدى قطع الجبن. وبينما هو مشغول بمتابعة قسمة الغنيمة شعر بوقع أقدام تقترب منه شيئاً فشيئاً . التفت هاني فإذا بالرَّجل المطلوب يأتي على رجليه ، وبعد أن وصل إلى مكان جلوس هاني قال :

ـ هل كنتَ تبحث عني يا كابتن هاني ؟ .

ـ لقد تعبتُ من البحث عنك ، ولكني لم أجدك ، فمللتُ من كثرة المشي ، وقررتُ أن أستريح .

ـ إن كنتَ تريدني فسوف آتيك حيثما كنتَ ، ولا داعي أن تبحث عني .

ـ لدي عملية بخمسمائة دولار لا أكثر ولا أقل .

ـ ادفع مُقَدَّماً ، وأخبرني عن العملية ، واعْتَبِرْها قد تَمَّت .

ـ أريدك أن تفخخ سيارة أحد الرؤوس الكبيرة في البلد ، الأمين العام للحزب الشيوعي .

ـ هل يمتلك حراساً شخصيين ؟ .

ـ لا .

ـ إذاً ، استعد لأن تزور قبره ، وتبكيَ عليه مثل التماسيح .

ومضى الاثنان إلى الشاطئ يشقان الروائحَ الكريهة التي تنبعث من كل عناصر الموت في هذه الأزقة . وجلسا على صخرة تحفر اسمها على حنجرة البحر ، وبحثا كل تفاصيل العملية .

وما إن هَمَّا بالافتراق حتى أقبل عليهم أسعد بهيئته المعهودة قائلاً :

ـ إن اجتمع غرابان على جثة البحر ، فهذا يدل على أن البحر يستحق الموت. أنت لص يا هاني لأنك سارق أحلام وأجساد .

قال هاني بلهجة غير قاسية :

ـ أرجوك يا أسعد، ابتعد عنا، فهذه البلد لديها من المجانين ما يكفي، ولا تحتاج لمجانين جدد . صحيحٌ أنني لص ، وكلنا لصوص . فالفرق بيني وبين زعيم الدولة هو أنه يسرق الشعب وينال التصفيق والتأييد، أما أنا فأسرق وكل الشعب يحتقرني.

ـ لستُ مجنوناً ، لأني ما زلتُ أُطالب بدم قطتي في محاكم الرمال الشاسعة ، ولا أملك أتعاب المحامين . وحيداً أسرق أعضائي ليلاً لئلا يراني قلبي . أركض في وكر الاتحاد الأوروبي نادي الصليبيين ، أَسأل عن لون قميص عماد الفايد حينما قُتِل ، وتفرَّق دمه بين القبائل ، ولم يجد حكومةً تُطالِب بدمه . إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ . وسأذهب لأفرش له السجاد البرتقالي لون دم الجنون .

ومضى أسعد كالعادة إلى اللاأين يسأل اللاأين عن وجهته المقبلة ، ويقول :

ـ سَيِّدي مَلَكَ الموت ، شرفٌ كبير لي حين تزور شخصاً حقيراً مثلي . حتى القططُ الشريدة سوف تمشي في جنازتي. أنا محترم ، لذلك لا أصلح أن أكون رئيس هذه الجمهورية .

أما هاني فقال وهو مُشتَّت وفي قمة اكتئابه :

ـ لستُ أدري من أين تأتيني المصائب. ما هذا الكلام الصادر من هذا

الغبي؟!. هل ينقصني اكتئاب في هذا الشاطئ القاتل ؟ . هل عليَّ أن أموت مليون مرة لكي تتمكن البرجوازيات من احتساء الشمبانيا في حطامي ؟ . يجب أن أترك الجامعة لأستمع إلى محاضرات البروفسور أسعد ، هذا المجنون الذي سحرر العالَم . ألمانيا قدَّمت للعالَم آينشتاين ، وحكومتنا قدَّمت للعالَم هذا المجنون .

وبعد يومين كانت سيارة الأمين العام للحزب الشيوعي أثراً إثر عَيْن بعد أن تفجرت ، وانطلقت شظاياها في الهواء . وصار جسده قطعة لحمة انصهرت مع الحديد ، فلم يعد لها معالم حقيقية .

تابع هاني المشهد عبر شاشة التلفاز، فقد قطع التلفاز الحكومي بثه ، وبدأ بنقل أخبار الانفجار. ضحك هاني في تلك اللحظة من كل قلبه ، كأنه يثأر لكل أعضائه التي خُدِشَت . وقال وهو ينظر إلى شاشة التلفاز :

_ لقد أخطأتَ يا سَيِّدي عندما ظننتَ أنك الذكي الوحيد في هذا العالَم. أرجو أن تُسَلِّم على كارل ماركس في قعر جهنم عندما تلقاه .

أَغلق التلفازَ ، وراح يمشي إلى البحر وصدره ممتلئ بالأكسجين . لأول مرة يستشعر أن الأكسجين قد صادق رئتيه . وقف على شاطئ البحر ، وصار يُعَبِّئ جيوبَه بحجارة كبيرة ، فصار كمنطاد من الحجارة القاسية ، وعندما وقف على حافة البحر الملامس لرجليه قال :

_ لقد وصلتَ أيها الأكسجين إلى رئتي متأخراً جداً . أيها البحر ، أُسَلِّمكَ نفسي بدون رهن . أعرف أن عيونك تتركز على روحي منذ تعارفنا ، وها أنا ذا أعترف بأنك كسبتَ المعركة . خذ كل ميراثي من الاكتئاب والضياع والعار ، وشكراً لهذه الأرض التي يحكمها الشيطان . أبي وأمي مارسا الجنسَ في ليلة صاخبة ، وأنجباني فَرِحَيْن لأشقى في فوهة التعاسة على هذه الأرض الضائعة ، فشكراً لهما ، وشكراً لهذا الشعب الضائع . لم أَجْنِ على أحد ، هذا ما جناه أبي عليَّ . إننا ندفع ثمن أخطاء آبائنا بشكل مضاعَف. كل البشر يرقصون، كلٌّ حسب أسلوبه الخاص

، وكل البشر ينتحرون ، كلٌ حسب أسلوبه الخاص . كل إنسان مزرعة للتجاعيد ، حتى لو كان في ريعان شبابه . إن الموت ليس شيئاً جديداً عليَّ . يا فرجينيا وولف ، اسمحي لي أن أنتحر وفق طريقتك الخاضعة للملكية الفكرية ، لقد ظفرتَ بي أيها الموتُ لكني أنا مَن أختار التوقيت،وشكراً لكِ يا مارتا لينش على فلسفتك الحمقاء. فالشيء الوحيد الذي استفدته من الحضارة الغربية هو الطرق الإبداعية في الانتحار. هكذا أصير مثل أُمٍّ جرَّبتْ كل شيء ، وبقي أن تُجَرِّب الخيانةَ الزوجية . ومن فرط ما تعرفتُ على زوجاتٍ خائنات في هذا العالَم الأعمى صرتُ أشك في أُمي . وعلى أية حال فإن الشخص الذي لم يتزوج سيكون واثقاً من أنه لا توجد له زوجة تخونه. من يعرف طريقَه لا يلتفت وراءه أثناء سيره ، وهذا ما أفعله.

ومضى إلى تلك الزرقة العنيفة الشاسعة مغمض العينين . دخل في رعشة الأكسجين المائي . شيء ما يشده إلى أسفل بلا رحمة أو استئذان ، هل هي جاذبية نيوتن أم لاجاذبية آينشتاين ؟ . لم يعرف في تلك اللحظات ، ولكنه يعرف أن نهايته في أوج احتراقها الذاتي . وتفشى الموجُ ثائراً يجتاح ، وعلت طبقاته على المكان ، كأن شيئاً لم يكن .

٢٣

كان الهاتف الخلوي لزياد يرن . وعرف زياد من خلال الرقم أن المتصل هو مسؤول الكوادر الطلابية في جماعة الإخوان المسلمين . وقد تبلَّغ بالنبأ الذي لا يحب سماعه ، فقد تم فصلُه من الجماعة بسبب قصة المسبح . فصوره تملأ الجرائد مع تعليقات نارية ضده وضد الجماعة . وفي الحقيقة فإن الحكومة هي التي التقطت تلك الصور لكنها حرصت على عدم إظهار ابنة مدير المخابرات . فالصورة هي لزياد وحوله شباب من الجنسين بملابس السباحة ، أما صورة ابنة مدير المخابرات فلم تظهر مطلقاً . وقد نشرتها في كل وسائل الإعلام لتضرب سمعةَ أفراد الجماعة ، وتُشَوِّه سيرةَ المنتمين إلى تلك الجماعة . وقد سبَّبت الصورُ

إحراجاً كبيراً للجماعة التي حوصرت من كل الموالين للحكومة التي تدفع لهم لقاء تأييد سياساتها الصحيحة والخاطئة .

أما زياد فسارت الأمور باتجاه معاكِس لنواياه الطيبة ، فالآن يُنْظَر إليه على أنه شخص غير أخلاقي يتردد على المسابح المختلطة في أكثر الفنادق فساداً ، ويمثل دور المتديِّن ، ويقف مع العاريات يتحدث ويناقش . وقد جاء قرار فصله من الجماعة ، والتبرؤ من فعلته ، ليزيد المصائب الهابطة فوق رأسه .

صحيحٌ أنه حاول إنقاذ فتاة ضائعة ، وتقديم مساعدة لها ، ولكنْ يبدو أن تاريخه الأخلاقي قد شُطِب ، فهو لم ينتبه إلى أن رجال الحكومة يقفون وراء تصرفاته ، ويريدون أي خطأ لكي يضربوا ضربتهم . وبالفعل جاءت هذه الضربة الشرسة التي صيغت بصورة تضمن تشويه سمعة الجماعة ، وهذا ما تحلم به الحكومة . فمن غير المعقول أن كل الصحف تنشر نفس الصورة ونفس التعليق . فهذا يعني أن الأمر مُدَبَّر ، وتقف خلفه جهة كبيرة متنفذة . وقد لعبت الحكومةُ الدورَ بحرفية عالية .

ها هو الدمار يستوطن. وبعد عدة أيام صارت الأمور مكشوفة للجميع ، فَكُرَةُ الثلج تم تكبيرها عمداً لتُرْمَى على مستقبله الشخصي ، ومستقبل حزبه السياسي . وامتد الدمار إلى بيته . فأهل بيته يقاطعونه ، وزوجته حبست نفسها في غرفتها رافضةً أن ترى وجهه . أما أبوه فقد قال له على انفراد :

_ اسمع يا زياد ، كل الشباب يمرون بحالات ضعف . استغفر ربَّك بسبب ما فعلتَه . وإذا كان بينك وبين أي شابة علاقة محرَّمة ، فاقطعها ، وانتبه لأسرتك .

قال زياد وعيناه تدمعان لأن الأمور وصلت إلى هذا الحد ، وقلبه يتقطع ، وعظامه تقشعر قلقاً وغضباً وحزناً :

_ واللهِ العظيم يا أبي أنا مظلوم . أنتَ تعرف كيف كانت تربيتي . لقد ساعدتُ فتاة كانت على حافة الهاوية لم تجد من يمد لها يد العون. كان عليَّ أن أساعدها

لأنها تضيع. لو أردتُ علاقاتٍ غير شرعية لكنتُ الآن أشرب الخمر وألعب القمار مع أميرات أوروبا . هل هذا جزائي لأنني أنقذتُ الإنسانَ من الدمار ؟ . لا أُصَدِّق أنني صرتُ كبش الفداء لكي يُصَفِّيَ الناس حساباتهم مع بعضهم .

_ أنا أُصَدِّقك يا زياد ، ولكن كلام الناس لا ينتهي. هذه زوجتك تحبس نفسها في الغرفة ، ولا تريد أن تُكَلِّم أحداً . اذهب إليها ، وأخبرها أنك بريء .

_ لقد صرتُ أدور من مكان إلى مكان طالباً العفو على ذنب لم أقترفه . لو قضيتُ حياتي سكران لصرتُ مواطناً صالحاً ، أما عندما أتحرك لإنقاذ وطني وأبنائه فأصير خائناً .

وذهب زياد يجر كل أيام الجنود المنتصرين في المعركة المهزومين في وسائل الإعلام . طرق الباب ، وقال :

_ افتحي يا فايزة ، أرجوك أن تفتحي .

لم يأت أي جواب ، وحينما همَّ بالمغادرة فُتِح الباب ، فإذا فايزة تحمل في حمرة عينيها كل حرارة الدموع . فتحتِ البابَ وذهبت لتجلس على حافة السرير ، وعلامات الغضب باديةٌ عليها .

جلس زياد إلى جانبها ، وهو لا يعرف كيف يبدأ الحديث ، وبعد برهة قال :

_ فايزة ، أنا أعرف أنك غاضبة، ولكني أريدك أن تعلمي أن الموضوع قد فُسِّر بطريقة خاطئة . واللهِ العظيم يا فايزة أنا أحبك ومخلص لك . ولكن هناك أموراً تستدعي تدخلاً سريعاً ربما ينقصه التفكير في النتائج ، فكثير من الناس ليس لديهم أحدٌ يمد لهم العون ، وعلينا أن نساعدهم بالطرق الصالحة . صحيحٌ أنني وضعتُ نفسي في موقف محرِج ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات .

_ يا زياد ، أنا امرأة تغار على زوجها ، ولا أريد أن يأخذك مني أحد . هذا كل ما في الأمر .

ودخلا في العناق باكِيَيْن ، كأن دموعهما غسيل كل خطايا الزنبق البري. فقد

كانا يُتقِنان لغة البكاء بطلاقة . جسداهما يرتجفان وينصهران في بعضهما البعض ، والدموع مختلطة. هذه هي محادثات السلام بينهما التي تكللتْ بالنجاح لأن الطرفين يثقان بصدق الدموع .

٢٤

نسَّق زياد مع سوزان مواعيد ومكان إلقاء الدروس الخاصة بها وبقريباتها كما طلبت. وحضر إلى البيت الذي اتفقوا عليه. كان في المجلس ست شابات مُحَجَّبات، والعجيب أنهن يضعن الحجاب لأول مرة في تاريخهن، وبدأن مرتعبات بعض الشيء، فكلهن قادمات من مدارس أجنبية وثقافة غربية حتى النخاع . كانت أعمارهن بين السادسة عشرة والثانية والعشرين . لم يتعودن على حضور دروس دينية . فهن يقضين أوقاتهن في الكوفي شوب ، أو في مشاهدة الفيديو كليب ، أو في الرحلات السياحية ، أو في شراء العطور والملابس وسيارات المرسيدس . عائشات بصورة مترفة للغاية وكأنهن في موناكو ، مع أن هذه البلاد فقيرة للغاية ، فهناك أكثر من أربعين بالمئة من الشعب تحت خط الفقر .

ألقى زياد عليهن السلام ، فَرَدَدْنَ عليه بكل العبارات سوى رد السلام . أدرك أن مشواره طويل جداً ، فقال بعد أن جلس :

_ إن إلقاء السلام سُنَّة ، والرد عليه واجب . فليكن الرد " وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته " ، وبدأن يرددن تلك العبارة مثل الأطفال في الروضة الذين يتعلمون شيئاً جديداً لم يعهدوه من قبل .

وتوالت الدروس بشكل منتظم ، وتم قطع شوط طويل في دراسة العلوم الشرعية بشكل واضح مُبَسَّط . وفي أحد الأيام سألته إحدى الفتيات عن الأحكام الشرعية الخاصة بالحيض . احمرت خدود باقي الفتيات ، وشعرن أنهن أمام موقف محرِج ، وقالت لها الفتاة الجالسة بجانبها بالفرنسية وبصوت هامس :

_ عَيْبٌ .

فهم زياد معنى تلك الكلمة ، فقد كان يتقن بالإضافة إلى العربية الإنجليزية والفرنسية ، وقال :

_ لا تقولوا كلمة عيب .

_ كيف عرفتَ معنى تلك الكلمة ؟ ، هل تتقن الفرنسية ؟ .

_ يجب علينا أن نتعلم لغة أعدائنا الصليبيين ، فمن تعلَّم لغة قوم أَمِنَ شَرَّهم . ولذلك درستُ الإنجليزية والفرنسية .

قالت إحدى الفتيات :

_ أنا تعلمتُ الإسبانية .

_ ولماذا تعلَّمْتِها ؟ .

_ بصراحة ، خالي يدرس في إسبانيا ، وأظل أراسله بالبريد الإلكتروني .

_ عليك أن تراسليه باللغة العربية لأننا نفتخر بلغتنا ، أما الإسبانية فنحن نتعلمها لنحرر الأندلس الواقعة تحت الاحتلال الإسباني الكاثوليكي . يجب أن لا ننسى هذا . وانتبهن يا بنات بأن الذي يخلع هويته اللغوية سيظل قزماً أمام نفسه مهما حقق إنجازات ، وسوف تظل كل إنجازاته وهمية .

كان صدام الحضارات مسيطراً عليه / الحرب بين الهلال والصليب /

وأردف قائلاً :

_ أما السؤال عن الحيض ، فإن الله لا يستحي من الحق ، وبصراحة قد فكَّرتُ أن أُعطيَ دروساً في الثقافة الجنسية بأسلوب لا يخدش الحياء ، لأنكن مقبلات على حياة مفتوحة ، وعلى المرأة خصوصاً في مجتمعنا الشرقي أن تعرف جسدها وحدوده وحدود ما يتصل به، لئلا تظل عمياء تتخبط في بحر عنيف، لا تعرف شيئاً عن كيانها بداعي الخجل .

ومضى زياد يلقي درساً في الثقافة الجنسية . كان ذلك الكلام تسمعه الفتيات لأول مرة في حياتهن. فتصورهن عن الجنس يرتبط بشكله في الأفلام والفيديو

كليب والروايات الجنسية. وكل تلك التصورات مدفونة في الخجل والأسرار، كأن الجنس أضحى في حياتهن سلطة كهنوتية مُغلَقة .

وبعد شهر كامل من الدروس المكثَّفة ، قرَّر زياد الانقطاع عن التدريس ، فقد قال إن ما وضَّحه خلال هذه الدروس يكفي إلى حد بعيد ، ومن أراد التوسع والتخصص فعليه أن يستمر في بحثه .

تمنى زياد للفتيات مستقبلاً مزدهراً ، وحثَّهن على الاتصال بالله ، والابتعاد عن رفاق السوء ، والتركيز في طلب العلم ، وخدمة الناس .

وحينما همَّ بالمغادرة قالت له سوزان :

_ أستاذ زياد ، هناك موضوع أود أن أطرحه عليك دون حضور أي أحد .

كانت الفتيات جالسات ، وقد شعرن بالإحراج ، وقمن بالاستعداد للمغادرة ، لكن زياداً قال :

_ ولكن يا آنسة سوزان أنا لا أختلي بامرأة ، فالخلوة بين الرَّجل والمرأة محظورة .

_ ولكن الموضوع حساس للغاية ولا يحتمل وجود أحد سوانا .

_ إذاً ، اتركي باب الغرفة مفتوحاً بعد أن تخرج الفتيات .

قالت سوزان :

_ أستاذ زياد ، أود أن أقول لك شيئاً ، وأرجو أن لا تضحك عليَّ أو تستهزأ بي ... أنا أُريدكَ زوجاً لي على سنة الله ورسوله .

حافظ زياد على رباطة جأشه ، ومستوى الألوان في ملامح وجهه ، وقال :

_ آنسة سوزان ، اسمحي لي أن أقول لك إنك تلميذة مبهورة بأستاذك لا أكثر ولا أقل . وما يحدث معك الآن حدث مع الممثلة فاتن حمامة التي تزوجت المخرج عز الدين ذو الفقار ، فقد اكتشفت أنها لم تكن تحبه ، وإنما مبهورة به لأنه أستاذها . أنا لا أستحق حُبَّك ، ولا أطيق أن تمنحيني قلبكِ ، ولن أسمح لك

أن تُضَـيِّعي مسـتقبلك مـع شـبحي القتيـل . ناشـدتك الله أن تبتعـدي عنـي فأنـا لا ينقصني صدمات عاطفية .

ـ مستقبلي سيضيع إن لم أعشه معك . أستاذ زياد ، أنتَ الشخص الوحيد في هذا العالَم الذي رآني عاريةً وقام بتغطيتي وستري . أنت بالفعل أقرب إليَّ من أبي الذي لم يفكر أن يستر لحمي في يوم من الأيام . إن لم أرتبط بك سوف أضيع ، أنتَ خلاصي ومُنقذي . لم أعد أتخيل عالمي بدونك . قد تظن أنني مجنونة أو مراهقة ، ولكني أحتاج إليك فلا تتركني في منتصف الطريق .

ـ آنسة سوزان ، أنا شخص متزوج .

ـ أنا أعرف ذلك، وزوجتك كانت امرأة أخيك، تَزَوَّجْتَهَا لتجمع شمل العائلة.

ذُهِلَ زياد من هذا الكلام ، وقال وجحوظ عينيه يُغرِق وجهَه في أرق السؤال :

ـ وكيف عرفتِ هذا ؟ .

ـ لا تنس أني ابنة مدير المخابرات .

ارتبك زياد ، وبدأ جبينه يتفصد عرقاً ، وقال :

ـ فكِّري في الموضوع لمدة أسبوع ، وإن بقيت على رأيك فسوف نتزوج .

وغادر زياد المكان الذي شعر أنه غرفة تحقيق في دائرة المخابرات ، وأن المرأة التي أمامه هي خلاصة كل عقلية ضباط المخابرات . بدا شعوراً غريباً للغاية لم يتعود عليه .

لم يعرف في تلك الساعة هل هو مستعد للزواج منها ، أما أنها كانت كلمة عابرة ليفلت من إلحاحها العنيف . بدأ يسير في الشوارع شاعراً أنه يركض في فراغ صدمة الذاكرة . أوقف سيارة تاكسي ، وركب فيها . مرَّ الناس والأشجار على صفيح زجاج السيارة ، وهو أيضاً كان يمر وعقله غارق في قيعان السؤال . وأكثر ما كان يؤرق زياداً هو أنه إذا ابتعد عن تلك المرأة فسوف تضيع فعلاً ، فلا أحد سوف ينقذها . هل عليه أن يلعب دور المنقِذ مرة ثانية بعدما لعبه مع زوجة أخيه ؟.

ألقى حجارة هذا السؤال في قاع بئر وجدانه بلا جواب . والعجيب عدم وجود من يسأل عن مشاعره ، فالكل يريدون منه أن يُضَحِّيَ من أجل الآخر لأن الآخر يثق به . وقد صارت الثقة به عبئاً على كاهله .

وبعد أسبوع اتصلت به سوزان ، وأَخْبَرَتْه بأنها متمسكة بما قالته ، وتنتظر أن يفيَ بالوعد الذي أخذه على نفسه . قال لها زياد بصوت ذابل :

_ وهل والدك موافق ؟ .

ردَّت بصوت صلب وبثقة منطقية :

_ والدي لا يصلح أن يكون أباً ، فهو لا يصلح أن يكون ولي أمري . سنتزوج وفق المذهب الحنفي الذي يتيح للمرأة الراشدة أن تُزَوِّج نفسها بنفسها دون ولي ، وأَدِلَّته من الكتاب والسنة مُعتبَرة .

أدرك زياد أنه أستاذ ناجح ، فما درَّسه للفتيات من فقه المذاهب الأربعة وأدلة كل طرف قد جاء بنتيجة . فهذه سوزان التي قضت حياتها في المسابح المختلطة ، وشرب الخمور، وتعاطي المخدرات حسب المزاج ، قد صارت تتحدث بفصاحة عن مسائل فقهية .

شعر زياد بحجم المأزق الذي يحاصره من كل الجهات . أُصيب بدوار شرس . كان عليه أن يتخذ خطوات جريئة يتوقف عليها مسار اتزانه النفسي ، وقد قرَّر أن يتخذها .

وفي الحقيقة كان زياد يحب سوزان من كل قلبه، ولكنه كان ينظر لما وراء ذلك الزواج ، فهي ابنة مدير مخابرات . وبالنسبة إليه فهو رجل متزوج ، وكيف سيقوم بإخبار زوجته ؟ . وإذا أخبر والده بالموضوع قد يؤثر ذلك على صحته الضعيفة أصلاً .

دخل زياد على زوجته بعد أن استأذن . كانت تنظر إلى المرآة ، وتقوم بتمشيط شَعرها . أخذ المشط من يدها بهدوء، وصار يُمَشِّطها بحنان واضح ، وجسداهما

على تماس . نظر إلى المرآة فاشتبكت عيناهما في بؤرة ضوئية كالطوفان .

أدرك أن هذه اللحظة هي اللحظة المناسبة للحديث . بلع ريقه ، وقال :

_ فايزة ، أريد أن أخبرك بموضوع مهم .

_ وأنا أريد أن أخبرك بموضوع مهم ، فهل أبدأ أم تبدأ ؟ .

_ ابدئي أنتِ .

_ لقد قالت لي طبيبة المركز الصحي إنني حامل .

ابتسم زياد ابتسامة نابعة من قلبه وبارك لزوجته التي انتفضت بكل عنفوان الأنثى الشهية ، ثم قالت :

_ وما الموضوع المهم الذي عندك ؟ .

تلعثم ولم يعرف ماذا يقول ، لكنه قرَّر أن ينطق تلك الكلمات العالقة في حلقه ويرتاح ، فقال :

_ فايزة ، أرجو أن تفهمي كلامي بدون عصبية أو غضب .. هناك امرأة كانت تعيش حياة سيئة ، وقد قمتُ بتغيير مسار حياتها ، وهذه المرأة قرَّرتُ أن أتزوجها .

توقَّع زياد عاصفةً من البكاء أو الصراخ ، لكن فايزة ظلَّت متماسكة وصامتة لبرهة قبل أن تقول :

_ وهل هي أجمل مني ؟ . هل ستنام على صدرها وتبكي في أحضانها لكي ينخر دمعُكَ عظمَها ؟ . هل ستقوم بتمشيط شَعرها ؟ . هل ستقول لها نفس الكلام الذي كنتَ تقوله لي ؟ . إذا كنتُ لا أروي عطشك فأخبرني لأُغيِّر نفسي .

_ فايزة ، واللهِ العظيم أنا لستُ مصاباً بالهوس الجنسي ، ولا أريد أن أفترس أكبر قدر ممكن من النساء . هذه المرأة ستضيع إن لم أدخل في حياتها . أنا أُضَحِّي مثلما أنتِ تُضَحِّين . إن الشرع أباح لي الزواج بأربع نساء بشرط العدل ، أنا لا أجرح مشاعرك، ولا أعتبرك قطعة أثاث في البيت، ولا أعتدي على حقك. في بعض الأحيان علينا أن نتبرع بقدر من مشاعرنا لإنقاذ إنسان على حافة الهاوية لا

أحد يسأل عنه . في هذا العالَم المتوحش هناك أشياء أكبر من المشاعر .

قالت وهي تصارع رغبة مهووسة في البكاء :

ـ افعل ما تشاء ، وإذا كانت تلك رغبتك فهي رغبتي أيضاً .

وارتمت على صدره، وأخذ دبيب بكائها يتسلل إلى عظامه. أما هو فراح يُقَبِّلها كأنه يريد أن يأكل الأكسجين الذي يدخل إلى فمها .

وبعد أن هدأت عاصفة القبلات قال :

ـ لا داعي أن تخبري والدي بالموضوع، فلا أريده أن يدخل في أمراض جديدة.

لم يأت زياد على ذكر أخته فاطمة لأنها قد ذهبت إلى زوجها في الخليج بعد أن تم كتابة العقد بشكل هادئ وبحفلة بسيطة جداً تكاد لا تُذكَر .

تم الزواج . ودخل الزوجان إلى عش الزوجية . وقد استأجر زياد شقة بسيطة تفي بالغرض . كانت سوزان فتاة ليست وقحة ولا خجولة ، فوجهها لم يحمر نهائياً، كأن الأمر روتيني جداً لدرجة أنها أخذت زمام المبادرة في الحديث ، فقالت :

ـ زياد ، كنتُ أود أن أناديك حبيبي منذ مدة بعيدة ، ولكن لم تكن العلاقة بيننا تسمح بتلك الكلمة، أما الآن فأنتَ سَيِّدي وزوجي وأستاذي وحبيبي وعشيقي وأبي وأمي وكل الناس .

ـ أنا لستُ سَيِّدَكِ ، بل أنتِ سَيِّدتي ومُعادَلتي الفلسفية اللذيذة . أنتِ فَرَسي الذي يستنزفني عاطفياً حتى النخاع كلما حاولتُ ترويضه . أنا عُزْي عشقكِ ، وأنتِ أنثى البرتقال التي سأعصرها في قلبي الباكي .

ـ لماذا تحبني كل هذا الحب ؟ ، أنا غير معتادة على أن يحبني أحد بصدق وشرف. وعلى أية حال لقد تركتُ شرب الخمر مذ رأيتُكَ، ولكني لم أترك السُّكْر، فأنا الآن أسكر برحيق عينيكَ، أَسْكَرَني بياضُ أسنانك. ريقك هو خمرتي الحلال

التي سأُدمن عليها لأنال رضا الله .

ـ صَدِّقيني ، أنا أحسد الصابونَ الذي تستحمين به ، وأغار منه . أنا أحسد عَرَقَكِ لأنه يخدش عنفوانَ أعضائكِ . أنتِ كائن دموي ، لكنَّ دَمَكِ فلسفةُ العشب النابت في جماجم أعمدة الكهرباء التي تنير للسيول طريقَها . لقد أعطيتُكِ قلبي بكل غاباته فلا تحرقيه . أريد أن أكتشف أنوثتك بأظافري وأسناني ، ولكني أَعدكِ أن لا أجرحك ، وأن لا أكون متوحشاً .

ـ إذا مِتُّ فلا أريد أحداً يمشي في جنازتي غيرك .

ـ لا تقولي هذا يا سوزان ، فالحب والموت يختلطان في جبينك فأُولد أنا كي أموت على هضبة الحزن في صوتك ، تلك المنطقة المأهولة بدموعي وأشلائي .

وتابع يقول :

ـ لأول مرة أشعر برغبة وجودية عارمة تلقائية في ممارسة الجنس .

ابتسمت سوزان ، وقالت بكل ثقة :

ـ ما هو تعريفك الفلسفي للجنس ؟ .

أُعجِب بهذا السؤال الذي كان يود أن يسمعه منذ مدة بعيدة ، وقال :

ـ الجنس شرارة كهربائية في جَسَدَيْ فراشتين في مدار الاحتراق الداخلي ، لكنه مرتبط في أذهان الناس بالعار والفاحشة ، لأنهم مقموعون سياسياً ، ولا يُسمَح لهم بالتعبير عن عواطفهم الذبيحة .

ـ اسمح لي أن أبدل الموضوع ، لو كنتَ غير متديِّن هل كنتَ ستقيم علاقات مع النساء ؟ .

ـ بالطبع لا ، فأنا لا أحب أن أكون نَخَّاساً ، ولا أحب أن ألعب دور تاجر الرقيق الأبيض .

ـ هناك شيء عالق في ذهني منذ مدة ولم أجد له تفسيراً ، وهو كيف عرفتَ أنني كنتُ في المسبح في ذلك اليوم المنحوس ؟ .

_ بصراحة لقد رأيتُكِ في المنام ، وكامل المشهد رُسِمَ أمامي ، وجاءني نداء يطلب مني أن أساعدك. وقد تكاثرت هذه الأمور فيما بعد ، حتى إنني صرتُ عندما أذهب إلى صلاة المغرب في المسجد أرى صورتكِ في الشفق فأصير أتلفت باحثاً عنكِ ، ومن يراني يظن أنني مجنون ، لقد صرتِ هاجساً ثائراً في قلبي .

_ سأقول لكَ شيئاً مشابِهاً ، لقد رأيتُكَ في المنام أثناء تواجدك في السجن ، وجاءني هاتف يطلب مني مساعدتك ، وقد أخبرتُ أبي بالموضوع ، وأخرجك من السجن ، أنتَ ورفاقك .

ساد بينهما صمتٌ رهيب ، واكتفيا بالتحديق في عيون بعضهما البعض ، وقال زياد وقد أخذ نفساً عميقاً :

_ يا الله ! ، لقد وضعنا القدرُ في نفس الطريق ، وجمعنا معاً بعد أن قال كلمته.

ذهبت سوزان إلى إحدى حقائبها ، وأحضرت شيئاً ما من الحقيبة لم يستطع زياد أن يحدده ، وأقبلت على زياد وفي يدها مسدس . ارتبك زياد للوهلة الأولى ، لكنه استعاد تماسكه سريعاً كأن شيئاً لم يكن ، ثم قالت له :

_ هذا مسدس أخي عمر الذي ذهب للجهاد في البوسنة ولم يعد حتى الآن ، أريد أن أُهْدِيَهُ لكَ ، فأنتَ وحدك من تستطيع الحفاظ عليه . وأنا واثقة أن أخي سيكون سعيداً لو علم أن مسدسه الشخصي بين يديكَ . صَدِّقْني ، في حياتي رجلان محترمان فقط أنتَ وأخي ، وأنا لا أريد أي رجل أن يكون أباً لأبنائي إلا أنتَ .

_ عزيزتي سوزان ، إذا كان عماد الفايد قد ضحَّى بحياته من أجل دُمية محترقة في مسرح للعرائس ، فأنا مستعد أن أُضَحِّيَ بحياتي من أجل امرأة شريفة مثلك .

لاحظ زياد هطول الدمع تلقائياً من عينيها ، فلم يرد أن يخوض في تفاصيل حول أخيها الذي لم يكن يعرف أنه ذهب إلى القتال في البوسنة .

دخلا في العِناق الحاسم مع هطول زخات متفرقة من الدمع الممتزِج برائحة الجروح الخفية . مثل كل مواسم هجرة الطيور ، كان الجسدان يهاجران في عزلة الدمع ، وكأن موسم الهجرة إلى النزيف يتجدد بأشكال مختلفة .

٢٥

كان الدكتور وائل عمَّاش يشرب الخمر برفقة السفير الأمريكي في منزل الأخير ، ويشاهدان مباراة كرة سلة أمريكية . وفي خضم الاندماج في حركة دوران الكرة على الشاشة قال السفير الأمريكي :

_ ما هي آخر مؤلفاتك ؟ .

_ لدي كتاب فلسفي سَمَّيْتُه " الرد على أرسطو"، سوف أنتهي منه في القريب العاجل .

_ عنوان رائع بالفعل . وعلى أية حال لجنة جائزة نوبل معجبة جداً برواياتك الأخيرة " أحزان مشرقية " ، فقد هاجمتَ الإسلامَ بكل براعة ، وتناولتَ موضوع اضطهاد المرأة الشرقية . وثق تماماً يا دكتور أننا وراءك حتى تحصل على نوبل وكل الجوائز العالمية ، ولكن كما تعلم كلما هاجمتَ الإسلام أكثر ازدادت فرص فوزك بالجائزة . نريد مواضيع عن الإرهاب في القرآن ، ونريد أن نُشَكِّك الناسَ بدينهم . وحاولْ في كتاباتك المقبلة زيادة جرعة الترويج للمشروع الأميركي الديمقراطي في المنطقة .

وتابع يقول وعيناه تزدادان لمعاناً عنيفاً وصادماً :

_ ويسرني أن أقول لك إن الحكومة الأمريكية وقفت وراء فوزك بالجائزة الأدبية الأخيرة تقديراً لخدماتك الجليلة في دعم الديمقراطية وحقوق الإنسان .

ومضى الاثنان يشربان الويسكي ويأكلان المكسَّرات . كان الدكتور وائل يشرب بنهم شديد على عكس السفير. وفي نهاية اللقاء قرَّر الدكتور المغادرة إلا أنه لم يقدر على الوقوف من شدة السُّكْر، مما جعل السفير يتصل بسائق الدكتور

الذي ينتظر في السيارة أمام البيت . أسرع السائق إلى البيت فوجد الدكتور في حالة كارثية، فساعده بالمشي إلى السيارة، وانطلقت مسرعةً تحرق إسفلت هذه الشوارع التي تبدو وكأنها بلا نهاية . إنها نفقٌ طويل ، والكل ينتظر الضوء في آخره، ولكن المفاجأة المؤلمة أنه لا يوجد ضوء أصلاً .

أما السفير فصار يُقَلِّب المحطات حتى ثبت على أُغنية لماريا كيري كانت تُعْرَض على قناة أوروبية مُمَوَّلة من رجال أعمال عرب. وفي خضم جحوظ عينيه المسلَّطتين على الأجساد العارية قال وهو يقهقه :

_ هذا البدوي المتخلف راعي الغنم ، يَعتقد أن كتاباتِه التافهة ستوصله إلى نوبل . يظن نفسه همنغواي . نحن صنعنا هذه البدوي بأموالنا ، وسنهدمه متى نشاء بعد أن تنتهيَ صلاحيته ، ويصبح ورقة محروقة بالنسبة إلينا ، ولن نجعله يأخذ جائزة نوبل حتى لو سجد لنا . فمنح عربيٍّ هذه الجائزة سَيُصَوِّر العربَ كأمة لها حضارة وثقافة وإنجازات ، وهذا ما لا نريده .

ومضى الزمنُ سريعاً كأنه غزال يقفز بطنَ الضباب المقلي بدموع الغيم، ويمضي إلى موته بلا هوية شخصية أو جواز سفر دبلوماسي. واقترب موعد إعلان الفائز بجائزة نوبل للآداب. كل العالَم في ترقب وانتظار صارخ .

كان الدكتور وائل يتابع وسائل الإعلام المحلية والعالمية ، ويتنقل من التلفاز إلى الانترنت ، من أجل الحصول على أي خبر يتعلق بالفائز . حاول الاتصال بالسفير الأمريكي ليعرف مدى فرصه بالفوز ، لكن السفير أغلق هاتفه الخلوي عمداً لأنه لا يريد أن يسمع صوته أو أي شيء عنه .

وجاءت المفاجأة الصاعقة فقد أُعلن الفائز ، وبالطبع لم يكن الدكتور وائل هو ذلك الفائز. أَغلق التلفاز بكل هدوء أعصاب . في تلك اللحظة كان هدوء أعصابه مرعِباً ومستحيلاً . مضى إلى غرفة مكتبه ولم يشعل الضوء. كان على سطح المكتب أوراق كثيرة لم يلمسها منذ أيام . جلس على كرسيه الجلدي الفاخر في

هذه العتمة اللاسعة . وأغمض عينيه كأنه يدخل في عوالم الذاكرة المفتوحة على كل احتمالات المستحيل الأزرق. لم يرتجف أي عضو في جسده، فقد كان دماغه يسابق كل أعمدة الكهرباء المغروسة في ذهنه الهارب إلى نهايات خريف المشاعر . ومثلما كانت أعوادُ المشانق تركض إلى أعواد المشانق ، كان جسد الدكتور يركض وهو جالس في مكانه .

٢٦

كان القس يعقد في مكتبة الكنيسة مؤتمراً صحفياً وإلى جانبه الراهبة تيريز. كل وسائل الإعلام المحلية التي جمعها وزيرُ السياحة خصيصاً لهذا الحدث كانت متواجدة رغماً عنها ، فهي لا تملك رفض أوامر وزير مدعوم من الحاكم مباشرة . وكان الهدف نقل هذا الخبر لكل العالَم ، لكي يبدأ تدفق وسائل الإعلام العالمية إلى هذه البقعة التي بدورها سوف تسحب كل السياح إلى هذه البقعة. أما الراهباتُ فجلسن في المقاعد الأمامية وهنَّ عالمات بموضوع الرؤية ، فقد قامت تيريز بإخبارهن . والبعض صدَّق ذلك ، والبعض الآخر لم يُصَدِّقه ، إلا أن الجميع استسلم للأمر الواقع ، ولم يرد أن يثير هذه المسألة . أما راحيل فقد ظلَّت في الدَّير لوحدها وهي لا تعرف ماذا يحصل في العالَم الخارجي . وقد حاولت جودي أن تأخذها إلى المؤتمر الصحفي إلا أن تيريز قالت بصوت عالٍ مجلجِل مزَّق أُذُنَ راحيل :

ـ اتركي عمياءَ النَّحس هذه في الدَّير ، فنحن غير ذاهبات إلى عُرْس . إنه مكان سيضم أناساً مهمين ، ولا تنقصنا غبيات نأخذهن معنا لكي يُشَوِّهْنَ المكانَ ، ويجلبن لنا الفضائح ... لا مكان للخادمات مع عِلْية القوم .

حاولت جودي تهدئة راحيل والتخفيف عنها ، واعتذرت لها نيابةً عن تيريز . ولم تُرِدْ جودي في تلك اللحظة أن تدخل في مشادة كلامية مع تيريز ، فهي مقتنعة أن هذا الدَّير لا تنقصه مشاكل .

وصار الدَّير فارغاً إلا من شبح راحيل . ذلك الشبح المنعكس على الحيطان الواقفة على أصابع ملح دمعها كأعواد المشانق المتطورة. كان تبكي ولا تبكي، فهي صورة خيالات تخرج من الحيطان المتراصة بلا تاريخ سوى التاريخ الذي تصنعه النوارس القتيلة .

وبالقدر الذي كان الدَّير هادئاً كان المؤتمر الصحفي صاخباً . كانت التمثيلية منسوجة بإحكام بالغ ، فقد قام القس والراهبة تيريز بتجميع أطراف القصة الخرافية فيما بينهما قبل مدة . وحينما جاء المؤتمر تناوب الاثنان على صياغتها لفظياً لتبدوَ القضية صادقة لا يعتريها لبس . ولأنهما كانا يتحدثان بجدية ومنطق وهدوء صدَّقت الأمرَ الراهباتُ اللواتي كن واقعات في الشك والحيرة . فالأسلوب الذي انتهجاه كان موغلاً في الاتزان وتسلسل الأفكار والأحداث بدون تناقض .

وتناقلت وسائل الإعلام الخبر ، فصارت في البلاد حركة واسعة جداً من ردود الأفعال ، وصار هذا الحدث الشغل الشاغل للدولة كاملةً بكل أطيافها ، فصارت الرحلات المدرسية تتوجه إلى تلك البقعة ، والناس يذهبون ليشاهدوا هذا المكان ويكتشفوا أسرارَه بعد أن كان في طوايا النسيان والإقصاء . وقادت وسائل الإعلام الحكومية حملة واسعة جداً بعدة لغات لإيصال هذا الحدث غير العادي إلى الخارج . وطبعت الحكومة كُتَيِّباتٍ سياحية تتضمن ذكر هذا المكان وصوراً عنه بالعربية والإنجليزية والفرنسية ، ووضعت إعلاناتٍ في القنوات التلفزيونية الأمريكية والأوروبية حول هذا المكان غير العادي . وقامت وسائل الإعلام المحلية والخارجية باستضافة القس والراهبة تيريز للحديث في تفاصيل هذا الموضوع . وبدأت الوفود السياحية تنهمر على هذا المكان الذي كان منبوذاً . وبين عشية وضحاها صار العالم الغربي كله يحج إلى هذا المكان ، بعد أن صدرت تصريحات من كرادلة وقساوسة عالميين بضرورة الذهاب إلى ذلك المكان ، فهم يرونه آية بارزة تدل على اقتراب عودة المسيح .

لقد كان حدثاً عنيفاً جداً غطى على كل الدولة . فالدولة نسيت كل شيء إلا هذا المكان . وصار السياح يلتقطون الصور التذكارية في ذلك المكان مع القس والراهبات . كانت الأمور أشبه بحفلة لمطرب عالمي مشهور يحضرها عدد لا يُحصَى من المهووسين به . وأقامت الحكومةُ مرافق عامة في تلك البقعة ، إذ إنها شيَّدت بركةَ ماء سَمَّتْها " نبع التطهير المقدَّس" مع أنه ليس نبعاً، إلا أنها قالت إنه نبع مُبارَك من أجل تطهير الذنوب والحصول على الغفران . وفرضت الحكومةُ رسومَ دخول باهظة للغاية تصل إلى خمسين دولاراً للشخص الواحد في تلك البقعة التي صارت حديث العالَم كله .

وبعد مدة زار القسُّ وزيرَ السياحة في مكتبه بعد أن أخذ موعداً مسبقاً . فقد كان القس متضايقاً جداً برغم نجاح خطته أكثر مما توقَّع ، فهو لم يكسب مادياً من هذه العملية كما خطَّط لها ، فالأموال كلها تذهب إلى الحكومة ، ولم ير شيئاً منها .

جلس القس على الكرسي بعد أن دعاه الوزيرُ للجلوس. وقد بلع ريقه كدلالة على ارتباكه وتحجر الكلام في حلقه . لاحظ الوزيرُ ارتباكَ القس ، فقال محاولاً فتح الموضوع :

_ ماذا هناك يا حضرة القس ؟ .

_ بصراحة يا سَيِّدي الوزير ، لم أحصل على أي مبلغ نظير خطتي التي حوَّلت ذلك المكان من مقبرة خالية إلى مزرعة دولارات لم أر منها شيئاً .

ابتسم الوزير ، وقال بهدوء كأنه يغرس أشجار الكلام على إسفلت العاصفة التي ستأتي :

_ بصراحة يا حضرة القس ، لقد خرج الموضوع من يدي ، فالحكومة سيطرت على كل شيء . وأنا مثلك لم أستفد مادياً من هذا الموضوع. فهذه الحكومة لا يمكن لأحد أن يسرقها لأنها السارق الأكبر في هذا البلد بعد الحاكم . وللأسف

فكلنا يعرف هذا الموضوع ، ولا أحد يريد أن يتحدث . وأرجو أن لا يخرج هذا الكلام إلى خارج هذا المكتب فتطير رقابنا مجاناً .

وتابع يقول :

ـ وعلى أية حال أنا مستعد أن أُعْطِيَكَ مبلغاً بسيطاً من أموالي الشخصية كمكافأة على جهودك .

ـ شكراً جزيلاً يا سَيِّدي الوزير ، فلا داعي أن تُتعِب نفسك ، فقد كان عليَّ أن أعرف أن اللص المبتدئ لا يمكن أن يخدع لصوصاً محترفين .

٢٧

كان مدير المخابرات في مكتبه مندمجاً مع المواقع الإباحية على الإنترنت . دخل عليه أحد الضباط بلا استئذان وهو يلهث ، فارتبك المدير وأغلق المواقع سريعاً ، وقال بلهجة حادة :

ـ كيف تدخل عليَّ يا حيوان بلا استئذان ؟ . ألم تعلم أن هناك هرماً وظيفياً فكيف تقوم بتجاوزه ؟ .

ـ أنا آسف يا سَيِّدي ، ولكن أوامركم السامية تنص على إبلاغ حضرتكم بأي نبأ خطير فوراً دون الرجوع إلى الهرم الوظيفي .

ـ هل هناك محاولة لقلب نظام الحكم ؟ .

ـ لا يا سَيِّدي ، ولكن هناك أمر سيضايقك أكثر .

تعجَّب مدير المخابرات من هذا الكلام، وتساءل في نفسه عن هذا الأمر الأشد من قلب نظام الحكم ، فقال والفضول ينخر عظامه :

ـ قل بسرعة ولا تضيع وقتاً .

ـ ابنة حضرتكم صاحبة الصَّوْن والعفاف تزوَّجت شاباً كان عضواً سابقاً في الإخوان المسلمين .

ضحك مدير المخابرات من كل قلبه ، وقال :

_ هل جئتَ إلى هنا لتمزح معي وتتبادل النكات مع أسيادك ؟ .

_ أنا آسف يا سَيِّدي ، ولكن أُقسم لك أن هذه هي الحقيقة بعد كشفنا هذا الأمر .

اقتنع مدير المخابرات بهذا الكلام بعد أن رأى هذا الإصرار . وأطلق ضحكة خفيفة عابرة قبل أن يكسر كل الأشياء التي كانت على مكتبه بحركة هستيرية رغم أنه يمتاز بهدوء أعصاب مرعِب ، ثم صرخ كأنه يريد أن يُفهِم حيطانَ الغرفة :

_ أنا معن اللويمي الذي ثبَّت النظام الحاكم طوال مليون سنة ، ولا أحد يقدر أن يهز شعرة من رأسي. لا قانون في البلد ، أنا القانون. ولا حكومة ، أنا الحكومة. ولا حاكم ، أنا الحاكم . وها هي ابنتي تتزوج بدون معرفتي يا أولاد الكلب ... أين كنتم ؟ ، هل كنتم نائمين في أحضان نسائكم أم تشاهدون الفيديو كليب ؟ .

وبصق على الضابط الذي أمامه عن بعد ، فلم يصل إليه سوى بقايا بصاق أو رذاذ خفيف . ودخل في نوبة هستيريا مرعبة لدرجة أن الضابط ارتعب من المنظر ، وصارت أسنانه تصطدم ببعضها البعض ، ومفاصله تكاد ترحل عن جسده بشكل نهائي .

ألقى مديرُ المخابرات ربطة العنق على الأرض ، وفتح أزرارَ قميصه لكي يقدر على التنفس ، وقال بانفعال واضح :

_ اشنقوا الشعبَ ، اشنقوا المأذون الذي أتم العقد ، اشنقوا الحاكم أيضاً، اشنقوا هذا الولد التافه الذي تزوَّجها ، واشنقوا ابنتي ...

ثم استدرك قائلاً والتشويش يقتلع أركانَ ذهنه :

_ لا تشنقوا ابنتي ، لا تقتربوا من ابنتي . لا تشنقوا أي أحد ، اشنقوني أنا .

ثم ارتمى على الأرض يبكي بحرقة كالطفل الذي تركته أمه وحيداً في المنزل ، وذهبتْ إلى السوق لكي تُضَيِّع وقتها لا أكثر .

كان الضابط مندهِشاً من هذا المنظر غير العادي ، فقد كان يعتقد أن مدراء

المخابرات ليس لديهم دموع ، وهم لا يبكون مطلقاً ، ولا يرفعون الرايةَ البيضاء حتى لو صارت كل أيامهم سوداء . لكن المشهد الصادم الذي رآه غيَّر قناعاتِه ، وأدخله في عوالم المشاعر التي كان يسمع عنها من زوجته المدمنة على مشاهدة أفلام نجلاء فتحي ومحمود ياسين . لكنه لأول مرة يتأكد من وجود أشياء تدعى مشاعر ، فقد أفهموه مذ دخل في العمل المخابراتي أن ضابط المخابرات الناجح يجب أن يرميَ قلبَه في أقرب سلة قمامة ، ويبصقَ على كل الناس حتى يقدر على انتزاع الهيبة من عقول الناس رغماً عنهم .

وجاء المساء حاملاً في معدته ذكريات الغيمات الباكية . كان مدير المخابرات يجلس على كرسيه الهزَّاز قرب المدفأة الخاوية على عروشها ، ويُسرِّح نظره باتجاه النافذة التي تطل على الأشجار العنيفة . في يده اليمنى كوب يانسون ساخن يسري في نخاع عظامه كتقارير محكمة أمن الدولة . كانت الإضاءة خافتة، فهو يحب أن يجلس في هكذا جو ، حيث يتذكر جو صالة السينما التي كان يذهب إليها مع خطيبته أيام الشباب ، والتي صارت فيما بعد زوجته ، أقصد زوجته الأولى . إنه يتذكرها الآن أكثر من أي وقت مضى ، فقد تم دسُّ السم لها في عصير البرتقال في أحد فنادق أوروبا ، حيث كانت تقوم برحلة سياحية معتادة . وقد اتَّهمت الحكومةُ جماعاتٍ إسلامية بالوقوف وراء الحادثة للانتقام من مدير المخابرات الذي كان سجله حافلاً بتعذيب السجناء السياسيين. أما الإسلاميون فاتهموا الحكومة بالضلوع وراء العملية لإقناع الرأي العام العالمي بأهمية تصفيتهم بعد تشويه صورتهم وتصنيفهم كإرهابيين . وفي الحقيقة لم يقدم أي طرف دليلاً على اتهاماته . وتمت عملية التسميم دون الوصول إلى الفاعلين ، وذهبت القضية إلى أدراج النسيان مثلها مثل عشرات قضايا تصفية الحسابات ، وطواها الزمن .

وبينما هو غارق في تأملاته بعد أن استعاد هدوءَ أعصابه وتركيزه بشكل كامل دخلت ابنته عليه. كأنه يملك إحساس الانتظار، كأنه ينتظر خروجها من بين أشجار

الحديقة ، من شقوق أي شيء . المهم أنها جاءت . ألقت السلام على أبيها ، فردَّ عليها السلام مع أنه غير متعود أن يستعمله في حياته اليومية. لاحظ حجابَ ابنته يلمع كعيون طائر حطَّ على تاج نخلة ، فقال متسائلاً :

ــ منذ متى ترتدين الحجاب ؟ .

ــ المهم أنني أرتدي الحجاب الآن .

قال ساخراً :

ــ لقد نسيتُ أن أُبارك لك بمناسبة زواجك ، ولكن اعذريني فلم تصلني دعوة من حضرتك ، وكأني رِجْل طاولة في هذه المقبرة .

ــ أرجوك يا أبي لقد اخترتُ طريقي وأنا أتحمل المسؤولية . لقد تزوجتُ ولو أخبرتُك لما وافقتَ . أنتَ تريد أن تبيعني لأصدقائك الأغنياء أو أبنائهم الفاشلين . أنا الآن امرأة متزوجة، فلا تدمر حياتي. أرجوك يا أبي لا تجعلني واحدة من ضحاياك الكثيرات. كم امرأةٍ أبكيتَها بعد أن سحقتَ زوجَها ظلماً . لقد قضيتَ على كل شيء رائع في حياتي . لأول مرة في حياتي أشعر أنني امرأة تَحِبُ وتُحَبُّ ، فاتركني أختر طريقي بنفسي ، أرجوك يا أبي اتركني .

انفجر ضاحكاً من أعماق قلبه ، وصفَّق لبرهة من الوقت سخريةً من هذا الكلام ، وقال باستهزاء :

ــ إنكِ تتقنين دوركِ بمهارة فائقة ، ولكن ما اسم هذه المسرحية التي تشاركين فيها ؟. هل استطاع هذا الولد أن يغسل دماغك ، ويزرع هذا الكلام في رأسكِ ؟. يا له من مُهَرِّج محترِف يعرف من أين تؤكل الكتف .

وتابع يقول :

ــ اسمعي يا سوزان ، أنتِ كنتِ ابنتي أما الآن فلا . ولن أسمح لبنت مراهقة مثلك أن تكسرني آخر عمري ، فاحملي كل أغراضك في هذا البيت ، ولا تعودي إليه نهائياً، لا أنا أبوكِ ولا أنتِ ابنتي. اذهبي مع هذا الولد الذي سيبلعك ثم

يبصقك في الشارع ، والآن قد انتهت المقابلة إلى الأبد .

وغادر والدها المكانَ وهو يزرع خطواتِه الثابتة على السجاد الفاخر، لكن دموعاً خفيفة برقت في عينيه ، وهو يحاول جاهداً قمعها وإخفاءها عن ابنته . وقد نجح في ذلك فلم تلمح ابنته ذلك المشهد البراق الذي امتزج فيه الملحُ بالماء . دخل غرفته ، وأغلق الباب بالمفتاح جيداً ، ثم ارتمى على السرير ، وأخذ يبكي بشكل صاعق . إنه يحترق في نحيب زرقة الرعب رافعاً كل الرايات البيضاء في وجه طوفان الدموع الذي يجتاحه ويخمشه بلا رحمة .

إنها ابنته التي كبرت أمامه لحظةً بلحظة ، سوف تذهب الآن إلى مكان آخر مع رجل آخر ، قد يراها ولا يراها . لمعت في ذهنه خاطرة :

ـ كل الدموع التي هاجمت العيون في ليالي الشتاء الحزينة ، وكل النحيب في أجساد الأرامل اللواتي كُنَّ ضحاياي ، أنا القاتل الباكي في هذه الساعة . كل الآلام التي سقيتُها للآخرين ، ها أنا ذا أتجرعها رغماً عني . لقد نلتُ نصيبي من الحزن والسعال والنحيب ، ومن سَلَّ سيفَ البغي صُرِع به .

٢٨

كان زياد جالساً مع أبيه في بيت أسرته . يجلسان على فراش أرضي بسيط. بدا وجه أبيه كمزرعة تجاعيد وهموم لا نهائية . لكن هذه التجاعيد جديدة ، فهي لم تكن منذ مدة ، وربما يكون التعب النفسي قد ساهم في تفشيها .

قال زياد بلهجة الابن البار :

ـ ما بك يا أبي ؟ ، أشعر أن صحتك ليست على ما يرام ، هل آخذك إلى الطبيب ؟ .

ـ لا طبيب ولا مهندس ، أنا بخير ، ولكن بصراحة يا زياد أُفكِّر أن أذهب إلى الحج ، فلم يعد في العمر سوى ساعات ، وأحب أن أُلاقيَ وجهَ ربِّي وقد أديتُ هذا الفرض ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة .

_ توكَّل على الله ، وسوف أُدبِّر لك المالَ اللازم ، وغداً سوف نسعى لإتمام هذا الموضوع مع الوزارة ، ولكن لا تنسانا من الدعاء هناك .

_ وهناك شيء أُريدك أن تقوم به ، وهو أن تظل تزور أخاك دائماً ، وتطمئن على صحته .

_ لقد زرتُه في الأسبوع الماضي ، وبصراحة لم يعد يتعرف على أحد ، فعندما رآني لم يقدر على معرفتي ، لكن الأطباء أكَّدوا أن هناك فرصة لا بأس بها لكي يتحسن وضعه الصحي بعد تنفيذ بعض البرامج الطبية المتطورة .

تهلَّلت أسارير الوالد ، وكأن التجاعيد قد اختفت فجأة ، وهاجرت من رقعة وجهه . هكذا تصورتُ المشهد . لقد دبَّت فيه الروح من جديد ، فهذا الكلام المتعلق بالحج وتحسن وضع ابنه أرجعه إلى عنفوان شبابه لدرجة أنه هبَّ واقفاً كعمود الكهرباء ، وقال إنه ذاهب ليُجهِّز حقيبةَ السفر من أجل الحج. ضحك زياد من هذا الأمر المبكِّر جداً ، لكنه لم يرد أن يقضيَ على سعادة أبيه فتركه يفعل ما يريد .

كانت فايزة تقوم بعملية جلي الصحون في المطبخ . سائل التنظيف آيل لأن يصبح فارغاً . لم تعد قادرة على مواكبة شراء هذه السوائل التي ارتفعت أسعارها بصورة جنونية . كل شيء ارتفع سعره أضعافاً مضاعفة . وفي زحمة تفكيرها بهذه الغلاء الفاحش أحسَّت بأن الصحون تتكاثر كقطيع من دبابات الصفيح التي تدوسها . وكانت الصغيرة خولة تجلس على كرسي متواضع تأكل تفاحةً غَسَلَتْها بعناية فائقة .

دخل زياد إلى المطبخ صارخاً :

_ أين أنتِ يا حبيبتي ؟ .

وبعد أن نطق بتلك الكلمات رأى خولة فخجل مما قاله ، فهو حريص على أن تظل هذه الكلمات بينه وبين زوجته ولا تخرج إلى العلن . وفي محاولة منه لتغيير

الموضوع قال ممازِحاً خولة :

_ لماذا تأكلين تفاحة كاملة وتتركيني جائعاً ؟ .

صدَّقت خولة هذه الكلمات فأرادت أن تقسم التفاحة ، لكن زياداً منعها من فعل ذلك وأكَّد لها أنه كان يمزح معها ، مما أشاع جواً من البهجة .

أخرج زياد من جيبه بعض النقود ، وأعطاها لخولة لكي تشتريَ ما تحبه من البقالة القريبة . وبالفعل خرجت خولة سعيدة بهذا المبلغ الكبير في عينيها ، وها هي تمشي بشكل جيد ، فيبدو أنها تعوَّدت على رجلها الصناعية التي أضحت جزءاً من جسدها الغض بعد أن كانت جسماً دخيلاً .

تأففت فايزة بصوت عال من شيء ما يضايقها ، فاقترب منها زياد وسألها عن سبب ذلك فأجابت وقد أوقفت مضغ العلكة بعد أن أرسَلَتْها إلى المنفى في إحدى زوايا فمها :

_ سائل الجلي ما إن أستخدمه حتى يصبح فارغاً ، ونحتاج إلى آخر جديد ، والأسعار تطير كالصاروخ. لم نعد في وطننا قادرين على العيش ، فقد صارت بلادنا للسياح وليست لنا .

ابتسم زياد ، وقال :

_ لا تحرقي دمك، هذه الحكومة تريد أن تسرق الشعب بأية وسيلة ، والشعب مستمتع لأنه صار مثل قطيع الغنم لا يتكلم ... في أوروبا يقومون بمظاهرات تشل البلدَ وتُرَكِّع الحكومةَ حتى يلهث المسؤولون وراء المواطن ، أما في بلادنا فالحكومة تبصق على الشعب ، وهو يظل يمدحها ويقدسها .

وتابع يقول :

_ صَدِّقيني يا سوزان ... أقصد يا فايزة .

وانقطع صوت زياد فجأة بعد أن نطق اسم زوجته الثانية أمام زوجته الأولى . لقد تحجَّر ريقه في حلقه بعد أن اصطدمت عيناه بعيون فايزة التي كانت في أقصى

مدار الألم والدهشة والرعب ، وقالت والدموع تقرع زجاج عيونها في هذا الشتاء الصيفي :

ــ هل اسمها سوزان ؟ ... بصراحة اسم جميل وأُنثوي وأكثر رومانسية من اسمي الذي يبدو موضة قديمة ... لقد نسيتَ اسمي يا زياد بعد ليلة واحدة قضيتَها معها . اذهب إليها وعش معها ليظل اسمها على لسانك ... لا تأت إلي ، ابْقَ معها طول حياتك ، واتركني في هذا المطبخ كالخادمة المنسية .

وصارت تبكي بحرقة كُلِّ إناث النخيل العاري من الأمطار ، فأدرك زياد حجم الكارثة التي اخترعها عن غير قصد ، وقال :

ــ واللهِ العظيم يا فايزة، أنا أخطأتُ عن غير قصد ، وأطلب منك أن تسامحيني.

أدارت ظهرها وهي تمسح دموعها بظاهر كفها ، فقال بحرقة بالغة :

ــ أرجوكِ يا فايزة لا تحرميني من منظر صدرك النافر كالهضبة . لا تحرميني من رؤية بطنك التي تزداد انتفاخاً وتحمل ثمرة حبنا. أنا كالسمكة أموت إذا خرجتُ من منتجعات رموشكِ . لا تتركيني مع عمودك الفقري وحيداً أعد الفقراتِ وأخطأ في العد. عينك اليمنى نهرُ الفرات ، واليسرى نهرُ دجلة ، دعيني أُقبِّلهما ليصبح فمي شط العرب .

ــ مشكلتي أنني أحبك ولا أقدر على مقاومة كلامك .

وبعدها أرادت بصق العلكة في سلة النفايات ، فهجمت كلمات زياد بشكل مباغِت :

ــ لا ترميها ، بل ضعيها في فمي لأمضغها من بعدك .

ــ وهل أخرجها بيدي ثم أضعها في فمك ؟ .

ــ ضعي فمك في فمي لتمر العلكة من لعابك إلى لعابي .

ترددت فايزة بعض الشيء لكنها فعلت ذلك ، والتصق الجسدان في بؤرة

بركانية صهرت مشاعرَ هذا العنف الرومانسي . كأن جسديهما في تلك اللحظة صاروخان احترقا تماماً بعد أن غادرا الغلاف الجوي للأرض . لستُ عالم فضاء أو خبير أسلحة ، لكن المشهد بدا حريقاً من العواطف الزوجية والقنابل والصواريخ المحترقة بعيداً عن طبقة الأوزون أو اتفاقية كيوتو .

ذهب زياد ليتفقد غرفته القديمة على السطح التي لم يزرها منذ مدة بعيدة . وكان الحنين قد استولى على كل عواطفه . أشكال البلاط في هذا الدَّرج الذي يبدو لا نهائياً ، والتشققات التي لم يفكر أحدٌ ما في إصلاحها ما زالت على حالها . تذكر خطواتِ راحيل المزروعة في نخاع هذا البلاط الأثري . كل الذكريات هجمت عليه فجأة .

إن غرفته كما هي ، لم يتغير فيها شيء سوى أن تلالاً من الغبار حلَّت مكانَه ، وتحرَّشت بأشيائه العزيزة . نظر من خلال شباك الغرفة إلى السطح ، فلم يجد أحداً . حبال الغسيل عارية من الغسيل . بدا منظراً مرعباً ، هذا الفراغ الحتمي الصاعق لم يترك في خياله سوى صور حفاري القبور الشباب الذين لم يجدوا أي مصدر دخل سوى العمل في حفر القبور وحراستها . كان خاطراً غريباً استوطن في ذهنه بعد أن رأى عُرْيَ حبال الغسيل . تذكر راحيل تلك الفتاة التي مرت تحت حبال الغسيل في الماضي الذي لا يعود إلا على شاشة الذهن . تُرى ماذا تفعل الآن ؟ ، داهمه هذا السؤال في عقر دار أحزانه لكن زياداً لم يجد إجابة واضحة . وسرعان ما هرب من تخيُّل أية إجابة محتملة ، وقام بالعودة إلى منزله هارباً من ألم الذكريات المتربصة به .

لاحظ زياد هدوء بيت جيرانه اليهود ، فلا يوجد أحذية عند الباب ، ولا يوجد أي صوت على عكس العادة . لكنه قال في نفسه إنهم قد يكونون قد ذهبوا لزيارة أحد ما .

وفي المنزل قال لأبيه المنتشي بعد أن انتهى من تجهيز حقيبة السفر :

ـ يبدو أن جيراننا اليهود غير موجودين في بيتهم .

ـ لقد سافروا بشكل نهائي إلى أوروبا بعد أن قطعوا كل العلاقات مع هذا المكان ، لكن بعض الناس يقولون إنهم رموا ابنتهم في دير الراهبات القريب منا ، والله أعلم بالحقيقة .

ـ وهل يُعقَل أن يرميَ الإنسانُ ابنته ؟ .

ـ هؤلاء يهود قد يفعلون أي شيء .

ـ وما علاقة هذه البنت اليهودية بدير الراهبات ؟ .

ـ أنا لا أفهم هذه المواضيع ، ولا أُتعب رأسي بالتفكير بهذه المسائل .

عَلِقَ هذا الموضوع برأس زياد ، ولم يقدر على التخلص منه، فقرر الذهاب فوراً إلى الدير وإنهاء هذه القضية تماماً .

ها هو يزرع أطراف أصابعه على باب الدَّير ، يقرعه بحماسة ولهفة عنيفَتَيْن رغم نعومة طرقه على الباب ، ويتحرق شوقاً إلى فتحه . وكانت كل راهبة في الداخل تطلب من زميلتها فتح الباب . وقررت جودي الذهاب إلى فتح باب لتنهيَ حالة الجدل . وبعد أن فَتَحَتْه رأت شاباً أنيقاً عليه علامات الوقار ، ويظهر أنه شخص محترم ، ففرحت جودي أنه ما زال هناك رجالٌ محترمون في هذا العالَم .

قال زياد :

ـ لو سمحتِ يا أختي ، هل يمكن أن أُقابِل الآنسة راحيل ؟ .

ـ من يريدها ؟ .

ـ أنا ، زياد خضر .

وما إن هبط هذا الاسم في فوهة أُذنيها حتى جحظت عيناها بشكل مرعب ، وحدَّقت في زياد كأنها تريد أن تأكله بأسنانها . وقد ارتبك زياد حينما رأى هذا المشهد الغريب . لاحظ زياد لمعانَ الدمع في عينيها دون سبب واضح ، فقال لها :

_ عفواً يا أُختي ، هل أنتِ بخير ؟ .

كانت جودي في تلك اللحظة كالطفلة الصغيرة التي تضم نفسها أمام مُعلِّمتها ذات الشخصية القوية ، وقالت بصوت هامس يحمل كل رغبة الأسئلة الحارقة :

_ أنتَ زياد خضر ؟ .

_ إن كنتِ لا تُصَدِّقيني فسأُخرج لك هويتي الشخصية .

_ لا داعي لذلك ، فمثلك يا أُستاذ زياد لا يكذب .

تفاجأ زياد من هذا الرد ، أما جودي فدخلت إلى الدَّير دامعةً تلم كل أشلاء قلبها المقلي على نار الشوق إلى الوهم ، ومضت لكي تخبر راحيل . وفي طريقها اصطدمت بعيون تيريز الجارحة التي قالت بلهجة خشنة :

_ من بالباب ؟ .

_ إنه شخص يريد الآنسة راحيل .

_ وهل هذا الدَّير وكالة من غير بوَّاب ، وكل من هبَّ ودبَّ يأخذ ما يريد وينصرف ؟ ... سأرى من هذا الرَّجل الذي يريد هذه البنت التي لا يجيء من ورائها غير المصائب .

ومضت تيريز إلى الباب فاصطدمت بهذا الشاب الذي بدا من ملابسه أنه غني نسبياً ، وقالت له :

_ ماذا تريد يا أستاذ من الآنسة راحيل ؟ .

أدرك زياد عدمَ وجود إمكانية في الدخول ومناقشة الموضوع بهدوء ، فقرَّر أن يُنهيَ الموضوع سريعاً ، فقال :

_ بصراحة يا أختي أنا جار راحيل منذ مدة طويلة ، وكنتُ أحبها طوال هذه المدة ، وقررتُ أن أتزوجها ، لذا جئتُ إلى الدَّير لكي آخذها معي .

ضحكت تيريز استخفافاً ، وقالت :

_ قصة رومانسية لا بأس بها ، ولكن السيناريو ركيك ، وينقصكما أغنية

لسيلين ديون لتبدوَ القصة أكثر إقناعاً ، أنصحك أن تدرس الأفلام العربية جيداً ، وعلى أية حال أنا لا أُمانِع أن تأخذها معك فهي عبء علينا ، ولكن يجب أن تُعَوِّضنا عن المبالغ التي أنفقناها عليها، فهي تأكل مجاناً، وتشرب مجاناً، وتلبس مجاناً، وتسكن مجاناً .

أدرك زياد أنه يتعرض لعملية ابتزاز وتحايل ، لكنه لم يرد أن يخوض في هذه المسائل ، وقرَّر أن ينهيَ الموضوع بدون جدال ، فقال :

ـ أنا مستعد للدفع ، قَدِّري كل المصاريف ، وسأدفعها لك الآن .

احتارت تيريز في اختيار المبلغ المناسب ، لكنها أجمعت أمرها ، وقرَّرت أن تضاعف الرقم عدة مرات لتكسب أكبر قدر ممكن من المال ، فقالت :

ـ المبلغ هو مئتا دولار فقط لا غير .

أخرج زياد المبلغ من محفظته وناولها إياه ، وقال لها :

ـ أرجو أن تُخبري الآنسة راحيل لكي تستعد ، وتُجَهِّزَ نفسها وكامل أشيائها.

أشارت تيريز إلى جودي لكي تذهب وتخبر راحيل . وبالفعل أسرعت جودي كالفرس غير المروَّضة ،كأن حذاءها الصغير وجواربها البيضاء الرقيقة قد اندمجت في عنفوان هذا الركض في مسارات النهايات السعيدة .

كانت راحيل تمسح بلاط المطبخ . لم تنتبه إلى قدوم جودي ، فقد كانت مندمجة بالكلية في مسح البلاط بكل إخلاص وإتقان . صرخت جودي وعيناها توغلان في مسارات الحلم الكهربائي :

ـ ارمي هذه الممسحة من يدك يا راحيل، فقد جاء شاب رائع لكي يتزوجك .

وقفت راحيل على قدميها مشدوهة ، وحدَّقت في هذا الفضاء الأسود حيث تذهب العناصر إلى الانطفاء القسري ، وقالت :

ـ هل تمزحين ؟! ، فأنا لا أحد يعرفني من الرِّجال ، ولا أعرف رِجالاً .

ـ وماذا عن زياد خضر .

ارتبكت راحيل حالما سمعت هذا الاسم، ولم تقدر على الوقوف ، فجلست على كرسي قريب منها ، وهي بين اليقظة واللايقظة ، وقالت بصوت يحمل كل انكسار الرمال المتحركة :

_ هل الأستاذ زياد موجود هنا وجاء ليسأل عني ؟ .

_ أنتِ تستحقين كل خير يا بَطَّة ، وتستحقين أن يحبك رَجُل بهذا الشكل ... والآن لا تُضَيِّعي الوقت ، لنُجَهِّز كل أشيائك كاملةً .

لم تكن أغراض راحيل الشخصية كثيرة ، فحقيبة واحدة متوسطة الحجم كانت كافية لجمع كل أغراضها البسيطة، ومشت إلى باب الدَّير الخارجي بمساعدة جودي كالعروس التي تُزَفُّ في محيط أخرس حتى النخاع بدون فستان العرس وبدون أية حفلة .

وما إن رآها زياد حتى تقدَّم ، وأمسك بيدها ، دون أن ينبسا ببنت شفة . فقد كان دفء اليدين أكثر بلاغة من أي حديث.وزياد يؤمن أن تلاصق اليدين لا يجوز، ولكن الضرورة فرضت عليه هذا الموقف الذي لا يقتنع به .

ومضى الاثنان في هذه الطريق الطويلة دون كلام ، فالصمت الذي كان بينهما يتكلم بالنيابة عنهما. لم يكونا يعرفان أين يذهبان، واكتفيا بالمشي وهو يمسك بيدها.

أما جودي فكانت تراقب المشهد من خلال نافذة غرفتها . دموعها المتوحشة متجمدة في عيونها ، لكنها تفجرت كالتراب اللوزي ، كأضرحة الملوك المخلوعين ، كآخر نظرات فتاة لاتينية قبل أن يتم اغتصابها فلسفياً . إنها تنتحب بكل عنفوان الجنون ، فحلمها الذي نَسَجَتْهُ من خيوط جِلْدها ها هو يضمحل أمام عينيها ، وهي لا تملك إلا الدموع خلف زجاج النافذة الموحش. فهذا الرَّجل عاشت مع شَبَحه لمدة طويلة، وطالما نادت عليه في المنام . ولم تتخيل في يوم من الأيام أن يلتقيا وجهاً لوجه ثم يختفيَ بكل سهولة . لقد اكتفت بهذا الشبح ، واقتنعت بأنه

لن يظهر متجسِّداً على أرض الواقع، لكنه ظهر كالإعصار ، وأحرق جسدَها الغض ، ورحل بعد أن زرع كل مسامير الألم في لحمها المزروع في رئة الوهم المتكاثر .

قال زياد أثناء سيره :

ـ هل تقبلين بي زوجاً يا راحيل ؟ .

لاذت بالصمت اللذيذ ، بينما تسلَّلت الحمرة إلى وجنتيها ، وبعد برهة من الصمت والاحمرار قالت بحياء شديد :

ـ نعم .

ومضى الاثنان إلى المأذون الشرعي الذي أتم عقد الزواج على أصوله . وارتأى زياد أن يُبقيَ هذا الزواج سراً لئلا تحدث مشاكل في الوقت الراهن ، وقد قرَّر أن يعلنه في فترة قادمة بعد أن تكون الأمور قد سارت كما يريد .

استأجر زياد غرفة في فندق متوسط الفخامة ليقضيَ فيها ليلته مع زوجته ريثما يستأجر شقة تجمعهما . وبعد أن تناولا عشاءً خفيفاً جلس الزوجان قُبالة بعضهما كأنهما يستعدان للحوار الذي يسبق حلم الجسد الواحد . والعجيب أنه في كل زيجات زياد كانت ليلة الدخلة أشبه بمحاضرة فلسفية أو مكاشفة من نوع خاص جداً .

نظر زياد إلى عيون راحيل من مسافة قريبة جداً ، وقال :

ـ لم أكن أعرف أن عينيك جميلتان لهذه الدرجة ، إنهما تفاحتان زجاجيتان غاطستان في بركة من الفضة .

ـ هل تحبني يا زياد أم تشفق عليَّ ؟ .

ابتسم زياد ، وقال بصوت هامس :

ـ أنا لا أُحبك ، ولا أُشفق عليك . أنا أعشقك حتى احتراق العشق ، وأعشق كل تفاصيل جسدك من رأسك حتى أخمص قدميك .

ـ لماذا تَذَكَّرْتَنِي بعد كل هذه الأيام ؟ .

_ أنا لم أقدر على نسيانك حتى أتذكرك ، ولكن أموراً بالغة التعقيد حدثت معي ، وجعلتنا نبتعد عن بعضنا ، وإلا فكان يتوجب عليَّ أن أتزوجك منذ مدة طويلة .

وأردف قائلاً :

_ أرجوك يا راحيل ، البسي الثياب التي كانت عليك عندما كنتِ تنشرين الغسيلَ في الماضي دون أن تحمر خدودك .

ترددت راحيل بعض الشيء قبل أن تُلَبِّيَ رغبةَ زوجها الذي كان ينظر إلى حزن عينيها ، ويتخيله شلالاً من الحِبر الأبيض نازلاً من كتابات رعشتها العنيفة بلا موعد مسبق .

قال زياد وفي حروفه أمواج الشَّبق :

_ اسمحي لي يا حياتي أن أحرق جسدكِ بدموعي ، هذه هي المحرقة الحقيقية ، وليست خرافة الهولوكوست . أُريدكِ أن تُفَجِّري كل الكبت الجنسي في حياتك ، كلَّ أحزان الشوارع الباردة ، لتكن ليلة الدخلة هي سِفْر الخروج الخاص بنا نحن الاثنين فقط . أَخرج من جسدي ، وأَدخل في جسدكِ ، وتخرجين من أعضائكِ ، وتدخلين في أعضائي . ليكن الحب بيننا معركة قاتلة ، فلا فائدة من العشق الذي لا يمتزج بالموت. سأكتشف تضاريس هذا الجسد اليهودي الذي سيحرقني بأنوثته ونعومته وبياضه . أريد أن تكون كل قمصان نومك بلون دموعي .

وبدأ يقترب منها ، وهي تبتعد بشكل غريب ، كأن خوفاً من شيء ما يقتلعها . فقال زياد بصراحة وهدوء :

_ راحيل ، لا أستطيع أن أجبرك على شيء لا تريدينه، وإذا كنتِ غير مستعدة فيمكننا أن نؤجل الموضوع حتى تجدي الرغبة لذلك .

_ لا داعي للتأجيل .

وبعد الانتهاء من ممارسة تلك الرغبة ، كانت الصدمة أكبر من كل احتمالات

الانهيار الشامل. فزياد قد صُعِقَ بشراسة، وراحيل غرقت في بحور الدمع المر . انتهى المشهد بكابوس وتواريخ كل الاكتئاب . فهول الصدمة لم يكن متوقعاً في أية مرحلة من مراحل هذه المشاعر التي يبدو أنها ذهبت أدراج الرياح ، فقد اتضح أن راحيل ليست بِكْراً، الأمر الذي كان فوق قدرة زياد على التحمل ، فها هو يبكي كالنساء على هذا الحلم المتكسر في العاصفة بَغتةً، قابعاً في إحدى زوايا شهيقه المتكسر، وهو لا يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول .

كان التشويش الهلامي في أوج جنونه ، فانسحب الاثنان من أحلامهما وتركا الساحة للدموع تخبط أطرافَهما بوحشية بالغة، وبعد برهة قال زياد بصوت خالٍ من الصوت :

_ لماذا فعلتِ هذا يا راحيل ؟ ، لماذا كسرتِ هذا الحلم الذي انتظرتُه منذ زمن بعيد ؟ . ليتكِ رفضتِ زواجنا لكي يحتفظ كلٌّ منا بذكرى طيبة عن الآخر .

قالت والدموع تتجذر خنادق بين كلماتها :

_ واللهِ يا زياد لا ذَنْبَ لي في هذا الموضوع كله ، فأبي اعتدى عليَّ بوحشية ، وسلب عُذْرِيَّتِي . حاولتُ المقاومة ، ولكني فتاة عمياء لا حول لي ولا قوة ، فلا تُحَمِّلْني آثامَ الآخرين ، فصورة الأب وهو يقتل ابنته ما زالت في رأسي . إن الكوارث التي زرعوها في حياتي كافية ، وقد أخذتُ نصيبي من العذاب ، فلا تزد عذابي . لقد دخلوا حياتي رغماً عني ، ودَمَّرُوها ، ثم رحلوا مبتسمين . إن أردتَ أن تُطَلِّقني فلكَ هذا . ارمني في الشارع ، وأرحني من الشكوك في عينيكَ اللتين أراهما الآن مع أنني لا أرى .

شعر زياد أنه قسى على راحيل بعد أن أدرك القصة كاملة ، فلم يملك في تلك الساعة الحرجة إلا أن يمسح دموعها بظاهر كفه، ويحاول التخفيف عنها. ضَمَّها إلى صدره بحنو الأب الحقيقي قائلاً :

_ أنا آسف يا راحيل ، لقد أنساني الشيطانُ طهارتك التي تمنعك أن تُفَرِّطي

بنفسك ، سامحيني يا قطتي الصغيرة ، واعتبري الموضوع ليس له وجود .

وغادر المكانَ وهو يصارع كل أنواع السموم في حَلْقه الذي كان يلتهب التهاباً . إن جسده المضمحل يتقاتل مع إلحاح مجنون يدفعه إلى البكاء . وبصراحة لم يكن يتحمل هذا الأمر . وأخيراً استسلم لزلزال البكاء الذي كان ينهش لحمَه بلا رحمة ، وهو يصارع غصةً في كل جوانحه .

٢٩

كان الدكتور وائل عمَّاش يعقد مؤتمراً صحفياً بعد خسارته غير المتوقعة لجائزة نوبل، مع أن كل الدلائل كانت تشير إلى أنه المرشَّح الأوفر حظاً. وتحدث عن الأمر باستفاضة بالغة. وقد كان حضور وسائل الإعلام العربية والعالمية كثيفاً بسبب المكانة الثقافية الكبيرة التي يتمتع بها الدكتور وائل في الداخل والخارج .

وفي بداية المؤتمر تحدَّث عن خارطة الثقافة في بلاده والعالَم ، وعن خيبة أمله بسبب خسارته لجائزة نوبل، والتي قال إنها ذهبت إلى غير رجعة، فقد أخبره الأطباء بأنه مصاب بسرطان الرئة ، وأن المرض قد تفشى بصورة لا يمكن معها الشفاء ، وأن أيامه على الأرض باتت محصورة في عدة أشهر .

وقد كانت صدمة كبيرة لوسائل الإعلام إعلان هذا الخبر الصادم . وقرَّر الدكتور أن يكون هذا المؤتمر آخر ظهور له في وسائل الإعلام ، وقد قال بالحرف الواحد :

ـ إنني أغتنم هذه الفرصة لأُعلن لكم اعتزالي الحياة الفكرية والأدبية نهائياً ومن غير رجعة . صحيحٌ أن الكتابة أعطتني الشهرة والمجد ، لكنها أعطتني كل اكتئاب الأرض بدون رحمة . وقررتُ اعتزال الكتابة في كل المجالات ، فلم تعد صحتي تساعدني على ذلك، كما أنني فقدتُ الشغف بالحِبر والورق . وبما أني في آخر أيامي فقد ارتأيتُ أن أكشف أوراقي وأسراري ، فقد خضعتُ لابتزاز من قبل جهات متنفذة وعدتني بالحصول على نوبل ، فأفكاري لم تكن نابعة من داخلي ،

بل نابعة من حجم لهاثي نحو العالمية والمال والشهرة . وللأسف فجائزة نوبل تُثبِت أنها أفعال سماسرة ومافيا أكثر شراسة من المافيا الإيطالية. لم يعد لي مستقبل أُدافع عنه، وبالتالي سأُنهي كلامي باعتراف سيشطب حياتي الثقافية، وهو أن كتاب " الرد على أرسطو" الذي حقَّق نجاحاً عارماً ليس من تأليفي ، بل من تأليف أحد طلابي السابقين الذي ضحَّى بمستقبله التعليمي من أجل أفكاره ، ولولا الظروف القاهرة التي حَاصَرَتْه من كل الجهات لما باع كتابَه الثمين في هذا الوطن الذي يبصق على العلماء ، ويقدس الراقصات والمذيعات العاريات ، وهذا الشخص اسمه زياد خضر. وقد آن الأوان أن ينال تكريماً يليق به ، فاذهبوا إليه لأنه أحق بالاهتمام مني . أما أنا فقد أنتظر الموتَ لكي يُنهيَ مسيرتي ، أو قد أذهب إليه مختاراً التوقيت .

وانسحب من القاعة كلها بهدوء قاتل ، بينما الحضور مصابون بالوجوم جراء هذه الاعترافات التي لم يكونوا يتوقعونها . وبدأت عيونهم تدور في التساؤلات حول شخصية مؤلف الكتاب الحقيقي . وكل وسائل الإعلام صارت تتناقل تفاصيل هذا المؤتمر الصحفي غير العادي الذي شطبَ كاتباً عالمياً ، وأفسح المجال لكاتب مغمور كي يخرج على السطح .

٣٠

أخذ زياد موعداً عند الدكتور عبد الرحيم جوهر ، فقد كان متعباً إلى درجة بالغة . أحس أنه قلبه قد وصل إلى طريق مسدودة ، ومشاعرَه قد تمزَّقت بشكل لم يسبق له مثيل .

كان ديكور العيادة مريحاً جداً لأعصاب زياد ، فالألوان موغلة في الهدوء والشاعرية ، والأثاث أنيق وموغل في النعومة ،كما أن البراويز الموجودة على الحيطان تحمل صوراً للحرم المكي والحرم المدني ، ومناظر طبيعية مختلفة . كلها موضوعة في أماكن ملائمة وجذابة .

دخل الرَّجلان في المصافحة والعناق بشكل بالغ الحميمية . واطمأنَّ الدكتور على صحة زياد ومسار حياته ، وبعد أن جلسا قال زياد :

_ أنا يا دكتور أريد شخصاً أتحدث معه ، وأتناقش معه في تفاصيل حياتي الشخصية ، ولم أجد أقدر منك على توجيهي . أحتاج إليك لتسمعني دون مقاطعة .

_ أنتَ أخي العزيز وبيننا أحلامٌ مشتركة وذكريات مختلطة ، ومن واجبي أن أساعدك حتى النهاية ، فقل كل ما يعتمل في صدرك ، ولن أُقاطعك .

_ لقد تزوجتُ ثلاث نساء في فترة متقاربة زمنياً ، وربما يظن البعض أنني مهووس جنسياً ، وأسعى إلى التهام أكبر قدر ممكن من النساء ، لكن هذا غير صحيح . لقد حوصرتُ في دور المنقِذ والمخلِّص . فكل امرأة كانت ستضيع إن لم أدخل في حياتها ، وأقتحم ذكرياتها . أحببتهن كلهن ، كل واحدة أحببتُها بأسلوب خاص ، لكني اكتشفتُ أنني أحبهن لأنسى حبي الحقيقي الذي كنتُ أود أن أعيشه مع غيرهن . بصراحة يا دكتور لقد قمعتُ قلبي كثيراً ، واستأصلتُ كل مؤشرات عشق النساء من روحي، وهذا ما كنتُ أطرحه في أحاديثي القديمة . لكني اكتشفتُ أن حب النساء بلاء من الله وامتحان صعب . ففي البداية وددتُ لو كان عندي زوجتان ، شركسية وبوسنية ، هكذا أجمع الشرق والغرب في بؤرة مركزية وسطية هي بؤرة جسدي ، فأتحول إلى كائن ثلاثي الأبعاد ، وأُسيطر على العالَم فلسفياً ورومانسياً دون استغلال . كان هذا هو حلم حياتي . وكلما أقصيتُ هذه الفكرة من رأسي ، وأقنعتُ نفسي أني نسيتها ، اكتشفتُ أنها تضرب في صدري كالإعصار الملتهِب . وبقيتُ هكذا لمدة طويلة حتى حصل معي موقفٌ مباغِت ، فقد كنتُ أُحْيِي ليلةَ القَدْر في سنة من السنوات في مكان ما . وفي لحظة ما ، وبشكل غير متوقع ، اصطدمت عيوني بعيون فتاة حقيقية ترتدي عباءةً سوداء ، وحجاباً أسود ، ووجهها كالكوكب الدُّريِّ موغل في النعومة والجمال والطهارة ، واستمر اصطدام

العيون لمدة ثانية واحدة تقريباً ، ثم مضت إلى وجهتها . وحدث هذا اللقاء الخاطف وقد كنتُ فرغتُ للتو من الوضوء. كنتُ في قمة الطهارة،وكانت في قمة الطهارة. وللأسف فطوال تلك الليلة لم أقدر على التركيز في العبادة بشكل كامل ، فكنتُ مشغولاً بها. وبالتأكيد لم تكن امرأة عادية،وعرفتُ فيما بعد أنها من آل البيت قرشيةً هاشميةً سليلة الشرف والمجد والطهارة. وكل الطرق كانت مفتوحة تماماً لكي أتزوجها . لقد استولى عشقها على قلبي ، وجاءت فرصة أن أكون صِهْرَ النبيﷺ ، وأن يفتخر أبنائي بكونه جدهم ، لكني انسحبتُ بهدوء قاتل ، لأني لا أريدها أن ترتبط بشخص مكسور حزين مثلي ، أريدها أن تلتقيَ برجل أفضل مني لكي يمنحها السعادة التي تستحقها، إنني أُعَبِّر عن حبي لها بالابتعاد عنها نهائياً لئلا أخدش ذلك القلب النقي . كلما أحببتُها أكثر بكيتُ أكثر وأقنعتُ قلبي بأن ينساها مع أنه لا ينساها ولا أنساها. ومذ ابتعدتُ عنها استوطنت في جسدي أمراضٌ لا تاريخ لها. وكل عواطفي وجَّهت بوصلتها باتجاهها ، وبقيتُ على جغرافية الفراغ أُصادق هذا العراءَ المزدحم بالأضداد . لا أستحق أن تمنحني أية امرأة قلبها . ولستُ أدري لماذا يتملكني إحساس بأني مقبرة للنساء، أو ضريح متحرك يظل يركض في حركة مغزلية مراقَبة، وأن المرأة التي تحبني ستضيع مستقبلها معي، ولن تكون سعيدة. لا أحب أن أرى التعاسة في عيون النساء اللواتي وثقن بي. إنني أعرف أن هذه أحاسيس وهمية لكنها تسيطر عليَّ ، وأعرف أنها خيالية لكني خائف من أن أكون فاشلاً في إسعاد المرأة التي أحببتُها وأحبتني. كنتُ أود أن أقول لها: ((مباركةٌ أنتِ بين النساء)) ، وهذا أحد عناوين كتب الدكتورة مهجة كهف السورية التي تحمل الجنسية الأمريكية . لقد رأيتُ تلك الهاشمية في ليلةُ القدر وصارت قَدَري، ولولا وجود رواية للطاهر بن جلون اسمها ليلة القدر ، لصنعتُ روايةً بهذا الاسم . وأكثر ما يغيظني ويمتص أكسجينَ رئتي أنه لا يوجد في حياتي حب من طرف واحد . لقد كنتُ عاشقاً ومعشوقاً في آن معاً قبل أن أَدفن حلمي بيدي مثلما

كان يفعل أهل الجاهلية مع بناتهم. ولو تزوجتُ تلك المرأة لأوصيتُ أن أُدْفَن عند رِجْلَيْها. لقد دخلتْ حياتي فجأة ، فصارتْ حياتي . لكنني أشعر بالذنب كَوْنِي إنساناً متزوجاً ، وقلبه مع امرأة أخرى في مدارات العقل الباطن . فلم أعد أعرف هل أنا زوج مخلص أم خائن ، مع أنني أحب زوجاتي بإخلاص ، وأحاول أن أكون زوجاً صالحاً . إنني مُشوَّش إلى أبعد حد طوال مراحل حياتي، فكنتُ أقول إن النساء لسن في ذهني مطلقاً ، وتارةً أرفض هذا الكلام ، وتارة أقول إنني قررتُ أن أعيش أعزب لكن القَدَر تدخل وغيَّر مساري . ربما كنتُ أرسم حياتي في مسار آخر في السياسة والأدب لكني وجدتُ نفسي فجأةً مرشداً اجتماعياً لنساء من أصناف شَتَّى ، وهذا أبعدني عن إيجاد ذاتي ، وتحقيق أحلامي الشخصية ، ولكن على أية حال فقد شطبت الحكومةُ مستقبلي السياسي إلى الأبد . فالبلاد مبدعة في قتل المبدعين . قد يبدو كلامي متناقضاً بشدة ، ومخلوطاً بعقد نفسية متضاربة ، ولكن الذي يعيش في بلادنا لا يقدر إلا أن يكون متناقضاً . لستُ أنا سارتر لأُحوِّل طالباتي إلى عشيقات ، ولو أردتُ الدنيا لكنتُ الآن أشرب الويسكي مع أميرات موناكو، ولكنْ ﴿ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ .

ودمعت عينا زياد بعد هذا الكلام ، واستأذن الدكتور في الانصراف دون أن ينبس الدكتور ببنت شفة ، فقد بدا زياد أكثر راحةً بعد أن أخرج هذا الكلام من صدره ، ربما كان يريد أن يلقيَ هذه القنبلة الكلامية ، ويمضيَ دون أن يرى ردودَ أفعال . ويظهر أن الدكتور قد فهم الموضوع ، فلم يشأ أن يلقيَ محاضرة على مسامع زياد الذي وصل إلى حالة النشوة الغائبة عن استيعاب المحيطات ، فلم يعد يرسل أو يستقبل .

لقد أضحى زياد كالنسر الجريح الذي ينزوي عن الأنظار في غابة القلوب المكسورة لئلا ترى المخلوقاتُ نزيفه ودموعه ، هكذا يتوحد مع ذاته ، ويدخل في عزلة ضاغطة . سيطول بكاؤه في هذا العالَم المجنون. إنها استراحة المحارِب

المصاب ، قد يقدر على مداواة جروحه في سباقه مع الزمن ، وقد يداهمه الموت قبل أن يجف الدم الغزير ، فيسقط بعيداً عن أنظار العالَم الذاهب إلى العزلة القسرية .

إنه يسقط في حفر الدمع المغطاة بمياه العيون الجريحة ، ودماءِ القلوب الكسيرة. كان يمشي في الشارع محاولاً إخفاء وجهه عن الناس ، لأن الدموع كانت تحفر في خدوده خنادق خالية من الجنود الذين عادوا من المعركة إلى أحضان نسائهم ، لكنه بقي لوحده يقاتل هذا الفراغ ، ظل في معركته الشخصية وحيداً ، مُحاصَراً بأشباحِ كائناتٍ تزحف على أظافر شظاياه ، ومُطَوَّقاً بذكريات نساء أخذن الأكسجينَ من دمه دون استئذان ، وتركن له الحريقَ مفعماً بثاني أكسيد الكربون ، أو بالأحرى هو الذي أَدخل الحريقَ إلى روحه .

٣١

وفي طريق العودة قرَّر زياد أن يُعَرِّج على الشاطئ ، في تلك البقعة التي كان يرتادها في الماضي حينما كان يعود من صلاة الفجر . جلس على صخرة أحزانه ، ورمى كل جروحه في البحر . وأثناء ذلك مرَّ أسعد ، ذلك الخارج على قانون الاستئذان ، فهو يظهر من مجاهيل الومض من حيث لا تدري، يقتحم عوالم نزيفك ، ثم يلقي حلمَه ، ويرحل إلى المجهول كما جاء .

أخذ زياد يُجَهِّز نفسه للاستماع إلى تعاليم أسعد اللامتوقَّعة ، فصار توقُّع اللامتوقَّع هو نشيد هذا الشاطئ العنيف . اقترب أسعد وعيناه تبتسمان بصورة ساذجة ، وقال :

ـ لا تحزن أيها الحزنُ ، فكل شيء سينطفئ . لقد سألتُ جِنِّيةً تزوجتْ أحدَ ملوك الجن الذي أَحَبَّته وأحبَّها عن عرسها الذي أقامه ضباطُ مخابرات غارقون في الرومانسية ، فقالت : ((رُبَّ امرئ حتفه فيما تمناه)) . بلادنا مقبرة ، فنحن نولد في المقبرة مليون مرة بكامل عنفوان الألم والرعشة ، ونموت في المقبرة مليون مرة

بكامل عنفوان الضجر . نستيقظ في المقبرة ، وننام في المقبرة . ومع مرور الوقت نكتشف أن ذواتنا البشرية صارت مقبرةً كاملة المعالم مفعمةً بكل هندسة شواهد القبور الكريستالية . وهكذا نُدَمِّر أنفسنا بأنفسنا ، ويسرق بعضنا بعضاً ، ونظل نحلف أننا شرفاء .

ـ لقد نسيتَ أن تقول إن الطوفان قادم ، لا بد أن يأتيَ .

ـ نحن الطوفان ، ونحن الذين سنأتي ، وسننتزع أكسجينَ رئاتنا من حنجرة كل الأعشاب السامة ، ولن نرفع الرايةَ البيضاء .

ومضى أسعد إلى وجهته ، وهو يحدِّق في البحر بعينين حادتَيْن لا ترتعشان . وكلما مشى صرخ بأعلى صوته :

ـ لِنَحْرِقْ كُلَّ الرايات البيضاء، ولنُجَهِّزْ كلَّ الأكفان البيضاء، ولنشطب البيتَ الأبيض ، ولنفتحْ شوارعنا المظلمة للقلوب البيضاء ، ولنحرر الرقيق الأبيض .

لأول مرة يشعر زياد أن أسعد صار صلباً وصعب المراس . لأول مرة يدرك أن ذلك القادم من المجهول الذاهب إلى المجهول لم يعد مجهولاً . إن نبرة التحدي في صوت البحر الممزوج بنظرات أسعد أخذت منحى جديداً ، منحى يزيد الذاكرةَ قدرةً على التوهج .

ومضى زياد إلى بيته ، والمشاعر المختلطة تتلاعب به . وعندما اقترب شيئاً فشيئاً رأى جموعاً كثيرة من الصحفيين والكاميرات التلفزيونية متجمعة أمام بيته ، فأدرك أن هناك أمراً غير عادي قد حصل ، لكنه لم يقدر على توقعه ، فهو لم يعرف أن هؤلاء الناس قد حضروا بسبب اعتراف الدكتور بأن كتاب" الرد على أرسطو" من تأليف زياد .

أُصيب زياد بالخوف المفاجئ من هذا المشهد ، وهو الذي كان يقود المظاهرات والاجتماعات ، ويخطب في الجميع دون أن يتلعثم أو يضطرب . ماذا حصل له ؟ . لم أتوقع أن يرتجف من منظر الجموع . أدرك أن عليه مغادرة المكان

فوراً ليتجنب اللقاء بهؤلاء الناس . ولم يجد إلا العودة إلى أسعد ، والبقاء معه حتى ينفض الجمع .

رجع إلى الشاطئ ، ومضى يبحث عن أسعد ، وينادي عليه بكل ما في صوته من قوة ، لكن أحداً لم يجب غير ومض عيون البحر . واصل البحثَ لكن كل محاولاته باءت بالفشل . خاف أكثر من أي وقت مضى . شعر أن الشاطئ سيكون فارغاً لأول مرة في تاريخ الحلم ، وعارياً من آثار أقدام أسعد . هل سيمر أسعد من هنا مرةً أخرى ؟ . هل سيلقي تعاليمَه على هذه الرمال الشاسعة وهذا البحر النازف ؟ . استولت على أعضاء زياد مشاعر الفراغ الزماني والعدم المكاني ، فلم يقدر على الوقوف على رجليه .

جلس على صخرة قريبة ، وهو يجيل بصرَه في الأرجاء لعله يلتقي بأسعد ، ولو لدقيقة واحدة . كان الفراغ عارماً ، والبحر في ذروة هدوئه . صار زياد وحيداً في هذا المشهد السكوني المرعِب. حتى ظلال أسعد اختفت من مرايا البحر، كأن البحر هو الآخر خلع جِلْدَه ، وهرب من الأرجاء. جحظت عينا زياد ، وتداخلت أعضاؤه في احتفالات المد بموسم تزاوج الموج البِكْر . استعرضَ كلَّ تاريخ الرمال خلال عبوره في أرشيف السواحل النائية . غداً ستأتي السائحاتُ العاريات يلتقطن الصور التذكارية للفقراء والصيادين والباعة المتجولين، ويرجعن إلى بلادهن حاصلاتٍ على لحظات زمنية هاربة من أَسْر اللحظة .

بدا أن البحر تفاحةٌ للعابرين في نخاع المكان . لم يخطب الرملُ ألواحَ المراكب الجالسة على حواف الرعشة كالعاطلين عن العمل. لم يتذكر الليل أن يصادق البحرَ في دروب المجروحين أبداً كجناح نسر اعتزل الحياةَ السياسية ليموت وحيداً كأرملة حفار القبور في الغابة المسحورة . وطنٌ يهجر أزمنةَ الروح ، ويحفر قبرَه بيديه ، وما زال التصفيق يعلو رغوةَ المكان المتوحش .

وزَّع نظراتِه على كل الجهات،وآمن في تلك البؤرة الزمنية العميقة بأن الطوفان

قادم ، ولكنْ من أية جهة سيأتي ؟ . لم يقدر على الإجابة عن هذا السؤال ، لكنه قال بصوت عنيف خلع كتفَ البحر :

ـ صدقتَ يا أسعد . نحن الطوفان ، ونحن الذين سنأتي ، وسننتزع أُكسجينَ رئاتنا من حنجرة كل الأعشاب السامة ، ولن نرفع الرايةَ البيضاء .

تَمَّتْ